المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 40

مدينة أبي الجعد
الذاكرة والمستقبل

kitabweb-2013.forumaroc.net

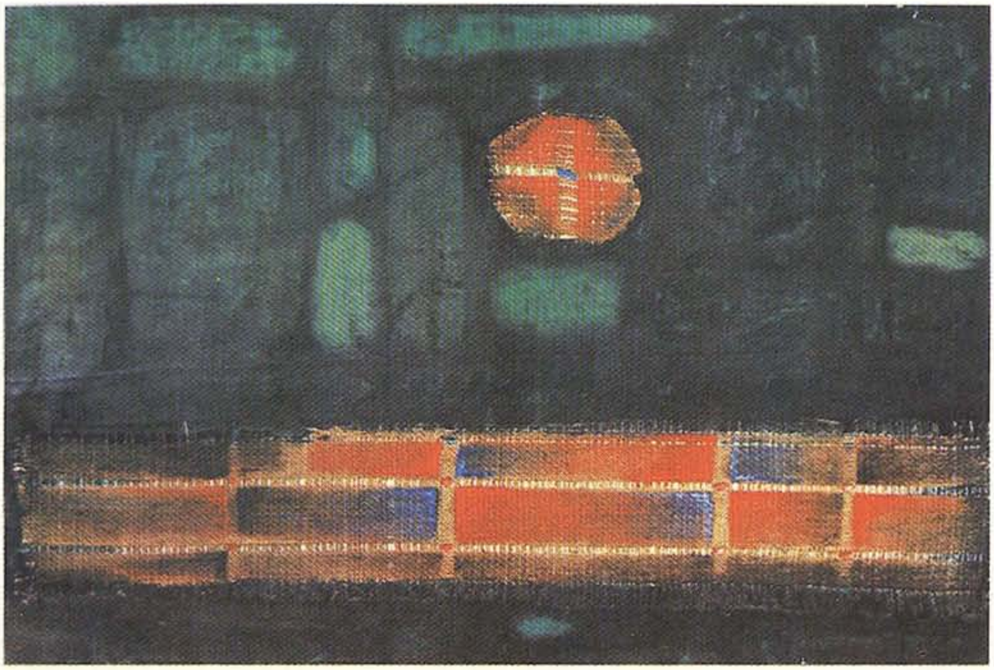

مدينة أبي الجعد

الذاكرة والمستقبل

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 40

الذاكرة والمستقبل

1995

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : **مدينة أبي الجعد، الذاكرة والمستقبل (ندوة)**

منشورات : كلية الآداب بالرباط.

لوحة الغلاف : للفنّان أحمد الشرقاوي ـ 1961 ـ فارسوفيا (تصوير محمد المليحي).

الخطوط : بلعيد حميدي.

التصفيف الضوئي : أنسيف الزنايدي ـ الهاتف : 72.70.66 ـ الرباط.

الطبع : مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء.

الحقوق : محفوظة للكلية بمقتضى ظهير 1970/07/29.

الإيداع القانوني : 1995/263.

ردمك : 9981-825-30-1.

التسلسل الدولي : 1113-0377.

الطبعة الأولى : 1995.

طبع هذا الكتاب بدعم
من مؤسسة كونراد أديناور

تقديـم

نظمت كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس، بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أبي الجعد، الأيام الدراسية الأولى حول هذه المدينة، بتاريخ 13-14 ماي 1994، وذلك في إطار الجهود التي تبذلها هذه الكلية لربط الثقافة بالمجتمع وانفتاح الجامعة على محيطها الإقليمي والوطني.

ويحتوي هذا المجلّد الوقائع الكاملة لهذه الأيام التي تناولت منطقة أبي الجعد بمختلف مجالاتها، تذكيراً وتقريراً واستشرافاً.

ولابدَّ من الإشارة في هذا الصَّدد إلى أن هذه الأيام الدراسية ما هي إلّا خطوة أولى في سبيل ترسيخ تقليد يسعى في خدمة المنطقة والتعريف بها.

مدخل عام*

الحبيب المالكي
المجلس الوطني للشباب والمستقبل

بسم الله الرحمٰن الرحيم

السيد جلال السعيد رئيس مجلس النواب ورئيس المجلس الإقليمي
السيد علال سيناصر وزير الشؤون الثقافية
السيد أحمد شوقي عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكَة
السيد محمد منيار الكاتب العام لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
زملائي الأساتذة الأعزاء
أيتها السيدات والسادة

فعلاً، تنطلق أعمال هذه الأيام الدراسية الأولى حول مدينة أبي الجعد، لتشكل حدثا علمياً له دلالات وأبعاد مختلفة. نعيش اليوم هذا الحدث بعد انتظار طويل، لكن نعيشه في ظروف متميزة نظراً للحضور المستمر، للحضور الدائم للسيد رئيس المجلس الإقليمي السيد جلال السعيد. وكذلك، نظراً للحضور الفعال والواعد للسيد علال سيناصر وزير الشؤون الثقافية، ونظرا ـ بطبيعة الحال ـ لدعم ومشاركة السيد أحمد شوقي عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكَة، واحتضان المجلس البلدي للمدينة وفي إطار ترعاه أعرق كلية للآداب في بلادنا في مفهومها الحديث، وبمساهمة نخبة من الباحثين الاجتماعيين المغاربة.

إن هذا الحدث يظهر أنه عندما تتوفر الإرادة الساعية إلى خدمة المدينة ودائرتها في أفق خدمة أهداف الوطن الكبرى في التنمية والتقدم، فإن كل الصعوبات

* هذا المدخل هوَ ـ في الأصل ـ نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ الحبيب المالكي في الجلسة الافتتاحية

تتبدد لتفسح المجال أمام دائرة الآمال الكبيرة في المعرفة، وذلك كشرط أساسي لصياغة ووضع مشاريع للتنمية تتيح للمدينة تحقيق ما يعيد لها مكانتها التاريخية كموطن للإشعاع الثقافي وبؤرة من بؤر النشاط المجتمعي المنتج والفعال.

سيداتي، سادتي،

لابد أن نقف في إطار هذه الأيام الدراسية الأولى عند مفارقة يصادفها كل من يهتم بمدينة أبي الجعد، يهتم بماضيها وحاضرها وتتمثل هذه المفارقة في الهوة الكبيرة الفاصلة بين الأدوار المتعددة التي لعبتها هذه المدينة منذ تأسيسها في أواخر القرن السادس عشر، حيث كانت مركزاً حضاريّاً وحيداً في سهل تادلة وضمت أهم مركز ديني بالنسبة لمحيطها الجغرافي، مما سمح بتشكل شبكة من الطرق حولها فبرزت كوسيط فعال في المجال التجاري والوضع الهامشي التي تعيشه اليوم. فكيف حصل هذا التحول ؟ وما هي العوامل والمحددات التي نقلت المدينة من دائرة الإشعاع الديني الثقافي العمراني إلى دائرة يطبعها ـ إلى حد بعيد ـ نوع من الإنكماش والتقوقع ؟ دائرة تصلبت بنياتها، وتراجعت البنيات الإنتاجية نتيجة قطيعة طويلة مع حركية اليوم المتمثِّلة في المتغيِّرات العديدة التي لحقت الدوائر والأقاليم التي تحيط بها جغرافياً.

كيف يمكن فهم وتحليل الشروط والآليات التي وجهت سيرورة تطور المدينة وحوَّلتها إلى حدٍّ بعيد من مركز إلى هامش، من مركز فاعل إلى محيط منفعل ؟

أعتقد أيتها السيدات، أيها السادة، أننا مطالبون في هذه الأيام الدراسية الأولى بالبحث في مسيرات هذا الوضع لفهمه أولا ومحاولة التغلب عليه في مرحلة لاحقة، سعياً في تذليل مجموع العوائق والصعوبات التي تعترض تنمية المدينة ودائرتها وتكفل لها تدارك ما يمكن تداركه لتلحق بإيقاع التغيير السريع الذي يعد اليوم علامة من علامات التنمية الذاتية المطردة.

إن إيماننا الكبير بأن المعرفة شرط أساسي في أي مشروع تنموي هو الذي يدفعنا اليوم للمساهمة في كتابة تاريخها ومحاولة تشخيص أوضاعها لفهم أدوارها التاريخية المتعددة وكذلك من أجل صياغة برنامج في التنمية الملائمة لها ولمحيطها الجغرافي والديمغرافي.

ضمن هذا الأفق، نريد في هذا التقديم العام لأعمال هذه الأيام صياغة مجموعة من الملاحظات المتعلقة بالمدينة ودائرتها في ضوء أوضاعها الراهنة.

الملاحظة الأولى تتعلق بانغلاق المدينة على نفسها. ذلك أن الخريطة الجديدة لوسائل المواصلات تربط المدن والأقاليم التي تتقارب وتتقاطع في وسائل تنميتها، وتبقى مدينة أبي الجعد محطة على الهامش.

والسؤال المطروح هنا هو : ماهي الوسائل التي تتيح للمدينة حضوراً مرضيا، حضوراً متكاملاً في إطار الخريطة الجديدة للمواصلات إقليميّاً، وجهويّاً، ووطنيّاً كذلك ؟

الملاحظة الثانية تتعلق بالبنية الديمغرافية للمدينة والدائرة حيث توجد نسبة كبيرة من الشباب ــ أكثر من 45% ــ تتراوح أعمارهم بين 15 و34 سنة وهو الأمر الذي يعد بمثابة رأسمال بشري قابل للاستثمار المنتج متى توافرت الشروط المناسبة لذلك.

لكن هذا لا يتأتى إلّا من خلال وضع هندسة جديدة للبنيات التحتية القادرة على استقطاب شرائح الشباب واستيعابهم من أجل المساهمة في تطوير القدرات الإنتاجية للمدينة ودائرتها.

الملاحظة الثالثة تتعلق بالتطور العمراني للمدينة. ففي مستوى المجال العمراني يمكن، فعلاً، ملاحظة الحصار الذي أصبح مضروباً على المدينة، حيث أن محيطها لا يتوفر على الأراضي الضرورية والمناسبة لتوسيع دائرتها العمرانية. وهذا الأمر يتطلب البحث عن وسائل استصلاح الأراضي المجاورة وتجهيزها في اتجاه سليم للتمكن من إيجاد متنفَّس يسمح بتوسيع المدينة ويفتح المجال لحركية معمارية تناسب تطلعاتها في النهوض والتقدم.

الملاحظة الرابعة هي أن معاينة النسيج الاقتصادي الحالي للمدينة تُشْعِرُ الملاحظ بانعدام أية قاعدة اقتصادية صَلْبة حقيقية. وهذا يتجلى على سبيل المثال في أن الحرف التقليدية والتي كانت وإلى عهد قريب تُعتبر وجهاً من أوجه تطور المدينة وإحدى ركائز اقتصادها مثل الفخَّار والجلد أصبحت اليوم في طريق الانقراض، وذلك بفعل عوامل متعددة. ولكنني أعتقد بإمكانية مقاومة هذا التراجع من أجل إعادة الاعتبار لهذه المهن ومحاولة العمل على تطويرها وتكييفها مع الحاجيات المتنوعة الجديدة والقديمة إقليمياً وجهوياً.

الملاحظة الخامسة تتعلق بالهجرة القروية. فقد تضاعفت فعلاً مشاكل المدينة وتفاقمت تحت الهجرة القروية، بل إن الهجرة ساهمت في مزيد من تفقير البادية المحيطة بالمدينة. وقد تعاظمت هذه الظاهرة بسبب مواسم الجفاف التي تلاحقت على بلادنا في السنوات الأخيرة بالإضافة إلى ضعف المشاريع الاقتصادية التي تكفل تطوير البوادي عن طريق المساهمة في تهيئة ما يمكنها من الوسائل الضرورية لتصبح بيئة صالحة تعزز إمكانيات تطور المدينة وتساهم في دعم تنميتها الاقتصادية والاجتماعية.

والملاحظة السادسة هي أن مستقبل المدينة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستقبل عالمها القروي. فلا يمكن التفكير في مخطط تنموي للمدينة خارج دائرتها ومحيطها الإقليمي.

وفي هذا الإطار نشير إلى الموقع الجغرافي للدائرة القريب من المراكز الحضرية الكبرى بالمغرب : مدينة خريبكَة، مدينة بني ملال، مدينة خنيفرة وكذلك مدينة الدار البيضاء ومدينة الرباط العاصمة. هذا الموقع يعد من العوامل المساعدة في تسهيل عملية البحث عن سبل ووسائل تنميتها وتطويرها.

أيتها السيدات،

أيها السادة،

لا شك في أن وضع مخطط شامل لتنمية المدينة ودائرتها، مخطَّط تساهم فيه كل الفعاليات داخل المدينة وخارجها، سيمكّن من انطلاق مسلسل جديد في التنمية فتستعيد المدينة مكانتها الحقيقية وتتحول بكيفية تدريجية إلى شريان اقتصادي مدعم بالمكانة المتميزة التي حققتها المدينة في ماضيها ـ وهو الأمر الذي نطمح جميعاً إلى تحقيقه ـ فنكون بذلك قد ربطنا الحاضر بالماضي وعملنا على تهييء ما يسمح بمستقبل أفضل للمدينة. ولن يتحقق هذا إلا بتظافر جهود كل الأطراف المعنية. واسمحوا لي هنا أن أنوه بالدور الإيجابي والبناء الذي ما فتئت تقوم به السلطات الإقليمية وكذلك السلطات المحلية والمصالح التقنية والمجالس المنتخبة، ما يؤشر على ملامح التنمية المرتقبة.

وضمن هذا الأفق تنطلق أعمال الأيام الدراسية الأولى مدشِّنة مبادرة نحن جميعاً مطالبون بتحويلها إلى تقليد راسخ يسعفنا في التعرف على مختلف بنيات المدينة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن اهتمامنا قد انصب أثناء التهييء لهذه الأيام على أن تشكل محاورها فضاء لتقديم أبحاث عامة تمهد لأبحاث متخصصة في اللقاءات الثقافية القادمة.

ستقارب إذن أبحاث هذه الأيام ثلاثة محاور كبرى : المحور الثقافي، المحور التاريخي، المحور الاقتصادي الاجتماعي، وستساهم عروض السادة الأساتذة في إضاءة كثير من القضايا وهو الأمر الذي نتوخى من ورائه معاينة الواقع المحلي للمدينة ومحيطها الجغرافي.

أيها السادة

تقف مدينة أبي الجعد اليوم في مفترق الطرق، يسندها تاريخ حافل بالعطاء، وهو تاريخ يمكن استلهامه في الحاضر ليشكل حافزا يفتح أمامها إمكانية استعادة أدوارها القديمة في ضوء الحاجيات والطموحات الجديدة المواكبة لمتطلبات المغرب الجديد، مغرب التنمية الجهوية واللامركزية.

إن امكانيات المدينة الراهنة، المتمثلة في رأسمالها البشري ومجمل الشروط المؤطرة لبنياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، تعد عوامل مساعدة على فتح آفاق التطور أمامها... بل إننا نعتقد بإمكانية أن تتحول المدينة إلى نموذج للمدن القادرة على الجمع بين مزايا الأصالة ومقومات التحديث، ففيها مآثر الأصالة التي بلورتها في التاريخ، وأمامها إمكانية استيعاب مكتسبات الحداثة بحكم المؤهلات الجغرافية والديمغرافية التي تشرط وجودها اليوم. ورغم صعوبة إنجاز هذا الأمر فإن قناعتنا المستندة إلى شواهد التاريخ ومؤشرات الحاضر تتيح لنا بلوغ هذا الهدف وفي أقرب الآجال.

وفي ختام هذه الكلمة لا أريد مرة أخرى أن تفوتني فرصة إعادة شكر معالي وزير الشؤون الثقافية في حكومة صاحب الجلالة.على حضوره بيننا ومساندته الفعلية لأيامنا الدراسية، وإعادة شكر السيد رئيس المجلس الإقليمي والسيد عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكة الذي احتضن هذا النشاط العلمي بأريحيته المعهودة مما يسر سبل إنجازه وسهلها، كما نشكر أعضاء المجلس البلدي على المساعي التي قاموا بها من أجل السهر على إنجاح هذه الأيام ونشكر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط التي

رحبت بفكرة الأيام العلمية حول مدينة أبي الجعد وحملت على عاتقها مسؤولية الإعداد العلمي لها بكثير من التّفاني المعهود في مختلف أنشطتها العلمية ذات الإشعاع الوطني، ونشكر كل الزملاء الباحثين الذين بفضل جهودهم في البحث والتنقيب ستراكم هذه الأيام العلمية معارف متنوعة عن المدينة للاستفادة من نتائجها في التخطيط للمستقبل. والسلام عليكم ورحمة الله.

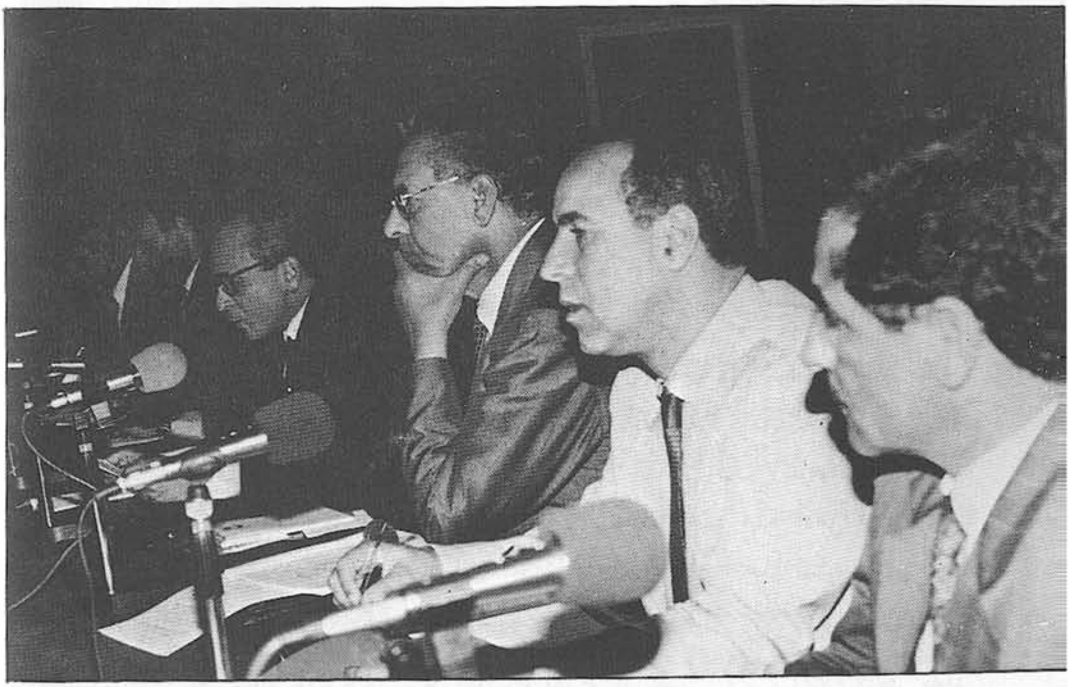

الجلسة الافتتاحية

أبو الجعد، المدينة الزاوية :
مسألة الهوية وإشكالية التطور

أحمد بوكاري
كلية الآداب ـ مراكش

توطئة

عندما فكرت في موضوع المشاركة، تسابقت إلى ذهني العديد من القضايا والموضوعات المرتبطة بتاريخ الزاوية على المستوى الثقافي والسياسي والاقتصادي. وارتباطا مع موضوع وأهداف الملتقى الدراسي الأول حول مدينة أبي الجعد، كان من الضروري الجمع بين قضيتين وحالتين متلازمتين :

ـ كيف كانت وضعية أبي الجعد التي أُسست لتقوم بأدوار ومهام محددة، فكان نجاحها وإشعاعها رهيناً بالعديد من الشروط والمحدِّدات..؟

ـ كيف آلت أمورها إلى خفوت وركود استمر منذ مطلع القرن الحالي إلى اليوم ونحن على أبواب استقبال قرن جديد ؟

ـ وهل من سبيل إلى تدارك هذا الواقع من خلال برنامج طموح وشجاع يعيد للمدينة وما حولها الثقة في إمكانيات تجاوز كل المثبطات حتى نضع المنطقة في المسار التنموي اللائق بتاريخها وحيوية رجالاتها وشبابها ؟

في هذا الأفق، تطرح هذه المداخلة :

ـ مسألة الهوية بارتباط مع تاريخ المدينة الزاوية كجانب تراثي تأصيلي، ولكن أيضا كمعطيات علمية يجب تحليلها لإدراك العناصر الفاعلة والمحركة في تاريخ المنطقة.

ـ إشكالية التطور : كحتمية تفرضها شروط العصر في ظل خصوصيات جغرافية وبشرية وظرفية يجب التعامل معها بواقعية ورغبة أكيدة لتحقيق الطفرة المنشودة(1).

ما هي شروط تأسيس المدينة ؟

ارتبط تأسيس الحواضر المغربية بمحددات تاريخية وحضارية مع اعتبار الخصوصيات المكانية والبشرية. وفي كل الأحوال، فإن الخاصية الإسلامية التمدينية كانت حاضرة بشكل من الأشكال بحكم موقع المغرب في أقصى البلاد الإسلامية من جهة ومجاورته لأرض الكفار (أرض الحرب) من جهة ثانية. في هذا الإطار، جاء تأسيس العديد من المراكز والحواضر مثل فاس ومراكش وأغمات التي اضطلعت بمهام الرباطات في مفهومها الواسع قصد جمع المسلمين وتوحيدهم ورص صفوفهم لخدمة أهداف محددة من بينها الذَّود عن دار الإسلام ونجدة المسلمين. من هذا المنطلق لن يكون ضروريا التأكيد على أهمية الفكرة الدينية في أي مشروع تأسيسي له أبعاد سياسية واسعة أو محدودة(2).

خصوصيات تأسيس أبي الجعد وشروط إشعاعها

الظرفية التاريخية العامة

يرجع تأسيس زاوية امحمد الشرقي إلى ظرفية تاريخية متميزة، من أبرز سماتها :

ـ انهيار البناء السياسي العام الذي تعاقب على تشييده شخصياتٌ بارزة ودول بانية شأن الأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين.. وما يهمنا هو التراكم الحضاري للقرون المتأخرة، على الأقل من القرن 6 هـ إلى القرن 8 هـ. فلم يعد

(1) آثرت عدم إدراج القسم الثاني من المداخلة المتعلق بإشكالية التطور لاعتبارات موضوعية.. ذلك أن معظم الأفكار والاقتراحات الواردة فيه تضمنها :
ـ المدخل العام للندوة التي تقدم به الزميل والاستاذ الحبيب المالكي ؛
ـ التقرير الختامي للجنة المنظمة الذي تقدم به الزميل والأستاذ عبد اللطيف كمال.

(2) وهذا الخيار لا ينفي البعد الاقتصادي بسبب العلاقة الجدلية بين مختلف مكونات وشروط الاجتماع البشري (الأسواق، مراكز ومحطات الطرق التجارية الكبرى إلخ...).

المغرب هامشيا في التفاعلات الحضارية بقدر ما أصبح الموجه والفاعل الرئيسي فيها في كل الجناح الغربي للعالم الإسلامي المتوسطي والصحراوي(3).

ـ كان من نتائج هذا التراجع الذي تزامن مع تبلور شروط النهضة الأوربية أن فقد المغرب جلّ مؤهلاته الاقتصادية القارية والقطرية، بل وأصبح مستهدفا في هويته وكيانه منذ أن بدأ العد العكسي لسقوط الأندلس. فكان لاحتلال سبتة (1415 م) أكثر من دلالة.

ـ كان من المفروض أن يكون رد الفعل المغربي حاسما على مختلف المستويات، ودون انتظار إذن رسمي في الموضوع على اعتبار أن مجاهدة المحتل ومدافعته عن البلاد جزء لا يتجزأ من الدفاع عن النفس والوجود. وبالرغم من انعدام فرص التكافؤ ؛ إلا أن شعور المغاربة بالغبن التاريخي حول عوامل الانحطاط إلى شعور عميق بالقوة والتحدي، فكان نجاحهم الجزئي يتمثل في محاصرة المحتل في قلاعه وحصونه وإفشال مخطّطاته للتوسع نحو فاس ومراكش، وفي مرحلة لاحقة الالتفاف حول القيادة الرشيدة المجاهدة لأسرة محمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله منذ عام 1510 م (915 هـ).

ـ وفي كل هذه الحركة الاجتماعية الشاملة، قام شيوخ الزوايا ورجال التصوف والعلم عموما بدور بارز في تعبئة السكان... حتى أن بيعة الأسرة الزيدانية (السعدية) جاءت بمبادرة منهم وهي المساندة التي واكبت الحركة الجديدة إلى حين تحقيق وحدة البلاد وتحرير معظم الثغور... وجاءت معركة المخازن لتجسد حقيقة هذا التلاحم الذي أنقذ البلاد والعباد من كارثة محققة، بل إن المغرب عاش بمفاخر وأصداء هذا الانتصار منذ 1578 م إلى مطلع القرن 20 م..(4).

---

(3) هناك على الأقل ثلاث مراحل رئيسية في تاريخ المغرب الأقصى الإسلامي :
- مرحلة الدويلات والإمارات؛
- مرحلة المغرب الأمبراطوري من العهد المرابطي إلى القرن 13 م؛
- مرحلة الدولة الوطنية : من العهد السعدي إلى الآن.

(4) ليس من باب التعصب أو النظرة الضيقة التأكيد على احتفاظ المغرب بهويته الإسلامية والعربية والإفريقية والمتوسطية منذ انهيار الخلاصة الإسلامية في المشرق وشمال إفريقيا.. في حين أن انبعاث فكرة القومية في الدول المشرقية وغيرها اقترن بانبعاث النهضة العربية وحركات التحرير المعاصرة.

أهمية منطقة تادلة

يجمع المؤرخون على أن منطقة تادلة شكلت حدا فاصلا بين مملكة مراكش (السعديون) ومملكة فاس (الوطاسيون) مدة تناهز نصف قرن (النصف الأول من القرن 10 هـ/16م)، بدليل أن معظم المعارك الحربية بين الطرفين وأهمها وقعت قريبا من نهر أم الربيع أو وادي العبيد.. من هنا نتصور أهمية وقيمة الدعم القبلي والصوفي للمشروع السعدي.. وإن تأجيل تحقيق انتصار حاسم وسريع في هذه الجبهة معناه تأخير سقوط آخر الجواجز نحو العاصمة فاس، وبالتالي إتمام توحيد البلاد. إلا أن هذا الهدف عاكسته شروط موضوعية، من أهمها :

ـ استغلال البرتغاليين لهذا الانقسام قصد المناورة لتأجيل وعرقلة إخلاء الثغور الجنوبية وإنهاك القوة السعدية.

ـ ضغط الأوبئة والقحوط التي شهدها المغرب في هذه المرحلة..

ـ مسؤوليات الإمارة الجنوبية التنظيمية حتى تواجه تحديات متعددة.

في هذا الأفق نتصور جسامة المسؤولية الملقاة على عاتق زوايا منطقة تادلة شأن :

ـ زاوية «أقرض» أو زاوية سيدي علي بن ابراهيم.

ـ زاوية «الصومعة» ببلدة «داي» (أو بني ملال الحالية).

ـ زاوية «دلاء» (زاوية اسحاق اليوم).

ـ زاوية «أزرارك» أو زاوية سيدي بنداوود الشاوي بـ«غرم العلم» (قصبة العلم).

ـ زاوية أبي القاسم بن الزعري بـ«قصبة تادلة اليوم» على ضفة أم الربيع[5].

ومما هو جدير بالذكر أن شيوخ هذه الزوايا وغيرهم ينتمون إلى مدرسة صوفية واحدة (الجزولية الشاذلية) يوجد أقطابها بمراكش وما حولها، وقد شكلوا أهم قوة دافعة

---

(5) للمزيد من المعلومات :

ـ بوكاري، **الزاوية الشرقاوية** (جزءان)؛

ـ خريطة منطقة تادلة (ق 16/10 م)، **المصدر السابق**؛ ج 1، ص. 55 (الملحقات).

ماديا وإيديولوجيا للإمارة الشريفة الناشئة..[6].

حيوية مؤسسة زاوية أبي الجعد

في هذا الإطار ببعديه العام والخاص، كان التفكير في إنشاء زاوية امحمد الشرقي؛ وهي ظرفية جد مناسبة ومشجعة. إلا أن اختيار موقع وادي أبي الجعد فرض على الشيخ فرضا... فقد كان يأمل أن يختار لزاويته مكانا مناسبا وآمنا في منطقة «دير تادلة» ؛ إلا أن المنافسة الصوفية حالت بينه وبين ذلك، فرجع إلى مكان أقل ماء وخصوبة ومرعى إن لم نقل مكانا موحشا صعب الاستغلال. وهي الخصوصيات الجغرافية والمناخية التي لا تزال إلى اليوم تحد من إمكانيات المنطقة. ومع ذلك كانت طموحات الشيخ أكبر من كل العوائق[7] :

«.. وإني راحل إن شاء الله إلى بلد أمورها في الظاهر معسرة وأرزاقها ميسرة».

لقد تمت عملية تيسير الإطار الجغرافي وتطويعه بفضل المجهود الشخصي للشيخ المؤسس الذي وفر لزاويته كل الشروط الذاتية والموضوعية لانطلاق مهامها وأدوارها التمهيدية... إلا أن أهمية هذا المشروع تكمن أولا وأخيرا في :

ـ أن الزاوية تجاوزت كل الأزمات الظرفية والطبيعية، بل استفادت منها لتكتسب المناعة وأسلوب التفاعل مع الأحداث وتصريفها لما فيه خير البلاد والعباد.

ـ ضمان استمرار اشعاع الزاوية العام من خلال توفير الأطر الكفؤة التي توارثت الخلافة الدينية والدنيوية بعيدا عن كل منافسة أو صراع.

---

(6) من هؤلاء الشيوخ :

ـ عبد العزيز التباع (المتوفى 914 هـ. بمراكش)؛

ـ عبد الله الغزواني (المتوفى 932 هـ. بمراكش).

ومن تلامذتهم الذين استوطنوا القطر التادلي، نذكر :

ـ علي بن ابراهيم البوزيدي دفين اكَرض؛

ـ أبو عثمان سعيد امسناو. دفين الصومعة (بني ملال الحالية)؛

ـ أبو القاسم بن محمد الزعري، دفين قصبة تادلة.

(7) حول ظروف ومراحل تأسيس زوايا امحمد الشرقي بتادلة، انظر: **الزاوية الشرقاوية** (1985)، ص. 67ـ88.

فكان من تبعات هذا الأسلوب المتحضر توهج شعلة الزاوية لمدة تناهز أربعة قرون.. وقد شهد لها بهذا الحضور العديد من الأعلام، من مغاربة ومشارقة وأوربيين. وما اجتماعنا اليوم في هذا الموسم العلمي والدراسي إلا من وحي وضغط هذا التراث المشرق.

لكن ـ وإبعادا لكل التباس ـ هل اعتمدت زاوية أبي الجعد على رسالتها ومؤهلاتها الدينية والتعليمية فقط.. شأنها في ذلك شأن العديد من الزوايا التي انتشرت في طول البلاد وعرضها؟

في نظري، لو وقفت عند هذا المستوى لانتهت في وقت وجيز، وهو المصير الذي آلت إليه مئات الزوايا. ذلك أن مهام شيوخ الزاوية تجاوزت نصح المسلمين وتربية المريدين وتعليم المتعطشين إلى وضع أسس تجمع عمراني متكامل ومنسجم من هويته الحضارية من جهة وفي قلب اهتمامات المحيط الجغرافي والبشري والاقتصادي الذي وجدت فيه. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

* **فلاحيا** : حفر الآبار، غراسة البساتين، تنظيم قنوات الري من نوع الخطارات (لقطاطر)، إنشاء مطاحن الحبوب ومعاصر الزيت، خلق «أمراس» لخزن الحبوب، ضمان تنقلات قطيع الماشية لمواطن الرعي (العزيب) إلخ..

* **الحرف والصنائع** : تصنيع الخشب وتصديره إلى أزمور وأنفا وآسفي لصناعة السفن، تصنيع حجر الكلس لصنع الجير كمادة رئيسية في البناء بدل الطين والقش، تصنيع الجلود وتصدير قسم هام منها إلى مراكش وفاس والمدن الأطلسية، تصنيع الصوف إلخ...

* **تنظيم الحياة الاجتماعية** : سواء تعلق الأمر بمجتمع الزاوية أو القبائل المحيطة بها. ذلك أن خريطة القبائل تفيدنا أهمية الزاوية كمركز لانتظام المجتمع القبلي من حولها بفضل ما وفرته من شروط الأمن والاستقرار وإبعاد شبح الحروب والصراعات الدموية، بل تحولت الزاوية من خلال مهامها إلى عنصر تكافل وتضامن مَتَّنَ إلى حد كبير خيوط النسيج القبلي الهش وعُقَدَه. فضمنت الأحلاف القبلية المصلحية (طاطا، تاظا)، وارتبطت بعلاقات شراكة اقتصادية حقيقية تهم الزرع والأشجار والماشية، ولم تبخل بمساعداتها زمن القحوط والمجاعات والأوبئة. كما أن هذا الوسط لم يبخل على

الزاوية بمختلف أنواع المنح والأعطيات اعترافا منه بقيمة وأهمية أدوارها الدينية والتعليمية والاجتماعية(8).

* **تجاريا** : وبفضل هذه المكاسب ذات البعد المحلي والجهوي والوطني..، أصبحت زاوية أبي الجعد المحطة الطرقية المختارة بامتياز من طرف قوافل التجارة بين فاس ومراكش.. بفضل ما توفره من شروط الأمن وتبادل المصالح والمنافع. وتزداد أهمية أدوار الزاوية في فترات الاضطراب السياسي بصفة خاصة، إذ يصبح المرور من مراكش إلى مكناس وفاس عبر أبي الجعد مرورا إجباريا لا محيد عنه. وهذه الحيوية تمثلت أيضا في محور : تادلة ـ آنفا خصوصا في فترة حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي تميز عهده بالتفتح التجاري على الدول الأوربية. ثم استثمرت الزاوية هذه الخبرة في المرحلة الأمبريالية (ق 19). وهو ما أكدته كتابات الرحالة الأجانب وتقارير القنصليات والسفارات الأجنبية ونجد أصداءه البعيدة والمعبرة في العديد من وثائق الزاوية وكذلك سجلات ووثائق الدور التجارية الكبرى في المغرب وخارجه(9).

* **سياسيا** : آثرتُ أن أؤجل الحديث عن هذا العنصر الذي كثيرا ما يغري الباحثين أكثر من أي عنصر آخر، وذلك لاعتبارات :

ـ إن التفات الجهات المخزنية إلى زاوية من الزوايا أو تشوف هذه الأخيرة إلى السلطة الحاكمة لا يمكن بتاتا أن يكون في مرحلة جنينية، خصوصاً إذا علمنا أن عدد زوايا المغرب فاق في وقت من الأوقات عدد المساجد..

ـ وعندما تنجح زاوية ما في إثبات وجودها وتأكيد نجاعتها المادية والمعنوية يكون تعامل المخزن معها من حجم شهرتها وقوتها التي تستمدها من حجم وكثافة إشعاعها على المستوى الثقافي والاجتماعي بدليل أن مسألة الحجم والقوة تظل محط مراقبة واختبار من طرف السلطة المخزنية جهويا ومركزيا.

---

(8) حول المصادر الأجنبية لتاريخ زاوية أبي الجعد ومنطقة تادلة عموما، انظر العرض التوجيهي والتقييمي لـ :
J.L. Miège : «L'historiographie du Tadla», p. 7-9, in **Tadla : Histoire. Espace. Culture,** Colloque et Séminaires n° 1, (1993), Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Béni Mellal;

ـ بوكاري، **ملاحظات حول كتابة تاريخ منطقة تادلة،** (م.س)، ص. 99ـ112.

(9) حول علاقة الزاوية بالمجتمع القبلي في تادلة ومحيط أبي الجعد والشاوية، انظر: **الزاوية الشرقاوية،** ج 2، الباب الرابع.

ـ وتكمن أهمية زاوية أبي الجعد في أن شيوخها تفهموا حق التفهم شروط وحدود تحركهم ومهامهم التي لا يستمدونها من عصبية قبلية قوية أو موقع جغرافي متحصن.. ولكن من نجاعة أدوارهم في لحم النسيج القبلي وربطه ربطا مصلحيا مع الكيان العام للمخزن المغربي.. فكانت الزاوية تبعا لذلك فاصلا معنويا ورابطا ماديا متكامل المهام والأدوار. وهي مهمة جد دقيقة وخطيرة لم يصادف النجاح فيها معظم شيوخ زوايا المغرب، ومنها زوايا تادلة مثل زاوية دلاء وزاوية الصومعة(10).

ـ تحيلنا هذه الخلاصة على مسألة التجربة السياسية المغربية في بعدها الجهوي الذي لم يكن وليد اليوم.. ذلك أن المخزن المغربي راهن على خلق أقصى ما يمكن من قنوات الربط مع مختلف إيالات المملكة الشريفة بما في ذلك البيعة والكلف المخزنية مع إبعاد خيار القوة (الحركات) إلا عند الضرورة وتحت ضغط ظروف قاهرة وأحيانا خارج إرادة المخزن.

ـ هناك من يعتبر التنظيمات الاجتماعية العصرية (الأحزاب) كاستمرار للمهام التأطيرية للزوايا.. وهي مقارنة جد متسرعة وتحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل لتأكيد ما هو من قبيل الاستمرارية وإن غلف بغلاف الحداثة والمعاصرة وإبعاد ما هو من صميم وخصوصيات الكيان المغربي في ظرفية ما قبل انعقاد الحماية (1912).. وهي ملاحظة منهجية تنسحب كذلك على الاقتصاد وعلاقات الإنتاج والذهنيات وأنماط التفكير.. على اعتبار أن مغرب اليوم ما هو إلا حصيلة منطقية لتراكم تجارب ماضوية لم تحدث القطيعة الشاملة والنهائية مع مكونات مجتمعنا المعاصر (وليس العصري)(11).

(10) حول تجربة الزاويتين مع المخزن السعدي والعلوي، انظر:
ـ محمد حجي، **الزاوية الدلائية..**؛
ـ بوكاري، **الزاوية الشرقاوية..**، ج 1، ص. 159–162.

(11) من هذه المؤلفات :
ـ محمد ضريف، **مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي** (م.م.ع.ج.س)، ع 1، دجنبر 1986؛
ـ ع. أكنوش، **تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب** (1987).
وهي أبحاث وجهتها مقولات ونظريات سياسية وأنتربولوجية أجنبية اعتمدت كمادة مصدرية لها مختلف الأبحاث التي أنجزتها المدرسة الاستعمارية دون اعتبار للتقدم العلمي الحاصل أو الذي يجب أن ينجز لتحقيق معرفة دقيقة للواقع المغربي في بعده التاريخي والتطوري. وعلى عكس هذا الاتجاه انظر :
Laroui. A., **Les origines sociales..** (Les pouvoirs locaux), pp. 126-154.

ماذا نستخلص من هذه التجربة ؟

أريد هنا التأكيد على نقطتين متكاملتين :

* أهمية العنصر الديني في التاريخ الاجتماعي المغربي؛ إلّا أنه ليس كل شيء، على اعتبار استحالة الفصل بين الفكر والعمل في أي مشروع حضاري.

* أهمية العنصر البشري المؤهل والمسلح بالأفكار الإيجابية النيرة.. وهو ما أهل المدينة الزاوية للقيام بأدوارها أحسن قيام، فجعل حضورها في التاريخ حضورا إيجابيا وفعالا لما فيه مصلحة المنطقة ومصلحة البلاد عموما.

ولا شك في أن حجم هذا الحضور وكثافته هما اللذان يضغطان على واقع المدينة وما حولها.. ذلك أن تغيير وضعيتها وتطويرها موكولان بالدرجة الأولى إلى حزم أبنائها وجِدِّيّتهم متمثلين الآية الحكيمة : ﴿إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[12] (صدق الله العظيم).

خلاصة

إن المهتم بتاريخ منطقة تادلة الكبرى، في بعده المحلي والوطني، سيدرك لا محالة خصوصيات مدينة أبي الجعد كزاوية، وهو ما أغنى هويتها الحضارية وجعل منها قطبا ثقافيا وروحيا مشعّاً سرعان ما اندمج في محيطه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بفعل تفهم شيوخ الزاوية لحقيقة مهامهم وأدوارهم والدفع بهذا الخيار إلى أقصى الحدود.

ونحن إذ نجتمع اليوم لنرسم معالم تحريك الواقع وتطويره نحو مستقبل واعد، فإن هذا الانتقال أو التحول يفرض أخذ مسألتين بعين الاعتبار :

- الاستفادة من الخصوصية التراثية للمدينة من خلال تطوير وتجديد مهامها ووظيفتها بسبب حاجة الوسط التادلي إلى ذاكرة حضارية متميزة.. إلا أن هذا لا يعني إغفال مواكبة العصر في إطار الثنائية الإيجابية التي تميز الكيان المغربي الذي استمر بفضل تعايش واندماج عنصري الأصالة والمعاصرة.

(12) سورة الرعد، الآية 11.

ـ الاستفادة الواعية والطموحة من فرص التنمية المتاحة على جميع المستويات... وهو المشروع الذي يستمد مقوماته من الطاقة البشرية للمدينة والمنطقة ومن حتمية حضورها وإسهامها في التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية بمنطقة تادلة الكبرى الغنية بإمكانياتها وموقعها المتميز[13].

(13) نشير هنا إلى النتائج العلمية القيِّمة التي أسفر عنها الملتقى العلمي الأول لمنطقة تادلة والذي نظمته كلية الآداب لبني ملال التابعة لجامعة القاضي عياض في موضوع : «تادلا : التاريخ، المجال، الثقافة»، أيام 15، 16، 17 أبريل 1992، وصدرت أعماله ضمن منشورات الكلية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993.

جوانب من التاريخ السياسي والديني والاجتماعي لأبي الجعد

الملكي المالكي
كلية الآداب ـ تطوان

تـوطئـة

إن النبش في ظاهرة **هامشية أبي الجعد اليوم** يقتضي الفهم العلمي للواقع والوسط، باعتباره سبيلا سابقا لكل إصلاح وتقويم، وهو بمثابة التشخيص الذي يسبق اتخاذ الإجراءات العلاجية الصحيحة.

وإن كل مبادرة لمحاولة رد الاعتبار لأية مدينة أعطت ثم أُهملت مثل أبي الجعد، وبمساهمة مؤسسات علمية رفيعة المستوى مثل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، لا يسع أيّاً كان حيالها إلا الترحاب والتقدير.

ورقة تقديمية

يقع إقليم تادلا وسط المغرب تقريبا بين جبال الأطلس في الشرق والسهول والهضاب الساحلية في الغرب وإقليم الغرب مع امتداداته إلى حدود زعير ومقدمة بلاد زايان في الشمال والحوز مع امتداداته إلى الرحامنة في الجنوب. وبسبب هذا الموقع،امتلك الإقليم ما اصطلح عليه استراتيجيا بمفاتيح الموقع (Clefs de position)، وأصبح بمثابة تخم عسكري (Une marche militaire). وعليه، صار الرهان على تادلا حاسما في كل مشروع وحدوي لأقاليم المغرب في عهد الملوك الطموحين منذ الأدارسة إلى بداية العلويين. وتقع أبو الجعد في تادلا. وقبل التعرض لجوانب بارزة من تاريخها

السياسي والديني والاجتماعي، نستعرض بإيجاز أهم عطاءاتها من خلال موقعها وأدوارها لنحدث مقارنة بين أمسها الخصْب ويومها الباهت : كانت زاوية أبي الجعد منطلقا لجزء من حركة التصوف في القرن 16، ومن ثم ساهمت في نشر الإسلام السني، على الطريقة التباعية الجزولية الشاذلية، ونشر التعليم وإجازة عدد من الشيوخ ؛ وقامت بالإيواء والإطعام وضمنت حق الالتجاء، والزطاطة، والإفتاء، وخطة العدالة والقضاء، والصلح، والوساطة والتفاوض، وقضاء الاستئناف والتنظيم ؛ وكرست عمرانا في وسط بدوي، وقامت بتوصيل البريد والعدة العسكرية، ولقاء ركب السلطان والتبادل التجاري بين مكناس ومراكش وخنيفرة والدار البيضاء ؛ وقامت بالتولية والعزل بالنسبة لقواد تادلا؛ وساهمت في جمع الضريبة، والتهدئة في فترات الاضطرابات السياسية...

على أن أبرز أدوارها في أزهى عهودها تمثلت في أربعة أشياء :

أ ـ نشر الأحكام الشرعية والقوانين المخزنية في بلاد العرف ؛

ب ـ تكريس اتجاه نحو استقرار في وسط بدوي أقرب إلى السيبة ؛

ت ـ جمع البيعة ؛

ث ـ محاولة إخضاع قواد الأطلس حيث نجحت بالحوار والتفاوض والوساطة واستثمار نفوذها الروحي، وحققت ما فشل فيه الأسلوب العسكري الذي انتهجه المولى إسماعيل طوال ربع قرن. وتمثل ذلك في اللقاء المشهود في أبي الجعد في عهد الشيخ سيدي بنداود الشرقاوي بين السلطان مولاي الحسن والقائدين موحى أوحمو الزاياني ومحمد أكبلي في 1778.

ولاشك أن الاستعمار الفرنسي انتبه إلى أهمية النفوذ الروحي لسادة أبي الجعد فاستثمره في ما عرف بـ«تهدئة» تادلا.

المراحل الكبرى لتاريخ أبي الجعد :

1 ـ التأسيس وإشكاليته :

أ ـ التأسيس (1566ـ1602)

ب ـ الإشكالية (1602ـ1668)

2 ـ النكبة (حوالي 1768–1819)

3 ـ إعادة التأسيس (1819 إلى بداية الحماية).

1 ـ التأسيس وإشكاليته

أ ـ التأسيس :

امتد من تأسيس زاوية الدلاء إلى وفاة المؤسس أبي عبيد سيدي مَحمد الشرقي، أي من 1566 إلى 1602.

وثمة روايات عديدة وأحيانا متضاربة حول أصل ونسب الشيخ مؤسس الزاوية الذي عاش بين 928هـ/1520 و1602/1010. نذكر منها رواية محمد العربي الفاسي صاحب «**مرآة المحاسن**»[1]. وقد ذكر فيها اسم والده الشيخ أبي القاسم الزعري من قبيلة بني جابر العربية من قبائل جشم الوافدين مع الهلاليين. واستقرت قبيلته بتادلا في النصف الأول من القرن السابع/الثالث عشر. وكان لها علاقات مع أمازيغيي الأطلس. وخلال القرن الثامن/الرابع عشر كانت الزعامة في أحد بطون بني جابر وهيورديغة بين يدي الشيخ حسن بن علي الورديغي واستمر ذلك إلى فترة حكم محمد الشيخ الوطاسي في نهاية القرن التاسع/نهاية الخامس عشر، وهي الفترة التي كان فيها والد سيدي مَحمد الشرقي المذكور مقيما ببلاد ورديغة بموضع يقال له واد الزم. وهناك رواية أخرى تقول بانتقال بعض الأسر من تافيلالت واستقرارها بتادلا، ومنها ظهر الشيخ أبو القاسم، الذي رحل عن موطن أسرته تاركا أمواله وأبناءه واتصل حسب بعض الروايات بأحد كبار شيوخ تادلا وهو أبو عثمان سعيد أمسناو صاحب زاوية الصومعة بداي[2]، وسيدي علي بن ابراهيم البوزيدي دفين أكَوص. وفي هذه الأوقات ولد سيدي مَحمد الشرقي الذي تلقى تعليمه الأولي على يد والده في زاويته بتادلا ثم في زاوية الصومعة. وتوسع في أسانيده التباعية الجزولية الشاذلية على يد بعض كبار شيوخها، ومنهم الشيخ عبد الله بن ساسي والشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر المختاري.

---

(1) محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن**، م.خ.ع.، الرباط، ك. 316، الورقة 146 مكررة/أ.

(2) بوكاري، **الزاوية الشرقاوية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1985، ص. 53، 61، 62.

وتضاربت الآراء حول المكان الأصلي لزاويته قبل استقراره بموقع أبي الجعد(3). وتثير هذه الروايات المتضاربة أسئلة كثيرة، منها توقيت التأسيس وظروفه ودوافعه. على أنه في آخر المطاف تبين أنه في موقع بعيد عن غارات الأمازيغيين ؛ وهناك حفر المؤسس بئرا وتتابعت عمليات البناء وزادت أهمية الزاوية بفضل هدايا الوفود وما أضفاه سلاطين «الدولة» السعدية على شيخها من توقير واحترام وبعث إليه أحمد المنصور وفدا لزيارته.

وحدد مؤرخون تأريخ تأسيس الزاوية بتاريخ 1600/1009. وكان هدف أبي عبيد الله سيدي مَحمد الشرقي نشر التعليم الديني والصوفي للطريقة الجزولية في مناطق جديدة من تادلا.

ب ـ الإشكالية :

ما هي الأسباب الحقيقية للتأسيس ؟

إن الدافع إلى هذا السؤال أمران :

الأول : ملاحظة تزايد دور الزاوية السياسي والديني بالخصوص بعد وفاة المؤسس في 1602، وبالأخص بعد سقوط الدلائيين في 1668.

الثاني : استحضار علاقة الشرفاء بالزوايا، علاقة كل من السعديين والعلويين بكل من زاوية الدلاء وزاوية أبي الجعد لتسليط الضوء على تأسيس هذه الأخيرة، وعدم الِاقتصار على ما درج عليه مؤرخون في بحثهم لزاوية أبي الجعد بالتركيز على التصوف المحض وعزله عن الظروف السياسية والاعتقاد بالصدفة في توقيت التأسيس واختيار الموقع، الشيء الذي يتعارض تماما مع نتائج علاقات الشرفاء بالزوايا.

لقد تأسست زاوية الشرقاويين بإيحاء من المخزن، ذلك أنه عند نهاية القرن العاشر/السادس عشر كان المرابط سي بلقاسم بن الزعري بن حمو الذي عاش عند ورديغة، قد جاء للإقامة في قصبة تادلا لسبب ما، وكان ابنه بوعبيد مَحمد الشرقي قد أسس في وسط صحراء صخرية ببلاد بني زمور زاوية أبي الجعد لسبب ما أيضا. وقد تنبه بعض المؤرخين لذلك(4) ؛ وليس صدفة أن تقوم «زاوية» في تادلا عند منتصف

(3) أحمد الناضري، **الاستقصا**، ج. 8، ص. 59، 60.

(4) **الاستقصا**، ج. 5، ص. 193، 194.

المسافة بين شمالها وجنوبها وعلى مقربة من دير الأطلس المتوسط، ثم تمارس نفوذا عقب تخريب زاوية الدلاء مباشرة. وعلى الرغم من عدم تقديم عدد من الباحثين توضيحات كافية حول هذه المسألة، فإنَّهم تنبهوا لذلك وأدركوا أن في الأمر سرا ولو أنهم لم يخرجوا في تفسيرهم عن الإطار الديني والصوفي.

وهكذا، فإننا «لا نكاد نعثر على الشيخ الذي أذن لمحمد الشرقي في تأسيس زاويته (...) إلا أن كلا من الإذن وتعيين مكان إقامة الزاوية لم يكن في معظم الحالات عملا اعتباطيا. ذلك أن بعض كبار شيوخ التصوف كانوا فعلا على بينة من مختلف التطورات وطنيا وجهويا (...) فسواء كان الذي أذن له بتأسيس زاويته أحد أشياخه أو والده، فإن الذي يهم حقا هو الظروف المصاحبة لذلك»[5].

ليس مهما أن يكون المخزن السعدي أو العلوي هو الذي أوحى بتأسيس زاوية الشرقاويين لأن المخزنين ما اصطدما ولا تعارضا. وبالعكس، فقد كان عداء أمير مراكش محمد الشيخ السعدي لمحمد الحاج الدلائي كبيرا بسبب النمو المتزايد لزاوية الدلاء، حتى إنه حاول إغراءه وإثناءه عن عزمه في توحيد المغرب والتربع على ملكه. وفي المعركة الحاسمة التي سحق فيها الجيش الدلائي جيش السعديين ببوعقبة عام 1638/1048، وضع محمد الحاج حدا نهائيا لما تبقى من نفوذ سعدي بتادلا. وعندئذ لن نندهش من أن تأسيس زاوية بالهضبة قبالة زاوية الجبل، لمنافستها والقيام بمراقبة سياسية ودينية وعسكرية للأطلس، قد نال كل الرضى والاستحسان من السعديين المتبقين. ومن جهة أخرى لا يخالجنا أدنى شك في أن مخرب زاوية الدلا كان مقتنعا كل الاقتناع بضرورة إيجاد حراسة دينية وسياسية للجبل خاصة وأن المؤسسة الجديدة كانت أول زاوية عربية عرقيا في المنطقة، عملت ما في وسعها على القيام بدور العامل المخزني غير المسمى، والذي ارتكب من السياسة ما يجب لجمع بيعات القواد والأعيان. فلنلاحظ قضاء عهد الشرفاء على زاوية جبلية مقابل قضاء الأخيرة على عهد الشرفاء السعديين. ولذلك فإن زاوية الشرقاويين قد تأسست برغبة من المخزن للأسباب المذكورة وظلت تحظى منه بالرعاية والإنعام وشتى الامتيازات.

متى تخربت زاوية الدلاء ومتى تأسست زاوية الشرقاويين ؟ أما الأولى فقد تخربت بين 8 محرم و22 صفر 17/1079 يونيو ـ 30 يوليوز 1668، وأما الثانية فقد

(5) **الزاوية الشرقاوية**، ص. 69.

تأسست في الفترة الفاصلة بين تأسيس زاوية الدلاء في 1566/974 ووفاة المؤسس أبي عبيد مَحمد الشرقي عام 1602/1010؛ غير أنها امتلكت نفوذا ومارسته في الفترة اللاحقة مباشرة لتخريب زاوية الدلاء، أي أنه في الفترة السابقة لتخريب الدلاء ظلت أبو الجعد منكمشة، ومجرد نقطة لنشاط روحي محدود. وقد مكث المولى الرشيد في الدلاء مدة شهر ونصف، واستولى على ما كان في عاصمة الدلائيين من مال وذخيرة وخيل وسلاح، وأخذ ما في الخزائن من الكتب والوثائق وما في الحظائر من الماشية والدواب، ولم يترك للدلائيين إلا ما لا غنى لهم عنه وأمرهم بالرحيل إلى فاس ثم أعمل المعاول والفؤوس في مباني المدينة، وهدم ما استطاع منها وتركها خرابا موحشة، ثم صعد إلى الزاوية الدلائية القديمة وفعل بها ما فعل بالزاوية الحديثة وكانت مبانيها أقل متانة وصلابة فهدمها كلها وطمس معالمها، وتركها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس[6]. وابتداء من فترة حكم المولى اسماعيل بدأت زاوية أبي الجعد في ممارسة نوع من الهيمنة على البلاد، وصارت ذات نفوذ خطير جدا وأثرت على الأحداث التي صارت تادلا مسرحا لها. ومن الآن فصاعدا، دخلت تادلا والأطلس المتوسط مرحلة جديدة تميزت بممارسة الشرقاويين عليهما مراقبة دائمة تقريبا، وصارت الزاوية أشبه بمخزن صغير مستقر بصفة دائمة للقيام بنوع من الاستعلام عن كل ما يجري من أحداث سياسية بمجموع تادلا والأطلس. وكان مظهرها الديني يخفي عن نظر قبائل هذه الجهة وظيفتها الحقيقية؛ ولهذا السبب لم يمسها ضرر في الغالب من قبائل السهل، وواظبت على ممارسة هذه الوظيفة تقريبا[7] إلى دخول الاستعمار الفرنسي.

2 ـ النكبـة

وهي نكبتان على الأقل، انتهتا بتخريب زاوية أبي الجعد. وامتدت هذه المرحلة من أواخر عهد حكم السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله في حوالي 1768 إلى تاريخ وفاة الشيخ المنكوب سيدي العربي بن المعطي في 1819.

قلنا إن الزاوية اتخذت سندا تباعيا جزوليا شاذليا ابتداء من تأسيسها ؛ ولما أحس بعض زعمائها ـ خلفاء المؤسس ـ بالتكرار والاجترار، انتسب إلى الطريقة

(6) محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية بالرباط، 1964، ص. 231.

(7) **وثائق شرقاوة**، رقم 43 (23 حجة 1322هـ/22ـ2ـ1905)، 47 (18 قعدة 1325/ 23ـ12ـ1907) في ملكية صاحب المداخلة.

الناصرية كما حدث لمحمد المعطي بن عبد المالك عام 1660/1070؛ كما رأى البعض الآخر في الطريقة الدرقاوية مصدرا لزخم جديد لإحياء التصوف الحق.

ما هو نوع العقاب الذي أنزله المخزن بالزاوية عند عدم انضباطها ؟

دأب الشرقاويون على تقديم خدماتهم الدينية والسياسية والعسكرية في تادلا للسلطة المركزية بفاس أو مراكش أو رباط الفتح. ولاحظنا أن كل المهام المذكورة في بداية هذه المداخلة، تصب في اتجاه واحد وهو فرض طاعة القبائل ونشر هيبة المخزن الذي كان مقتنعا بأنه ساهم في تشييد زاوية الشرقاويين وبأن له يدا بيضاء عليهم إلى حد صاروا معه خداما وعمالا دائمين. وانطلاقا من وعيه بحيوية الوظيفة التي كلفت بها زاويتهم في بلاد واقعة على الحدود مع بلاد «السيبة»، وباعتبار مجموع تادلا وازغار امتدادا طبيعيا لها ـ لبلاد السيبة ـ، فإن المخزن لم يكن ليتساهل مطلقا إزاء أي تهاون من طرف الشرقاويين فيما يخص القيام بوظيفتهم.

ـ **النكبة الأولى** : نكبة الشيخ سيدي العربي بن المعطي على يد سيدي محمد بن عبد الله :

بلغنا أن الزعيم المرابط سيدي محمد العربي بن المعطي قد تعرض لنكبة من طرف المخزن دون أن نعرف بتفصيل سبب ذلك. وقد ذكر صاحب «**الاستقصا**» بأن «السلطان سيدي محمد بن عبد الله (...) نقم على كبيرها لوقته المرابط سيدي محمد العربي»[8] دون أن يفصح عن السبب الحقيقي ما عدا إشارة غامضة حول «ما ينقمه الأمير على المأمور»[9]. وقد قصدنا من استفسارنا عن سبب النكبة تجاوز مجرد حدوث تهاون في خدمة المخزن إلى التساؤل عما إذا كان في نية زعيم الزاوية الاستقلال عن التبعية للمخزن. والدافع إلى هذا التساؤل هو قساوة العقوبة التي صدرت في حق الزاوية والتي لا مبرر لها سوى سبب سياسي في مستوى مشروع تحقيق آستقلال. وقد أفاد صاحب «**الاستقصا**» بأن السلطان لما كان راجعا من رباط الفتح إلى مراكش جعل طريقه على تادلا ونزل على زاوية أبي الجعد، فـ«أمر ـ على ما قيل ـ بهدمها»[10]. ألا يذكّرنا هذا القرار الخطير بقرار مماثل صدر قبل حوالي قرن، وقضى

(8) **الاستقصا**، ج. 8، ص. 59.

(9) **نفسه**.

(10) **نفسه**.

بتخريب الدلاء وهو قرار سياسي بالتأكيد ؟ وحسب الناصري، فإن هذا القرار القاضي بتخريب الزاوية قضى أيضا بطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها. وعلى الرغم مما تبين لنا في النص الأخير من لجوء المضطهدين والغرباء وعابري السبيل إلى مقر الزاوية، فإننا نتعجب مما إذا كان تصرف من هذا النوع ـ أي الإيواء ـ لا يليق بزاوية، لأن الشائع هو أن الإيواء، إضافة إلى التعليم والإطعام، من صميم وظيفة جميع زوايا المغرب. فهل معنى ذلك أن ثمة تعليمات محددة بدقة ومعطاة للشرقاويين قضت بأن تلعب الزاوية دور مخزن صغير في مجموع تادلا، وأن هذه التعليمات قد خُرِقت بإيواء من لا نفع للمخزن فيهم، وأن هذا التصرف في نظر سيدي محمد بن عبد الله قد شكل سابقة غير محمودة العواقب، بالإضافة إلى أن الزاوية نسيت سابقة الولاء، لأن الغرباء قد يضمون رجال دين وطرقيين وطلبة وعصاة وغيرهم ممن ليسوا دائما من مؤيدي السلطة المركزية، فخشي السلطان عندئذ أن تنحرف الزاوية عن وظيفتها الأساسية ؟

لعلنا نعثر في عقوبة السلطان ضد الشيخ زعيم الزاوية ـ بعد الأمر بتخريبها وطرد الغرباء الملتفين حولها ـ ما يساعدنا على فهم السبب الحقيقي لهذا القرار. وكانت العقوبة هي النفي أو الإبعاد، إذ أمر السلطان بنقل سيدي العربي وعشيرته إلى مراكش حيث أسكنهم وطال مقامهم إلى وفاة السلطان[11]. ولم يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم إلا في عهد ابنه السلطان المولى هشام الذي أذن لهم بذلك.

ـ النكبة الثانية :

في عهد السلطان المولى سليمان بن محمد نكبت الزاوية من جديد بقيادة شيخها سيدي العربي بن المعطي نفسه. وذكر الناصري بأن السلطان «نقم على سيدي العربي المذكور أمورا نقلها إليه الوشاة عنه، فأمر بنقله إلى فاس بعد مكاتبات ومعاينات يطول جلبها. فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم سرحه إلى بلاده»[12].

من الواضح أن تخريب الزاوية ونفي شيخها مرتين قرار خطير جدا، ومن المستحيل صدوره إلا لحدوث سبب خطير أيضا، وليس ثمة ما هو أخطر من موقف سياسي مناهض للسلطة المركزية، سواء تعلق بإيواء واستضافة ومناصرة خصوم المخزن

(11) نفسه.

(12) نفسه.

أو بالتفكير في مشروع تحقيق استقلال سياسي. ونتساءل مرة أخرى عما إذا كان هذا القرار قد اقترن بموقف المخزن من المد الأمازيغي الأمهاوشي الدرقاوي الذي كان من ورائه وحدة وقوة «البربر» وتحقيقهم انتصارات عسكرية وسياسية على محلات المخزن في كل مكان، بحيث ارتاب السلطان في وجود اتصالات ما لهذا الشيخ الزعيم مع حركة الجبل، خصوصا وأن الشيخ سيدي العربي بن المعطي لم يكن رجلا عاديا. فقد كان فقيها متمكنا بتأكيد اعتماد طريقته على القرآن وإجازة عدد من علماء الحضرة الفاسية على يده[13].

إن ما يهمنا هو النتيجة التي تمثلت في قمع المخزن لهذه المحاولة وآجتثاثه، لأنه عودنا ألا يخرب إلا «أوكار الفساد» ولا ينفي إلا «الفساد» سواء كان الشيخ الزعيم سيدي العربي بن المعطي فاعلاً حقيقياً أم كبش فداء[14].

ماذا كان موقف الشرقاويين من حروب السلاطين مع أمازيغيِّي الأطلس وخاصة المولى سليمان الذي تكبد الهزيمة على أيديهم ؟ ظهر من النصوص[15] أن هذه الفترة من مُلْكِ المولى سليمان 1779/1193 ـ 1822/1238 قد تزامنت مع ولاية الشيخ الزعيم المنكوب بتخريب زاويته ونفيه، فكيف يتأتى لها اتخاذ موقف مساند للسلطة وهي في هذه الوضعية ؟

(13) **الزاوية الشرقاوية**، ص.110 ـ 113.

(14) **وثائق شرقاوة**، رقم 6.

(15) **الاستقصا**، ج. 8، ص. 134، 135.

خلفاء أبي عبيد سيدي مَحمد الشرقي(16)

مَحمد الشرقي (توفي عام 1602/1010) .... فترة السعديين.

محمد الغزواني — أحمد المرسي — 3 ـ عبد القادر — 2 ـ عبد السلام

4 ـ عبد الخالق

5 ـ محمدالمفضل (دفين سلا)

6 ـ محمد المعطي (دفين مراكش 1631/1092)(17) .... فترة العلويين

7 ـ محمد الصالح (توفي في 1727/1139) .... عهد حكم المولى اسماعيل

8 ـ محمد المعطي التادلي (توفي في 1766/1180) حكم المولى عبد الله وابنه المولى محمد

9 ـ محمد العربي (توفي في 1819/1234) حكم سيدي محمد بن عبد الله إلى المولى سليمان

10 ـ بنداود (توفي في 1892/1309) .... حكم مولاى الحسن

11 ـ محمد (توفي قبل 1917/1335) ..... حكم المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ

12 ـ عبد القادر .... حكم المولى يوسف.

(16) **وثائق شرقاوة**، رقم 1 إلى 58، أي من سيدي العربي بن المعطي إلى القائد عبد القادر البجعدي؛ **الزاوية الشرقاوية**، 96.

(17) ذكرت وثائق الحماية (Documentation) أن محمد المعطي بن عبد المالك، حفيد المؤسس، كان حيّاً حتى حوالي عام 1660/1070، بمناسبة انضمامه للناصرية.

3 ـ إعادة التأسيس

تبين لنا من هذا العرض وجود ثلاث فترات من التاريخ السياسي لهذه الزاوية وهي فترة **التأسيس** وفترة **الترويض** أو التأديب وفترة **الخدمة**. وامتدت الفترة الثالثة من وفاة الشيخ سيدي العربي بن المعطي عام 1819/1234 إلى نهاية حكم مولاي الحسن ؛ ولا بأس من امتدادها طوال عهد الحجابة وخلافة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، أي إلى بداية الحماية. وكانت أشبه بإعادة تأسيس للزاوية بعد تخريب مدرسة زاوية المؤسس وبناء مدرسة جامع المولى سليمان. وقد تجلت فيها اللحظات السياسية الزاهية للزاوية الخديمة. ولا شك أن أعظم انتصار سياسي حققته هو الذي تمثل في إخضاع أحد قواد الأطلس للمخزن عن طريق التحضير لعقد لقاء مشهود بين السلطان مولاي الحسن وموحى أوحمو بمقر الزاوية بأبي الجعد عام 1294/ 1878/1877. وقد تحدث عدد من الكتاب[18] بإسهاب عن هذا اللقاء. وعاد الفضل فيه إلى الزعيم سيدي بنداود الشرقاوي الذي كان على آطلاع بالأحداث في بلاد زايان والمتمثلة بالخصوص في هزيمتهم من طرف إيشقيرن. وبعد أن عرف بالصعوبات التي عاشها موحى أوحمو وقبيلته أيت حركات بسبب الخطر المحدِق به من طرف إيشقيرن الذين ضيقوا عليه الخناق داخل أسوار خنيفرة عام 1877/1293، ابتدأت منذئذ اتصالات ووساطات بين زايان والسلطان واستمرت إلى فترة الزعيم الحاج بنداود.

كان موحى أوحمو في حاجة إلى مساندة أخرى، فوجدها في المرابط والزعيم المتحمس المكلف بمهام من هذا النوع من قبل المخزن، وكان هو سيدي بنداود الشرقاوي بأبي الجعد. وكانت الفرصة مواتية لما مر السلطان مولاي الحسن بتادلا صحبة محلة قوية لإخضاع العصاة، فاقترح سيدي بنداود على موحى الشاب بأن يقدمه إلى الشريف ويحصل له على توليته قائدا على زايان.

ونظرا لتطابق رغبة مولاي الحسن في السيطرة على القبائل الجبلية ورغبة موحى أوحمو في الحصول على دعم سياسي لزعامته، فقد انعقد بأبي الجعد اجتماع بين الرجلين ؛ ودارت محادثات اقتنع خلالها السلطان بقيمة سلطة موحى أوحمو على

---

(18) F. Berger, **Moha ou Hammou Le Zaïani: un Royaume berbère contemporain au Maroc (1877-1921)**. Editions de «L'ATLAS», Marrakech, 1929, p. 25-27.

قبيلته فأعطاه موافقته بظهير مخزني شريف وتسميته قائد زايان وأيت يعقوب، ومصحوبا بفرقة صغيرة مسلحة من ميليشيا السلطان، مؤلفة من ثلاثمائة من المشاة تقريبا، تحت رئاسة «قائد رحا» هو الزوكَاطي. وحضر في هذا الاجتماع كذلك القائد محمد اكَبلي وسماه السلطان بموازاة موحى أوحمو قائد زايان أيت زكَوكَو على تراب مريرت والماس، وكانت ديبلوماسية المخزن هادفة إلى ضمان سلطته بواسطة تسمية قائدين يظل كل منهما في حاجة إلى مساعدته، وذلك للحيلولة دون كل محاولة للاستقلال الذاتي أو التطاول والتعدي.

أبو الجعد قبيل التدهور :

تكاد تتطابق هذه الفترة مع بداية الحماية. وكان لأبي الجعد حتى ذلك الحين إشعاع مهم، روحي واقتصادي.

– **الإشعاع الروحي** : تمثل في أهمية عدد الأتباع وبالخصوص من الشرقاويين والحمادشيين :

• **الشرقاويون** : بلغ عددهم عند بداية الحماية حوالي ألفين وستمائة وخمسة عشر [2615]، وتوزعوا في نواحي الدار البيضاء [2500 تابعا] وفاس والجديدة والتخوم الشرقية.

• **الحمادشيون** : بلغ عددهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة وتسعين [3399]، وتأسس نظامهم في نهاية القرن الحادي عشر/نهاية السابع عشر من طرف سيدي علي بن حمدوش تلميذ الشرقاويين بأبي الجعد. ووجدت الزاوية الأصلية في زرهون قرب سيدي علي. وتوزع الأتباع في نواحي مكناس [1100 تابعا] وفاس [حوالي 800] وأسفي [190] والجديدة [130] والدار البيضاء [130] ومراكش [120](19).

وحققت الزاوية طيلة الأربعة قرون تراكما متنوعا : فمن جهة هناك أضرحة صلحائها التي أضحت علامة مميزة لعمرانها وشخصيتها ابتداء بضريح المؤسس ثم أبنائه وخاصة محمد المطاع، ومحمد الصالح بن محمد المطاع ومحمد المطاع بن محمد الصالح مجدد الزاوية وغيرهم ؛ ومن جهة أخرى هناك دور هؤلاء الأبناء وتميزت بالفخامة والرحابة ؛ ثم هناك التراث الديني الذي تمثل بالخصوص في عدة مؤلفات

(19) Documentation, 63.

مثل : «**الروض اليانع الفاتح في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد الصالح**» لمؤلفه الحسن بن رحال المعداني التادلي (ت. 1140/1728) لذكر أخبار محمد الصالح ؛ و«**ذخيرة الغني والمحتاج في ذكر صاحب اللواء والتاج**» في أكثر من أربعين جزءاً وألفها مجدد الزاوية المذكور وتوفي في محرم 1180/يونيو 1766 ؛ و«**يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المُعطى**» لمؤلفه محمد بن عبد الكريم العبدوني وتوفي في 1189/1776.

ومما لا شك فيه أن الزاوية حصلت من المخزن مقابل خدماتها له على عدة منافع وهي امتيازات **معنوية** كظهائر التوقير والتعظيم والاحترام وتجديد ظهائر السلف للخلف[20] وامتيازات **مادية** كإعفاء وتحرير أعزبة الزاوية من مختلف الضرائب كما حدث عام 1281/1864[21] وفي 1301/1885[22] وفي 1326/1908[23]. وصار للزاوية ممتلكات وخدام في ناحية سطات [شرقاوة القيشاش] وبني مسكين [أولاد احمر الجنيوي] والرحامنة [أولاد عطية] وفي مزاب وبين الشاوية وتادلا عند فخدة فقرا بلغراف.

– الإشعاع الإقتصادي :

• تجمع أبي الجعد :

ـ الوصف :

أشرنا إلى أهمية موقع الزاوية، وهو تقريبا ملتقى طريقين كبيرين بين مكناس ومراكش وبين خنيفرة والدار البيضاء؛ في حين ظل نموها محدودا لوقوعها وسط سهل ذي مسالك وعرة.

وتستغرق الرحلة أربعة أيام من أبي الجعد إلى الدار البيضاء، يومين منها في بلاد السيبة، ويومين في بلاد المخزن؛ وليس هناك آتصالات مع مراكش بسبب صعوبة المواصلات. وتعد الطريق محفوفة بالمخاطر، ويتم تغيير الرطاطة في الغالب عدة مرات.

---

(20) **وثائق الشبوكيين**، رقم : 2، 3، 4 ؛ **وثائق شرقاوة**، رقم : 5، 15، 23، 27، 31.

(21) **وثائق شرقاوة**، رقم : 8.

(22) **وثائق شرقاوة**، رقم : 23.

(23) **وثائق شرقاوة**، رقم : 53.

وتوفرنا على ثلاثة أوصاف لأبي الجعد قبل التدهور: أولها لدوفوكو حوالي عام 1883/1300، وثانيها للمترجم مارتي حوالي 1908/1326، وثالثها للقبطان الباحث بيروني حوالي 1920/1338 الذي أخذ عن مارتي.

ونستخلص مما كتبه الأول الذي أقام بالمدينة أثناء الخمسة عشر يوما الأولى من عام 1883/1300 أنه لولا أهمية أبي الجعد كمركز ديني وطابعها من خلال مساجدها وقبابها الكبيرة ومساكن صلحائها الثرية، لما آستحق هذا المحل أبدا آسم مدينة. وقال مازاد سكانها عن ألف وسبعمائة نسمة.

وبحسب مارتي، فإنه في عام 1908/1326 ضمت أبو الجعد ثلاثة آلاف من الأنفس سكنوا في ثمانمائة إلى ألف من المنازل، وانتشرت البساتين في الشرق، وسكن المنازل الفخمة منها أبناء وأقارب السيد، وامتدت دور المدينة في الغرب، وأطلق عليها اسم الزاوية، ووجد بالمدينة مسجدان كبيران بالقرب منهما أربعة أضرحة، وأقام اليهود في الشمال الشرقي.

ـ الأحياء :

كان عددها تسعة حسب مارتي : **ثلاثة** لكل من سيدي الغزواني وسيدي المكناسي وسيدي العربي، **وثلاثة** أخرى لكل من سيدي عبد القادر وسيدي عبد السلام وسيدي الغزاري، ووجد في الريف الفوقاني **أحياء بني زمور**، واعتبر درب **سيدي علي** آهلا بالشرفاء، وأخيرا **الملاح** الذي تألف من ثمانين منزلا أوت ما زاد على مائتين من اليهود.

واخترق أبا الجعد مسيل ماء لا يصلح إلا لشرب الدواب وسقي الأجنة. وكان لبعض المنازل آبارها، وتزود القسم الأعظم من المدينة من مجموعة مؤلفة من ستة آبار واقعة على بعد كيلوميترين ونصف تقريبا في اتجاه الغرب بواد رجال الميعاد.

ولكون المدينة مركزا دينيا وسياسيا لتادلا، فقد جعل منها حق الالتجاء مأوى لجميع المضطهدين والمظلومين؛ فوفد عليها أشخاص من ورديغة وبني مسكين والشاوية وبعض أمازيغيي الجبل وقبائل أخرى. وظلت أهمية أبي الجعد تكمن في مرابطيها ومن أبرزهم في نهاية القرن التاسع عشر سيدي بنداود الذي ظل محتفظا بمعظم ملكيتها، وابنه وخليفته سيدي محمد الشرقاوي وأخوه محمد سلطان الذي تكلف بإدارة دفة

السياسة مع أحد قواد بني زمور وهو الجيلالي بن الميلودي الذي نصبه المرابط قائدا بأبي الجعد، فكان «وزيره في الأمور الوقتية ومساعده العلماني ووالي المحكمة»[24]. ولم يكن مرابطو أبي الجعد مرتاحين لتوافد المهاجرين لتعمير المدينة التي أسسوها وملكوا عام 1908/1325 خمس الأبنية فيها.

ـ سوق الخميس :

صار السوق الأسبوعي لأبي الجعد فرصة للتبادل. وقامت حوانيت صغيرة من التراب المدكوك أو الحجارة عمقها متران وعلوها متر ونصف، جلس فيها صناع وتجار. وكان يعثر فيها على أغلبية المنتجات الأوروبية التي تباع بفاس ومكناس ماعدا البترول والسكاكين والأقلام وهي سلع وفيرة عند «الصالحين» الذين حصلوا عليها مباشرة من الدار البيضاء مرسى تموين تجارة أبي الجعد. وكانت الملابس القطنية والشاي والرز والسكر ومواد البقالة والعطور والثياب، تستورد مقابل الجلود والصوف والشمع. وازدهرت المدينة بصناعتها وتجارتها. وفيها كثير من الصناع العرب من بنائين ونجارين وحدادين وخياطين ومطرّزين وقياطنيّين وبرادعيين وسرايجية ودباغين وخرازين وصائغين وجواهريين. وتدوم السوق يومي الأربعاء والخميس، وكان يهرع إليها الناس من جميع أركان تادلا.

لكن شيئا فشيئا أصبحت أبو الجعد حاضرة بني زمور مع ظهور واد زام وارتياد السماعلة لها وقصبة تادلا بالنسبة لأيت الربع أو خنيفرة وسط زايان وغيرها. وقد ضمت اتحادية بني زمور في هذه الفترة ثلاثة آلاف واربعة وخمسين خيمة، توزعت بين أربع قبائل هي أولاد يوسف (1082ذ) وبني بتاو (890ذ) والشكَران (651ذ) والرواشد (431 ذ) بحيث ارتبط نمو المدينة الديموغرافي والتجاري والعمراني بمحيط بني زمور.

الحصيلة

بدءاً من العقد الثاني والثالث من القرن العشرين عرفت أبو الجعد تدهورا خطيرا نختزله في حدوث تفاوت جهوي بين حواضر قريبة ظهرت في منتصف القرن

(24) الزاوية الشرقاوية : 53، 61، 62.

التاسع عشر كخنيفرة وبداية القرن العشرين كوادزام وخريبكَة. وزاد تفاوت النمو حدة منذ الاستقلال إلى يومنا. وهكذا نخلص إلى الحقائق البسيطة التالية :

1 ـ ارتبط ظهور المدينة بقرار سياسي مخزني بين 1566 ـ 1602.

2 ـ تخربت المدينة بقرار سياسي، حوالي 1768.

3 ـ أعيد تأسيسها بقرار سياسي في بداية القرن التاسع عشر.

4 ـ عرفت تهميشا وعانت من تفاوت جهوي خطير نتجية غياب تخطيط سياسي.

وإن خروجها من تدهورها اليوم رهين بقرار سياسي يجعل من رأسمالها البشري والرمزي وكفاءاتها وكافة المهتمين بالبحث في ماضيها وحاضرها، مشاركاً فاعلا في هذا النهوض المأمول.

تاريخ يهود البوادي والمدن المغربية الصغرى

ملاحظات عامة

محمد كنبيب
كلية الآداب ـ الرباط

لقد نالت مسألة الأقليات الدينية والإثنية، خلال العقود الأخيرة، حيِّزا هاما من اهتمامات الباحثين في الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، اللسانيات، وإلى حدّ ما العلوم السياسية، وذلك في الجامعات والمعاهد الأنجلوسكسونية بصفة خاصة. أما المؤرخون، فلا زال تعاملهم مع هذه الإشكالية محدودا ومتقطعا، بل ونادرا، لاسيما في العالم الإسلامي والعربي، وذلك رغم أهمية الأقليات في تاريخه وحضارته، بل وفي الانشغالات الراهنة لبعض الدول العربية (السودان، مصر، لبنان، العراق...)(1).

والجدير بالذكر أن حساسية وتعقد موضوع مثل هذا تثير تحفظ الأوساط الأكاديمية، بل وغضها الطرف عنه بصيغة أو أخرى، حتى في بعض الدول الغربية. ففي فرنسا مثلا وهي البلد الذي يتميز بتقاليده المركزية، لا تعتبر الدراسات حول الأقليات والمشاكل المرتبطة بـ«ـالهوية» الإثنية أو الدينية أو «الجهوية»، من أولويات البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وذلك رغم معاناة فرنسا حاليا من مشكلة كورسيكا، ومواجهتها في مرحلة سابقة لتطلعات بلاد الباسك، وقبل ذلك لمطالب إقليم بروطانين ـ وهي «جهة» حاولت خلال الستينات انتزاع الاعتراف بخصوصيتها

(1) حول مسألة الأقليات في العالم العربي، انظر المرجع الكلاسيكي في هذا الباب :
Albert Hourani, **Minorities in the Arab World**, London, 1947.

الإثنية واللغوية، وقد سبق لبعض سكانها اتخاذ مواقف متطرفة إبان الحرب العالمية الثانية(2).

بالإضافة إلى المعطيات التاريخية، يكفي الانتباه لقصاصات الأخبار اليومية لإدراك مدى أهمية قضايا النزاعات ذات الطابع «الإثني» ودورها في تعدد بؤر التوتّر على الساحة الدولية (من جزيرة مِندناو بالفلبين إلى إيرلندة مرورا بمجموعة من الجمهوريات السوفياتية السابقة وشبه جزيرة البلقان)(3).

كل هذه المعطيات تثبت أن مسألة الأقليات لا تنحصر فقط في مطالب مجموعات بشرية محدودة بل تحمل في طيَّاتها إشكالية القوميات ومن خلالها مسألة «الأمة»، بمعنى نوعية المكوِّنات والركائز الضامنة لانسجامها واستمراريتها أو النزعات والتيارات النابذة وما يترتب عن ذلك من مخاطر بالنسبة لوحدتها.

كيف تطرح مسألة الأقليات بالنسبة لتاريخ المغرب، وهو القطر الذي لا زالت جاليته اليهودية (10.000 نسمة ؟ عوض 250.000 في مطلع القرن العشرين) تشكل أول جالية يهودية في العالم العربي ؟

علينا أن نسجل في البداية أن إدماج مداخلة حول اليهود المغاربة في برنامج «الأيام الدراسية الأولى حول مدينة أبي الجعد» له في حدّ ذاته أكثر من مغزى، ذلك أنه يعبر عن مدى قابلية التعامل مع تاريخ البلاد بكل مكوناته ودون انتقاء قائم على إسقاطات بعيدة كل البعد عن الحقل العلمي.

---

(2) من بين الدراسات التي تناولت قضية الأقليات و«الهُوِيَّة الجهوية» في فرنسا، هناك مجموعة من المقالات نشرتها المجلة التي كان يديرها جون بول سارتر (J.P. Sartre)، **Les Temps modernes**، عدد خاص، غشت ـ شتنبر 1973 :

Gaston Bazalgues, **Les organisations occitanes**, pp. 140-162; Roman Roudaut, **Histoire du mouvement breton**, pp. 170-194; Ch. Santoni, **Résistance et répression en Corse**, pp. 342-365.

(3) حتى بعض الدول المتميِّزة بالاستقرار السياسي وبمستوى معاشي لافت للنظر تواجه هي الأخرى مسألة الأقليات، ذلك هو شأن السويد والنورويج وفنلندة، حيث تتصاعد مطالب «الأهالي» اللابّون (45.000 نسمة) :

J.P. Airut, «Les Lapons à l'assaut de la bonne conscience de leurs voisins», in **Le Monde Diplomatique**, avril 1994, pp. 8-9.

واللافت للنظر في التواجد اليهودي بالمغرب هو أن الأمر لا يتعلق في الواقع بجالية واحدة بل بجاليات وذلك باعتبار تنوّع مكوّناتها، وتقاليد أفرادها، وأنماط عيشهم، وتباين مستوياتهم الاقتصادية ـ الاجتماعية، وبصفة عامة انقسامهم إلى قسمين :

1 ـ اليهود الأصليون أو «التوشبيم» (Toshabim) وهم يهود يجهل تاريخ استقرارهم بالمغرب في القديم وآليات تداخلهم مع البربر أو الأمزيغ، فلغز ما نُعِت بـ«ـبربرة اليهود وتهويد البربر» لا زال قائما[4].

2 ـ «اليهود المطرودون» أو «المغورشيم» (Meghorashim) وهم اليهود الذين طُرِدوا من شبه الجزيرة الإيبيرية في أعقاب سقوط غرناطة. وقد ٱلتحقت بهم فئة أخرى من اللاجئين كانت تتكوّن من يهود اعتنقوا المسيحية كرها بعد 1492 وتظاهروا بها (Marranos) في حين انهم كانوا متشبثين خفية باليهودية، واضطروا في نهاية المطاف للفرار خوفا من محاكم التفتيش (Inquisition) ونيرانها ـ بالمعنى الحرفي ـ، شأنهم في هذا الباب، إلى حدّ ما، شأن المورسكيين (Moriscos) أي مجموعات تقرر طردها من إسبانيا انطلاقا من سنة 1609 لاعتبارات دينية ـ سياسية (ممارسة الإسلام سرّاً، التمرّد المسلح في المناطق الجبلية، الاستعداد للقيام بانتفاضة كبرى بتعاون مع السعديين...) واقتصادية (مصادرة أراضيهم وممتلكاتهم لفائدة الرعايا المسيحيين...)[5].

إن توفر ووفرة المراجع والكتابات حول اليهود المغاربة لا يعنيان بالضرورة شفافية ماضيهم ونوعية تعايشهم مع المسلمين. فالمؤلفات الفقهية مثلا تتناول المسألة من الناحية الشرعية أساسا وانطلاقا من ضوابط ما يعرف بعهود أو عهد «الذمة»، بصرف النظر عن تداخلِ الشرعي مع ما هو تراكم تاريخي وإسهامِهما معاً في بلورة ما يصطلح عليه بـ«ـالحدود» المُلزمة لليهود والنصارى المقيمين بالديار الإسلامية. ففي أجوبتهم على أسئلة سلطانية تتعلق بتجاوزات بعض اليهود، أعاد بعض العلماء في

(4) H. Hirschberg, «The Problem of The Judaized Berbers», in **Journal of African History**, IV, 3, 1963, pp. 323-339.

(5) حول معاناة المورسكيين وظروف طردهم ولجوء عدد كبير منهم بالمغرب والأقطار التابعة للعثمانيين، انظر : Anwar G. Chejne, **Islam and The West : The Moriscos. A Cultural and Social History**, Albany, State University of New York Press, 1983.

النصف الثاني من القرن التاسع عشر توظيف ما ورد في فتاوي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (المتوفى سنة 1503) واعتبروا ذلك مرجعية ثابتة[6].

أما الكتابات التي أنجزها الفرنسيون مثلا في هذا الباب، سواء قبيل 1912 أو خلال فترة الحماية، فغالبا ما كانت تستجيب في الدرجة الأولى لمتطلبات إديولوجية وسياسية وتحاول توفير تبرير إضافي للسيطرة الأجنبية وتوظيف شعار «انعتاق اليهود» لإضفاء صبغة «التحررية» و«التقدمية» ـ بالمعنى الحرفي للكلمة ـ على النظام المحدث بمقتضى معاهدة فاس ـ لاسيما وأنّ فرنسا كانت سباقة إلى الإعلان عن المساواة في الحقوق بين مواطنيها بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية ـ وذلك ما لم يمنع في الواقع، مثلا، استمرار التمييز القانوني أمام المحاكم الفرنسية إلى حدود 1846، تاريخ إلغاء نظام ما يعرف بـmore judaïco، أي صيغة قَسَم خاصة باليهود عند مثولهم أمام القضاء، أو، مثال آخر، انفجار قضية درفوس (Dreyfus) الشهيرة (1894 ـ 1896)[7].

وبصرف النظر عمّا تثيره كل هذه المراجع والمصادر من ملاحظات، فإن إعادة قراءتها لا تعني رفض ما ورد فيها جملة وتفصيلا وبشكل آلي. فإعادة النظر في ما تتضمنه حول «اضطهاد» اليهود لا يجب أن يفهم منه النفي أو التقليل من معاناتهم وقساوة ظروف عيش سوادهم. الأمر لا يتعلق بالنسبة للباحث بتجاهل ما هو سلبي، بل بوضع كل المعطيات في إطارها التاريخي ومقارنة أوضاع غالبية اليهود بأوضاع عامّة المسلمين.

وتنطبق مثل هذه التساؤلات على الحواضر أساسا، ذلك أن ما يناهز ثلثي اليهود المغاربة أصبح يتمركز في المدن الكبرى ثم أواخر القرن التاسع عشر نتيجة ارتفاع وتيرة الهجرة القروية المترتبة عن عوامل شتى، منها بداية تفكك البنية الزراعية التقليدية (لاسيما في مناطق السهول الأطلسية والحوز) وتعاقب الجفاف على البلاد ومرورها

(6) محمد بن عبد الكريم المغيلي، **أحكام أهل الذمة**، قسم المخطوطات العربية، الخزانة الوطنية، باريس، رقم 2452.

(7) لقد كانت لمحاكمة وإعادة محاكمة الضابط اليهودي الفرنسي ألفريد دريفوس المتهم بالتجسس لفائدة ألمانيا انعكاسات شتى على الحركة الصهيونية، ذلك أن منظرها الرئيسي تيودور هرزل (Theodor Herzl)، وهو أصلا صحافي نمساوي تكلف بتغطية المحاكمة لصالح جريدة كبرى من جرائد فيينا، استخلص من مختلف أطوار القضية ومن جوّ معاداة السامية السائد بفرنسا استحالة «اندماج» اليهود وضرورة تأسيس دولة خاصة بهم.

مثلا خلال الفترة الممتدة من 1878 إلى 1884 بعدة سنوات عجاف متتالية.

إن حرصا مماثلا يفرض نفسه عندما يتعلق الأمر كذلك بدراسة أوضاع يهود البوادي والمدن الصغرى ؛ ولا داعي للتذكير بخصوصيات بعض هذه المدن (دبدو، صفرو، دمنات...) وتجذّر التواجد اليهودي بها، وأهمية نسبة سكانها اليهود.

أما أبي الجعد، فقد قُدّر مجموع سكانها سنة 1884 بما يناهز 1.700 نسمة، منهم تقريبا 200 يهودي (وهو عدد ارتفع فيما بعد ليصل إلى 1010 سنة 1919 ؛ وفي نفس الفترة تم إحصاء 1.481 يهودي ببني ملال و295 بقصبة تادلة) كانوا يقطنون بحي غير منعزل عن أحياء المسلمين(8).

ولا يعرف الكثير عن ظروف إستقرار اليهود بأبي الجعد، على عكس دبدو مثلا حيث يسود الاعتقاد أن انطلاقتها الحقيقية بدأت على أثر استقرار عدد من الأسر اليهودية المطرودة من الأندلس بها. في غياب أدلة قاطعة، يمكن التساؤل : هل يتعلق الأمر بالنسبة لأبي الجعد كذلك بيهود قدموا من شبه الجزيرة الإيبيرية، لاسيما وأن هؤلاء لم يقصدوا المدن الكبرى فحسب (تطوان، فاس، مراكش...) بل توغلوا في اتجاه مناطق الجبال والهضاب الداخلية بما في ذلك وادي درعة والأطلس الكبير ؟ هل نحن أمام يهود أصليين أو «بلديين» كما كانوا يسمّون أنفسهم ـ وهناك كما هو معلوم فئة أخرى من «البلديين» : اليهود الذين اعتنقوا الإسلام بفاس مثلا وسمّوا أيضا بـ«ـالمهاجرين» و«الإسلاميين» و«مسلمين الخرقة».

فالوزّان، في وصفه لإفريقيا الشمالية، يتحدث عن مدينة من مُدُن تادلة ويقول إنّ عدد سكان تفزَة جِد مرتّفع وإنهم أغنياء وإنه شاهد بها 200 دار لليهود كلهم تجار وحِرَفيون... وإن تجارة المنسوجات من الصوف تحتل مكانة بارزة في المبادلات، لاسيما مع إسبانيا وإيطاليا ؛ ويقول أيضا إنّ مدينة أخرى بتادلة، يُسمّيها إفزَة، يَسْكُنُها المغاربة واليهود ؛ أما المدينة الأخرى التي يذكرها بعد ايت عْتاب، فهي أيْت حيَّاد ويقول عنها إنها تتكون من 300 كانون، يَسْكُنُها الشُرفاء والفرسان ويُشاهَد بها عددٌ كبير من التجار الأجانب واليهود، بعضهم تجار، والآخرون حرفيون»(9).

(8) Charles de Foucauld, **Reconnaissance au Maroc. 1883-1884**, Paris, 1888, pp. 54-55.

(9) Léon l'Africain, **Description de l'Afrique**, éd. et Trad. de l'italien par A. Epaulard, Paris, 1956, pp. 142-146.

ويمكن أيضا، وهذا مجرد افتراض، ربط تواجد اليهود بأبي الجعد بنهاية الزاوية الدلائية ؛ فحسب بعض المصادر اليهودية كان عدد اليهود بِدِلاء يفوق 2.000، مَنَحَهم المولى رشيد مُهْلَة قَصِيرَة لإخلاء ديارهم ومتاجرهم، فقصد معظمهم فاس. هل استقر ما تبقى منهم بالمناطق المجاورة ومن ضمنها أبي الجعد ؟ هذه إمكانية تتطلب البحث لإثباتها أو تفنيدها وذلك ضمن فرضية تأخذ بعين الاعتبار التواجد اليهودي بقصبة تادلة وبني ملال، ومنطقة الدير بصفة عامة(10).

ومن بين المعطيات اللاَّفِتة للانتباه في هذا الباب، تجدر الإشارة إلى بعض الممارسات الروحية والدينية ــ بمعناها الواسع ــ في هذه المنطقة، على غِرار مناطق أخرى في البلاد ؛ ويتعلق الأمر بما يمكن نَعْتُه بازدواجية الأولياء إن صح التعبير ؛ فقد أحصى «لويس قوانو» في نهاية الأربعينات ما يناهز 40 وليّاً مشتركاً كان يزورهم المسلمون واليهود. فبجوار قصبة تادلة مثلا كان الناس يَتبرَّكون بسيدي قاضي الحاجة، وهو، حسب روايات اليهود الرَّب يحيى بن يحيى، حاخام من بيت المقدس جاء للمغرب في قديم الزمان، اكتسب شهرة واسعة، وأصبح فيما بعد وليّاً معروفاً بكراماته واستجابته لزوَّاره بصرف النظر عن انتمائهم الديني ؛ وهو لا يتوفَّر على ضريح وإنما مجرد كَرْكُور بجوار مقبرة للمسلمين مهجورة(11).

وهناك ولي آخر، هو الرب شلومو عمّار، كان يُزَار في موقع يوجد بين بني ملال وعين اسردون بجوار مقبرة قديمة لليهود، يقال إن قبره يوجد تحت صخرة ضخمة تَخْتَرِقها فجوة كان الزوار يضعون فيها الشموع.

ووليّ مشترك آخر، هو الرب دويد بن يَمِين، كان الناس يعتقدون أنَّهُ يُشْفي الضَّرير، له ضريح ببني ملال قرب باب القصبة (تجدر الإشارة كذلك إلى مولاي التوابيح بأيت عْتاب الخ...).

مثل هذه المعطيات تزكّي فَرَضية قِدَم التواجد اليهودي بالمنطقة. وذلك ما يُمكن تَصَوُّره أيضا انطلاقا من موقعها الجغرافي في حد ذاته وقياسه بنوعية عدد كبير من الأماكن التي كان يسكنها اليهود.

(10) تقاييد سول سريرو وسعادية ابن دانان، السنة العبرية 1646/5406 م ؛ انظر :
Georges Vajda, «Un recueil de textes historiques judéo-arabes», **Hespéris**, 1948, XXXV, pp. 352-358.

(11) Louis Voinot, **Pèlerinages judéo-musulmanes au Maroc**, Paris, 1948, pp.55-58.

فغالبا ما كان هؤلاء يقطنون بدواوير وملّاحات صُغرى تقع على جنبات الطرق التجارية الكبرى، كل واحدة منها عبارة عن حلقة مندمِجة ضمن سلسلة طويلة يتحكم فيها اليهود من أقصاها إلى أقصاها بل وتندرج ضمن شبكة تجارية متوسطية يساهم في تنشيطها مراسلون يهود يملك بعضهم دورا تجارية بالمدن الإيطالية والفرنسية والهولندية والأنجليزية. ويتجلى دور اليهود البارز في تجارة القوافل مثلا في ثراء بعضهم في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ؛ وقد كان تظاهر بعضهم بالغنى وتسخير المسلمين أحد أسباب انتقادات عبد الكريم المغيلي ونداءاته لإبقائهم على «صغرهم» رغم ثرائهم وتوفُّرهم ـ على حدّ تعبيره ـ على «القناطير المقنطرة من الذهب والفضة»[12].

يستجيب موقع مدينة أبي الجعد نسبيا للمقاييس السالفة الذكر ؛ فمجالها عبارة عن ممر طبيعي بين فاس ومراكش من جهة، وموانئ الأطلنتيك وتافِلَالت وواحات توات من جهة ثانية، بالإضافة طبعا إلى دورٍ أساسي آخر، ألا وهو التواصل بين السهل والجَبل.

وهذه كلها معطيات تتطابق وإحدى وظائف اليهود التقليدية، أي الوساطة التجارية لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية الموارد الطبيعية، وفي مقدمتها المنتوجات الفلاحية، التي يَزْخَر بها سهلُ تادلة. وهي ثروة أثارت انتباه الوزان في القرن 16 ودو فوكو (De Foucauld) في أواخر القرن العشرين رغم أن زيارة هذا الأخير صادفت نهاية فترة طويلة وقاسية من القحط تَسَبَّبت في خراب ديموغرافي واقتصادي مُهْوِلٍ[13]. وهناك إشارات متقطعة أخرى في هذا الباب في «**نشر المثاني**» (القادري) و«**تاريخ الضعيف**» و«**الاستقصا**» (أحمد الناصري)[14].

ويتجلّى دور مدينة أبي الجعد على هذا المستوى في أهمية سوقها الأسبوعي حيث كانت تقصده جل القبائل المجاورة، بما في ذلك قبائل الشاوية، مساهمة بذلك في تقوية مكانة المدينة كمركز جِهَوي لتجميع المنتوجات الفلاحية وإعادة توزيع السلع القادمة من فاس مثلا أو المستوردة من الخارج عبر الدار البيضاء. وانعقاد هذا

(12) انظر الإحالة رقم 6.

(13) انظر الاحالة رقم 8.

(14) Dale Eickelman, «Quelques aspects de l'organisation politique et économique d'une zaouia marocaine au XIX siècle», **Bulletin de la Société d'Histoire du Maroc**, 1972-73, pp 37-54.

السوق يوم الخميس، عِوَض الجمعة أو السبت، دليل في حدّ ذاته على حيوية المشاركة اليهودية ودورها في الرواج المحلي والجهوي.

والواقع أن مثل هذا التوقيت كان لا ينحصر في أبي الجعد، ذلك أن تَفَادي انعقاد السوق الأسبوعي يومي الجمعة والسبت شكل قاعدة عامة بالنسبة لمعظم أنحاء البلاد. فقليلا ما نجد في النصوص إشارة إلى أماكن تسمّى «سوق السبت» لاسيما في المناطق المتميِّزة بكثافة سكانها اليهود. والمقولة الشعبية الشهيرة «سوق بلا يهود بحال قاضي بلا شهود» لخير دليل على مغزى استثناء الجمعة والسبب واختيار أيام أخرى تُناسب اليهود. وهذه المقولة كانت شائعة في الجزائر أيضا قبل 1830.

ومن باب التاريخ المقارن كذلك، ولو أن الأمر لا يتعلق بالاقتصاد وإنما بالسياسة، تجدر الإشارة إلى أن بعض الدول الأوربية الغربية التي غالبا ما يُقال عنها إنها متجذِّرة في الديموقراطية و«انعتاق اليهود»، كأنجلترا مثلا، كانت، وإلى حدود 1860، تُنَظِّم عمدا انتخاباتها البرلمانية وبعض جلسات مجلسي العموم واللوردات يوم السبت، وذلك لِمُضَايقة أو إقصاء المرشحين، والناخبين، والمنتخَبين اليهود(15).

وبكيفية موازية لمشاركتهم في السوق المحلي، كان يهود أبي الجعد يقصدون أسواق القبائل المجاورة، شأنهم في هذا الباب شأن «السوَّاقة» المسلمين ؛ إلّا أن نسبة التجار أو الباعة اليهود الذين كانوا يُرَكِّزون نشاطهم على مثل هذه التنقُّلات غالبا ما كانت تفوق وبكثير نسبة المسلمين. وقد أبان كَيرتز (C. Geertz) في دراساته حول صَفْرو أن هذه النسبة لا تتعدى $\frac{1}{5}$ التجار المسلمين في حين أنها تمثِّل $\frac{3}{5}$ التجار اليهود(16).

ويحتل الباعة المتجولون مكانة خاصة في سياق تنقلات اليهود في البوادي قبل 1912. فقد كان ما يناهز 50% من يهود المُدُن يكسبون قوتهم وقوت ذويهم بهذه الكيفية. إن «العطَّار» وجه من الوجوه المألوفة على طرقات وفي دواوير مغرب ما قبل الاستعمار وفي دواويره، شأنه شأن من نُعِتُوا بـ«ـالأقدام المغَبَّرة» (pieds poudreux)

(15) Geoffroy Alderman, **The Jewich Communities in British Politics**, Oxford, Clarendon Press, 1983, pp. 26-27.

(16) Clifford Geertz & al., **Meaning and Order in Moroccan Society: Three Essays in Cultural Analysis**, New York, 1979, p. 253.

في أوربا الغربية إلى حدود أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر(17).

وعلى غرار غيرهم من العطّارة، كان يهود أبي الجعد المتجوِّلون يتنقلون بسلع يُزَوِّدهم بها تجار يهود متوسطون أو كبار، أو سلع يشترونها مباشرة برأس مال يُوَفِّره لهم «أصحاب» مسلمون على أساس «الشّرْكة» واقتسام الأرباح(18).

إلاَّ أن الحصول على السلع وعلى دابَّة أو دابتين لحملها كان أثرا غير كاف في حدِّ ذاته. ذلك أن نوعية ما ينعت حاليا بـ«ـالإدارة الترابية» كانت تشوبها آنذاك عدة ثغرات، بالمنظور العصري. بعبارة أخرى، كانت الأعراف والتنظيمات الجاري بها العمل لتأمين تنقُّل الأفراد والسلع تقتضي اتخاذ تدابير خاصة والالتزام بها لتفادي التعدِّي والنهب في الطرقات، لاسيما خلال سنوات الجفاف، أو على حدِّ تعبير المولى الحسن، «احتباس الأمطار المُشَغِّلة لأهل البادية بالحرث وعمَّا يَقَعُون فيه من النَّهب والقتل»(19).

وقد كان للزاوية الشرقاوية دور أساسي في هذا الباب حيث كانت تُوَفِّر الحماية اللازمة للتجار والمسافرين بفضل نفوذها في المنطقة وعلاقاتها مع القبائل وتنظم قوافل يفوق أحيانا عدد جمالها 300 جملاً. ومثل هذه «الخدمات» (إن صحَّ التعبير) شيء طبيعي ويدخل ضمن إطار ما كان ينتظره الناس والمخزن نفسه من الزوايا، أي المساهمة في توفير الأمن وحل النزاعات على المستوى الجهوي. وقد كانت الزاوية الوزانية، وزاوية تمصلوحت، وزاوية إليغ مثلا تقوم بدور مماثل في مناطق أخرى من البلاد.

وإذا كانت هذه المؤسسات تُساهم أحيانا بكيفية مباشرة في العملية التجارية نفسها، وفي النشاط الاقتصادي بصفة عامَّة وبصيغ مختلفة بغية توسيع وتمتين قاعدتها المادية، فإن ما كان يُقدَّم لها من هدايا وهبات لمكافأتها، يصعب اعتباره مجرد «مقابل» مادي أو عملية من الصنف المِرْكَنْتِيلِي الصِّرف. فالمادي هنا يتداخل مع الاجتماعي والسياسي والرمزي، ويحث الباحث على التعامل معه، من الناحية النظرية، دون إغفال ما كتبه مارسل موص (Marcel Mauss) حول إشكالية الهدية

(17) Ahmet Insel, «La part du don : esquisse d'une évaluation quantitative», in **Ce que donner veut dire**, Paris, 1 ter, 1993.

(18) Joseph Bourilly, **Eléments d'éthnographie marocaine**, Paris, 1932, pp. 214-215.

(19) 19 ربيع الثاني 17/1301 فبراير 1884، رسالة موجهة باسم المولى الحسن، من الوزير محمد بن العربي المختار إلى السفير الفرنسي بطنجة.

وبالخصوص إلحاحه على «عدم انسلاخ السوق» عن الإطار الاجتماعي والعلاقات القائمة بين الناس في المجتمعات القديمة(20).

وقد استمر العمل بالزطاطة أو العناية كما كان يُمارس انطلاقا من أبي الجعد ومن مقر زوايا أخرى وكذا بواسطة أعيان القبائل في أنحاء مختلفة من البلاد رغم ما شهده المغرب من تحولات خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بسبب تفاحش الضغوط الأوربية (أساساً)(21).

إلا أن هذه الاستمرارية أصبحت هشة في الواقع، شأنها شأن بنيات البلاد الاقتصادية والاجتماعية التقليدية، كنظام الحِسْبَة مثلا، وهي بِنْيَات تعرَّضت للتَّفكك نتيجة انطلاق إدماج المغرب التدريجي في السوق العالمية وبداية الانتقال نحو وضعية جديدة يتحكم فيها المنطق الرأسمالي(22).

فكان من الطبيعي أن تمتد هذه التحولات لتشمل ما هو «ثقافي» ـ بمعنى العبارة الواسع ـ وتحدث تغييرات على مستوى «الذّهنيات» أيضا. فاحتماء زعماء بعض الزوايا بالفرنسيين أو الأنجليز في أواخر القرن يَعْكِس في حدِّ ذاته عُمْقَ مَا شهدته البلاد من تحولات على هذا المستوى، لاسيما إذا تَذَكَّرنا دور الزوايا في تعبئة الناس وقيادة الجهاد في القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر (عبد السلام الوزاني 1883–1884 Ladiulas Ordega) (محمد المصلوحي 1894–1896)(23).

وبحكم موقع أبي الجعد الجغرافي، ودورها التَّقليدي كمركز لتجميع المنتوجات الفلاحية وإعادة توزيع السلع المستوردة، وباعتبار نفوذ الزاوية الشرقاوية أيضا، كان من الطبيعي أن تتجه أنظار الأجانب نحو هذه المدينة(24).

---

(20) انظر الإحالة رقم 17.

(21) انظر الإحالة رقم 8.

(22) تشكل الاتفاقية الانجليزية ـ المغربية المبرمة سنة 1856 ـ بعد مايناهز عقدا من «الترغيب والترهيب» ـ نقطة تحول بارزة في هذا الباب، ذلك أن بنودها شكلت «قوة ضاربة» هائلة استعملتها الدول الأوربية لغزو السوق المغربية وتفكيك كل ما كان من شأنه عرقلة توسيع المصالح الاقتصادية الأجنبية.

(23) محمد كنبيب، **الحمايات الأجنبية بالمغرب في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين**، جامعة باريس 7، 1980، أطروحة غير منشورة (بالفرنسية).

(24) Dale Eickelman, **Morocan Islam. Tradition and Society. in a Pilgrimage Center**, Austin, 1981, pp. 247-254.

وقد كان للدار البيضاء دور بارز في هذا الباب، ذلك أن نموَّها السَّريع تجلى في اتساع دائرة نفوذها الاقتصادي وجاذبيتها بالنسبة للمناطق المتاخمة للشاوية. وبما أن كبار التجار اليهود بالبيضاء كانوا يمارسون شبه احتكار على قسط وافر من المبادلات البحرية، فإنهم كانوا يتعاملون بنوع من الأفضلية مع إخوانهم في المناطق الداخلية، بما في ذلك بالطبع يهود أبي الجعد (سكان الدار البيضاء : 25.000، منهم 3.000 يهودي، 600 أوربي).

وبفضل تعاملهم مع كبار التجار اليهود أو الأجانب المقيمين بالدَّار البيضاء، تمكن بعض يهود أبي الجعد من الحصول على «بطاقات» قنصلية تعترف لهم بصفة «السّمسَار» القانونية وتضمن لهم ما يترتَّب عن ذلك من امتيازات جبائيَّة وقضائية، شأنهم في هذا الباب شأن بعض المسلمين.

لا نتوفَّر على الوثائق الكافية لمعرفة نصيب «أهل الحمايات» بأبي الجعد في «المُضَاربات الفَظيعة»، على حدّ تعبير السفير شارل فيرو التي تعرَّض لها بيت المال (الخزينة) وتسديد تعويضات باهظة لفائدة المحميين والمخالطين والمتجنِّسين بدعوى تعرُّضِهم للاعتداء والسرقة في الطرقات(25).

ولنفس الأسباب، يصعب كذلك تقويم نصيب يهود أبي الجعد في ظاهرة أخرى أنهكت البوادي وساهمت بقسط وافر في تفكيك البنيات الزراعية التقليدية :

يتعلق الأمر بمسألة المُمارسات الرِّبَوية، مسألة لا زالت تطرح كثيرا من علامات الاستفهام.

وحول ظاهرة توظيف الحماية بهدف المضاربة على حساب المخزن، تجدر الإشارة إلى المراسلة التالية التي وجَّهها المولى الحسن إلى النائب محمد بركَاش ردّاً على تدخُّل السفراء الأجانب لفائدة يهود ادعوا أنهم تعرضوا للاعتداء والنهب :

«لا يخْفى أنَّ قبائل إيالتنا على قسمين : قسمٌ الغالبُ عليهم الانحراف والتعاصي وعدمُ استقامة الأحكام المخزنية فيهم لا سيما إذا انشغل المخزن عنهم ولم يتعاهدهم بالحركة والتربية ؛ وهؤلاء ينبغي لتُجَّار الأجناس البُعْد منهم وعدم سلوك بلادهم لا سيما من لا يمرُّ فيهم إلا بالزطَّاط فإن التوجه إليهم مخاطرة بالنفس

(25) محمد كنبيب، «المحميون واللصوص في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين»، **هيسبريس – تمودا**، 1991، 29، ص. 227 – 248 (بالفرنسية).

والمال... والقسمُ الثاني وهو القبائل التي يغلب عليها الصلاح وتجري عليها الأحكام المخزنية ؛ وهذه القبائل يقع فيها بعض الطّيش في بعض الأحيان وتحدث فيها السَّرقة والخيانة... (إلّا أن) بعض من لا أخلاق لهم من التجار ونوابهم يكذب في أصل الدعوى ويدَّعي السَّرقة والنهب وهو لم يُسْرَق ولم يُنْهب، وبعضهم يَضيع له شيء قليل فيدَّعي بالكثير الذي لا يمكن أن يكون عنده عُشْرُه... ولأجل ذلك (يقومون) بالسفر في أطراف النهار... وينحازون للطرق الخالية المتطرِّفة حرصا على أن يقع بهم ما يتوصلون به للدعاوي الكبيرة»(26).

وذلك ما عبَّر عنه أيضا فيرو (Feraud)، رغم تَوَرُّط سفارته في مثل هذه المضاربات بكيفية منهجية، بقوله :

«Les protégés vivent dans l'espoir d'être pillés».

وبالإضافة إلى تأثُّر أُسس ونوعية التعايش بين المسلمين واليهود بأبي الجعد بمسألة الحمايات الأجنبية، على المدى البعيد على كل حال، يمكن أن نتساءل كذلك عن مدى تأثر علاقاتهم بمعطيات أخرى، منها على الخصوص اهتمام المنظمات اليهودية الأجنبية الكبرى بجالية هذه المدينة وإحداث مدرسة عصرية لفائدتهم وربطها بالشبكة التي أشرفت الرابطة الإسرائيلية العالمية (Alliance Israélite Universelle) – ومقرها المركزي بباريس – على تأسيسها عبر مجموع التُّراب المغربي انطلاقا من سنة 1862(27).

ويمكن طرح نفس السؤال بالنسبة لمركز التكوين المهني الذي أحدث بأبي الجعد غَذاة الحرب العالمية الثانية لفائدة الشبّان اليهود وذلك بتعاون الرابطة الإسرائيلية ومنظمة إعادة الاعتبار بالعمل (Organisation de Réhabilitation par le Travail (ORT)) وهي منظّمة تأسست بروسيا القيصرية انطلاقا من 1880 بهدف تحسين أوضاع اليهود المادية وإدماجهم في القطاعات الاقتصادية المنتجة. وقد شاركت غذاة

(26) 6 محرم 31/1296 دجنبر 1878 رسالة موجهة إلى النائب امحمد برگاش مع تعليمات تأمره بإبلاغ فحواها إلى علم «نواب الأجناس» بطنجة.

(27) حول «تأطير» الجاليات اليهودية بعد 1912 وإحداث لجنة للإشراف على شؤون جالية أبي الجعد – بمقتضى القرار الوزاري المؤرخ بتاريخ 14 يونيو 1919، انظر :

Paul Marty, «Les Institutions Israélites au Maroc», **Revue des Etudes Islamiques**, III, 1930, pp. 297-332.

الحرب العالمية الثانية في إنجاز المخططات الرامية إلى تهجير اليهود المغاربة، وهي مخططات تم إعدادها خلال انعقاد ما سُمِّي بمؤتمر الحرب الاستعجالي بأطلنتك ستي (Atlantic City) بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر 1944.

وكان مركز ORT المُحْدَث بأبي الجعد يُوفر للشبان اليهود وللفتيات تكوينا في الخيَاطة، الكهرباء، إصلاح أجهزة الراديو، وتسفير الكتب (مجموع التلاميذ المدرسين سنة 1951 : 194).

وبِصَرْفِ النظر عن الهجرة القروية وانخفاض عدد السكان اليهود بأبي الجعد، أو دمنات، صفرو ودبدو بسبب نزوح بعضهم نحو المدن الكبرى، فقد كان لنشاط المنظمات الصهيونية والتهجير نحو الخارج دور أساسي في هذا الانخفاض.

وهكذا تقلَّص عدد يهود أبي الجعد من 1.010 سنة 1926 إلى 800 سنة 1948، و336 سنة 1956، 80 سنة 1960 و2 سنة 1968.

لقد وجدت مخططات المنظَّمات السالفة الذكر قابلية نسبيَّة لدى الفئات الشعبية اليهودية بالمغرب بصفة عامة لا لقناعات إيديولوجية وسياسية بالدرجة الأولى وإنما أساسا لعوامل اقتصادية واجتماعية، وهي العوامل التي طغت على الاعتبارات الأخرى. ذلك أن ما شهده المغرب من تغييرات جديدة خلال الفترة الممتدة من 1912 إلى 1956 أدى إلى إقصاء اليهود من المواقع التجارية والمالية التي كانوا يمارسون عليها شبه احتكار قبل 1912.

كما أن تحديث بنية البلاد التَّحْتِيَّة واستمرار خضوع المغرب لمبدإ الباب المفتوح المعلن عنه في اتفاقية الجزيرة الخضراء (1906) تسبَّبا في اضمحلال كثير من أنشطة اليهود التقليدية، وفي مقدمتها نشاط الباعة المتجولين والعطارة، وكذا الحرفيين[28].

وترتَّب عن كل ذلك تهميش وبَلْتَرَةٌ لفئات واسعة من اليهود، مِمَّا فسح المجال

---

(28) ينطبق أيضا ما كتبه بيير فلامند حول عوامل وآليات اضمحلال واندثار العديد من ملاحات جنوب المغرب على بوادي ومدن صغرى أخرى ؛ انظر :

Pierre Flamand, **Diaspora en terre d'Islam : Les communautés israélites du Sud marocain**, Casablanca, 1959.

أمام ORT وغيرها من المنظمات التي كانت تُمارس أنشطتها تحت غطاء العمل الخيري وواجب التضامن بين اليهود(29).

والأمر لا يتعلق أساسا بهجرة مترتِّبة عن اضطهاد ذات طابع عرقي أو عقائدي، أو اصطدام بين المسلمين واليهود ؛ وذلك رغم تأثر الجو العام بالمغرب بأحداث فلسطين والصراع العربي ــ الإسرائيلي.

واللاَّفت للنظر هو صمود التعايش «الطائفي» قبل هذه الفترة في وجه تقلبات وتحديات خطيرة. فخلال الحرب العالمية الثانية مثلا لم يستجب المسلمون سواء بأبي الجعد أو باقي أنحاء البلاد للدعاية النَّازية ولدعاية الفرنسيين المتطرِّفين الذين كانوا يدفعونهم للهجوم على اليهود. وبكيفية موازية لموقف المسلمين، يمكن تسجيل إسهام بعض التجار اليهود بأبي الجعد في تموين بعض المسلمين سرّاً والتخفيف من حدة المضايقات التي فرضتها عليهم السلطة الفرنسية لاعتبارات شخصية أو للانتقام منهم بسبب اتصالاتهم مع الوطنيين(30).

ومثل هذه المواقف تُذَكِّرنا بما قام به يهود تادلة وبني ملال خلال العشرينات ومرحلة المقاومة المسلَّحة، حيث كان بعضهم يخترق الحصار المضروب على المقاومين ويمدُّهم سرّاً بالشاي والسكر والشمع، الخ...

واللاَّفت للنَّظر أيضا، إذا اعتبرنا الخمسينات مثلا، هو تعامل التجار اليهود بأبي الجعد مع تجار مسلمين وفئة الفقهاء أو «الطلبة»، ولا سيَّما العناصر التي تأثرت بالفكر السلفي وساهمت بشكل أو آخر في الحركة الوطنية.

ويقول دايل إيكلمان في مقال له حول «الدين والتجارة في غرب المغرب» أنه خلال الخمسينات ونظرا لما حدث في البلاد من اضطرابات قبيل الاستقلال :

«أقدم عددٌ كبير من التجار اليهود (بأبي الجعد) المتعاملين مع البادية على اتخاذ أعوان من معلمي القرآن والاعتماد عليهم في تنقلاتهم عبر أسواق القرى... لقد وفَّر المعلمون ضمانة إضافية لسلامة اليهود... وفي نهاية المطاف (1956 ــ 1960)

---

(29) محمد كنبيب، **تطور العلاقات بين المسلمين واليهود بالمغرب 1859 ــ 1948**، جامعة السربون ــ باريس I، 1992، أطروحة الدولة (تحت الطبع، بالفرنسية)، ص. 654 ــ 660.

(30) Dale Eickelman, **Knowledge and Power in Morocco**, Princeton, 1985, pp. 139-146.

استولى المعلمون تماما على تسويق المنسوجات في البوادي ـ «البيع والشراء في الكتّان» كما كان يقال آنذاك(31).

خلاصة

أودُّ في النهاية الإشارة إلى أن ما ورد في هذه الورقة مجرَّد خطوط عريضة لا تنطبق عليها المقاييس المنهجية الخاصة بالدراسات المنوغرافية. ذلك أن الغاية الأولى المتوخَّاة منها تنحصر في إبراز جوانب محدودة من التقاطع بين التاريخ المحلي أو الجِهوي والتاريخ العام.

(31) Dale Eickelman, «Religion and Trade in Western Morocco», in **Research in Economic Anthropology**, 5, 1983, pp. 335-348.

جانب من الحضور والأساتذة المشاركين في الأيام الدراسية
أثناء حفل الشاي

إسهام المغاربة في كتابة السيرة النبوية

ونموذج كتاب «الذخيرة» للشيخ محمد المُعطى ابن الصالح الشرقاوي

محمد حجي

كلية الآداب ـ الرباط

يتناول العرض غَرَضَين :

الأول : إسهام المغاربة في كتابة السيرة النبوية، أي في فترة زمانية تناهز عشرة قرون. لذلك سيكون كلامنا فيه استعراضا سريعا يعطي فكرة عامة ويمهِّد للغرض الثاني ليضعه في إطاره الحقيقي.

الثاني : نموذج كتاب «**الذخيرة**» للشيخ محمد المُعْطَى الشرقاوي، وهو بدوره سيكون إشارات خفيفة لأن الكتاب يحتوي على نيف وستين جزءاً كما سنرى.

موضوع السيرة النبوية في المغرب مرتبط بارتكاز الإسلام وتجذره في هذه البلاد، وقد تحقق بعد عقود معدودة من وصول الفاتحين العرب، حيث نجد في نهاية القرن الهجري الأول معظم الجنود الذين فتحوا الأندلس ـ كقائدهم طارق بن زياد ـ من المغاربة الأقحاح، وازداد الإسلام استقرارا وانتشارا في المغرب بعد مجيء المولى إدريس بن عبد الله الكامل وقيام دولة آل البيت النبوي باختيار ودعم ورعاية من طرف القبائل المغربية الكبرى : مثل أوربة.

إذا انطلقنا من القرن السادس الهجري (12 م) ألفينا القاضي عياض بن موسى السبتي، العالم الفقيه المحدِّث، يؤلِّف كتابه العظيم في السيرة النبوية : «**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**»، هذا الكتاب الذي لم يُسبق إليه ـ كما ذكر هو نفسه في

خاتمته ـ وتقبّله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بقبول حسن، تدارسوه وشرحوه، وعلّقوا عليه وحاكوه واقتبسوا منه، وتعلّقوا به لما حواه من علم وتحقيق وحسن تبويب، ولفضل مؤلفه وصلاحه وجميل قصده استشفوا به وأوقفوا عليه الأوقاف الجليلة للتوريق أي للوعظ به على الكراسي العلمية في المساجد، وقسموه أربعين جزءاً مخطوطاً ومطبوعاً ليقرؤوه منجّما كأحزاب القرآن.

وعرف القرن السادس كتابين آخرين هامين في السيرة النبوية هما : «**مختصر السيرة النبوية**» للقاضي أبي بكر ابن العربي دفين فاس. و«**الروض الأنف**» للإمام عبد الرحمن السهيلي المراكشي، في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام رَاوِيةِ محمد ابن إسحاق (ت151؟م) مؤلف كتاب «**المبتدأ والمبعث والمغازي**» الذي يعد أقدم وأصح وأثبت كتب السيرة النبوية.

ونذكر من مؤلفات القرن السابع ثلاثة كتب في السيرة النبوية لمؤِّلف واحد، هو حسن بن علي ابن القطان شيخ ابن عبد الملك المراكشي (غير حسن بن علي القطان المروزي الطيب من رجال القرن السادس) كان هذا المؤِّلف الموسوعي في خدمة الملك الموحدي عمر المرتضى، وعن أمره ألف هذه الكتب (يقتضي سياقه أن يكون المرتضي بصيغة اسم الفاعل خلافاً للشّائع في الكتب وعلى الألسنة بصيغة اسم المفعول) :

ـ «**الأحكام من آي خير خيرة الأنام**»، في المعجزات النبوية، رتبه على سبعة أقسام، وفي كل قسم ضروب. يقع في جزءين ثانيهما محفوظ بخزانة القرويين في مجلد ضخم.

ـ «**الروضات البهيَّة الوسيعة في الغزوات النبوية الكريمة**»، وهو مرتب على تمهيد وصنفين، الصنف الأول في الغزوات النبوية التي حضرها الرسول عليه السلام بنفسه، والصنف الثاني في البعوث النبوية أو ما يعرف في كتب السير المتأخِّرة بالسرايا. وهي نسخة ملوكية محفوظة كذلك بخزانة القرويين انتسخت لخزانة الخليفة الموحدي عمر المرتضى.

ـ «**السلك المثنى النِّظام بما للصحابة الكرام، على جميعهم الرضوان والسلام، من الكرامات والمكرمات العظام**». رتبه على مقدمتين وثلاثة كتب، تشتمل المقدمتان على أخبار الصحابة وفضائلهم وعِشْرتهم للنبي عليه السلام،

ويختص الكتاب الأول بالعَشَرة المبشَّرين بالجنة. ولا يوجد الكتاب الثاني في مخطوطة القرويين.

وفي هذا القرن عرفت «**الصلاة المشيشية**» للشيخ عبد السلام ابن مشيش الإدريسي دفين جبل العلم وشيخ أبي الحسن الشاذلي رأس الطريقة الصوفية الشاذلية المنتشرة في العالم الإسلامي كله. هذه الصلاة التي بهرت الناسكين بمادتها وبلاغتها وروحانيتها ستفتح الباب لتصليات أخر تنشأ في العصور التالية بحجم أكبر ومادة أغزر مشتملة على فضائل الرسول الكريم وشمائله، ومكوِّنة صنفاً جديداً من كتب السيرة كما سنرى.

يأتي في طليعة مؤلفات السيرة النبوية في عهد المرينيين والوطاسيين كتاب «**الدر المنظَّم في مولد النبي المعظَّم**»، لأحمد العزفي السبتي وابنه أبي القاسم العزفي أمير سبتة. يتميز هذا الكتاب بأن لِتأليفه أسباباً اجتماعية وسياسية، علاوة على الغرض الديني. ذلك أن مؤلفه الأوَّل أحمد العزفي عالم سبتة وابن قاضيها استنكر ما شاع في عصره من احتفال المسلمين بعيد النيروز والعنصرة وميلاد المسيح عليه السلام تقليدا للنصارى جيرانهم في الأندلس، فأراد أن يصرف أنظار بني قومه عن ذلك التقليد الشائن وإعطائهم المولد النبوي بديلا عنه فبدأ كتابه «**الدر المنظم**» وتدريس الفصول المحررة منه للشباب، مبيِّناً فضائل الرسول محمد عليه السلام ومعجزاته وما ورد في مولده الشريف من الآيات وخوارق العادات، لكن المنية حالت دون إتمامه، فأكمله ولدُه الأمير أبو القاسم العزفي الذي حكم سبتة ثلاثين سنة من قبل المرينيِّين. ولما أكمل أبو القاسم العزفي الكتاب أرسل نسخة منه إلى السلطان المريني بفاس يشرح له الغرض الذي أُلِّف من أجله، فأعجب ذلك السلطان وأمر باحتفال المغاربة قاطبة بعيد المولد النبويِّ واستمر ذلك إلى أيامنا هذه.

ــ وثاني الكتب المؤلَّفة في هذا العصر هو : «**تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**»، لعلي بن محمد الخزاعي الفاسي من كُتَّاب أبي عنان المريني وعدد من السلاطين الذين أتوا من بعده. ولما أعفي من المهام المخزنية بعد وفاة السعيد أبي زيان (776) تفرغ لتأليف هذا الكتاب الذي كان قد جمع مادته أثناء اشتغاله في البلاط، واستمر في تحريره عشر سنوات، وغرضه منه كذلك مزدوج : تدوين حياة المجتمع

الإسلامي في عهد رسول الله، والرد على بعض طلبة الوقت الذين كانوا يرون أن تولّي الأعمال السلطانية بدعة، فبرهن بكتابه هذا على أن العمالات الشرعية ليست محدثة، وإنما هي خطط وُجدت أيام الرسول عليه السلام وتولّاها كثير من الصحابة، وكذلك وضع الخزاعي كتابه في عشرة أجزاء، ثمانية منها في العمالات، وواحد في الحرف والصناعات، وخاتمه، وفصّل الأجزاء العشرة في 178 بابا واتّبع منهجا دقيقا في توزيع المادة على الأجزاء والأبواب والفصول بحيث لا تتداخل ولا تتكرر إلا لسبب وجيه. فكان بذلك من أدق كتب السيرة وأكثرها فائدة وتنظيما.

أما كتاب «**دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار**» للشيخ مَحمد بن سليمان الجزولي، فإنه يدل على التطور الذي عرفته في هذه الفترة صيغ التصليّات الصوفية بعد الصلاة المشيشية المشار إليها آنفا، إذ يصوغ مؤلفه التصليات والتسليمات ممزوجة بأسماء النبي الكريم وصفاته ومعجزانه وما إلى ذلك من الموضوعات المطروقة في كتب السير.

وربما كان الإقبال على «**دلائل الخيرات**» من مختلف الأوساط أعظم من أي كتاب آخر من نوعه، نظراً لمكانة الشيخ الجزولي كمجدد للطريقة الشاذلية بالمغرب، وكثرة أتباعه ومريديه في حياته وحتى الآن لذلك كتبوا حوله عشرات الشروح والتعليقات وجزّؤوه أجزاء تُقرأ في أيام الأسبوع، وتفنن الخطاطون في كتابته في أحجام مختلفة وتزويقه بالألوان ومحلول الذهب، ورسم لوحات فنية في أوله وآخره، وأخرى للروضة الشريفة والمحراب والمنبر. ومنها نسخ في أحجام صغيرة تحفظ في علب من فضة أو جلد مطروز بالحرير وخيوط الذهب، اعتاد عِلّية القوم أن يحملوه فوق الجلباب معلقا بنجاد من حرير. وفي الخزانة العامّة بالرباط، والخزانة الصبيحية بسلا تحف فنية رائعة من هذه النسخ ذات الأحجام الصغيرة.

وإذا وصلنا إلى عصر الشرفاء السعديين والعلويين، تكاثرت كتب السيرة النبوية وتنوعت، وتخصصت في جزئيات صغيرة كالعمامة والنعال، وتعددت المؤلفات للمؤلّف الواحد، مثل محمد المهدي الفاسي الذي تحتفظ له خزائن المخطوطات بثلاثة كتب في السيرة :

ـ «**سمط الجواهر الفاخر من مفاخر النبي الأول والآخر**»، كتاب ضخم، قال عنه المؤلف في المقدمة إنه مختصر في السير والشمائل والمعجزات والخصائص

والفضائل، تتبع فيه أطوار حياة الرسول الكريم منذ ابتداء خلقه إلى بعثته ومغازيه وسراياه، وخصص في الأخير فصلًا لصفة الروضة الشريفة وكيفية القبور الكريمة الثلاثة فيها.

ـ «**العقد المنضد من جواهر مفاخر سيدنا ومولانا محمد**»، ذكر فيه ما يحق على المسلم حفظه ويجب على ذي الدين معرفته من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء خلقه.

ـ «**كفاية المحتاج من خبر صاحب التاج واللواء والمعراج**».

وقبل أن ننتقل إلى الغرض الثاني من هذا العَرض نشير إلى أن المغاربة ألّفوا أيضا عددا وافرا من الشروح للكتب الأمهات في السيرة النبوية منذ القرون الأولى من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ونظموا في المديح النبوي مآت بل آلاف القصائد والمقطعات والموشحات، بلغ عدد أبيات، إحداها 6.309 بيت، وهي بعنوان «**نظم الدرر بآي أحمد أجلّ البشر**» لعلي الرهوني المراكشي من أدباء آخر العصر الموحدي.

* *

النموذج الذي نتحدث عنه في القسم الثاني من هذا العرض هو كتاب «**ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج**» لأحد أبناء زاوية بجّعْد المباركة التي نجتمع في رحابها، الشيخ محمد المُعطَى بن محمد الصالح الشرقاوي. هذا الرجل يعد بِدعاً من علماء عصره، إذ بالرغم ممّا كان يعتريه منذ صغره من أحوال هي إلى الجذب أقرب فإنه متين التكوين في اللغة وقواعدها، والتفسير والحديث والفقه والسير والأدب، دون أن تُعرف له رحلة علمية، وأكثر قراءته في تادلا على والده الشيخ الفقيه محمد الصالح، وعمه محمد ابن المعطى، والفقيه أبي العافية الصومعي، وإن كانت ترد في قائمة شيوخه أسماء بعض علماء فاس كعبد القادر الزيزي وأحمد ابن زاكور وعبد القادر ابن شقرون المكناسي. ولا يُعرف إن كان أخذ عنهم في فاس أو في بجّعد عند زيارتهم لها. ومن المؤكد ـ حسبما جاء في فهرس الشيخ التاودي ابن سودة ـ أن الشيخ محمد المعطى أقام مدة بفاس، وفيها ابتدأ كتابة «**ذخيرة المحتاج**».

ومحمد المُعطى أيضا بدع من صلحاء عصره الذين غلب عليهم الزهد والعزلة والانقطاع إلى العبادة، فكان دائم الاتصال بالوفود والزوار الذين يأتون إليه من كل حدب وصوب، ودروسه متصلة الحلقات منتظمة شيِّقة مفيدة. لا يفرغ منها إلا

ليدخل إلى خزانة كتبه، وهي يومئذ من أغنى خزانات المنطقة، بما أضاف إليها من أعداد هائلة من الكتب في مسغبة عام 1150. وقد وصفه تلميذه وكاتبه محمد بن عبد الكريم العبدوني عن مشاهدة ومعاشرة في كتاب «**يتيمة العقود الوسطى**» الذي خصصه لترجمته وترجمة والده وأقاربه بعد أن أكد أحواله المتقدمة قال : «فكان ـ رضي الله عنه ـ لا تراه إلا والكتاب بين يديه، وطلبة العلم دائرون به ومحلقون عليه». يحث طلبته على المطالعة ويُنشدهم أبياتا تغريهم بمصاحبة الكتب.

تدل بعض المخطوطات المحفوظة بالخزانة العامة بتطوان والخزانة العلمية الصبيحية بسلا، على أن الشيخ المعطى كان شغوفا بكتب السيرة النبوية ينتسخها أو يقرؤها ويعلّق عليها، مثل كتاب «**الاكتفا بما تضمنه من مغازي الرسول ومغازي الثلاثة الخلفا**» لسليمان الكلاعي البلنسي. كما يدل أسلوبه في «**الذخيرة**»، وبخاصة المقدمات والخواتم، على قدرة فائقة على الإنشاء وفن الترسل، سليم العبارة، متين الحبك، دقيق التعبير، حسن الذوق في اختيار القصائد والمقطعات، وهو لا ينسبها في الغالب لكن يظهر أن بعضها من نَظْمِه لشدة الشبه بينها وبين ما يسبقها أو يلحقها من نثر.

نتساءل بعد هذا عن عنوان الذخيرة ؟ وهل هو كتاب واحد أو كتب عديدة ؟ وما عدد أجزائه ؟ وما هو محتواه ؟ وما مصادره ؟ وما موضعه في الإنتاج المغربي في ميدان السيرة النبوية ؟

باستثناء المرحوم محمد الأخضر في «**الحياة الأدبية في المغرب**» الذي سماه «**ذخيرة الغني والمحتاج في صاحب اللواء والتاج**»، وبعضهم الذي استبدل التذكرة بلفظ الذخيرة، فإن عناوين مخطوطات الكتاب المحفوظة بالخزائن العامة متفق على تسميته «**ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج**»، وكذلك سماه المؤلِّف نفسه في مقدمة الجزءين الأول والأخير، وكاتبه المتلقيه إملاءً محمد العبدوني في «**يتيمة العقود الوسطى**». فلا عبارة إذن بما يخالف هذه التسمية.

وأما ما ادّعاه البعض من احتمال كون مؤلَّف الشيخ المعطى عبارة عن مجموعة كتب مستقلة متعددة بعدد الأجزاء المعروضة، وإنما ينطبق اسم «الذخيرة» على الجزء الأول بينما يبقى لكل جزء من الأجزاء الأخرى ذاتيته وعنوانه الذي يستخرج من ديباجته، فهو أيضا رأي مستبعد بشهادة العبدوني أقرب الناس إلى المؤلِّف والمؤلَّف

حيث نص صراحة في «**يتيمة العقود الوسطى**» على أن «**الذخيرة**» في شكلها الحالي (آنذاك) تتألف من ستين جزءاً. بل وبنص المؤلف نفسه الذي قال في مقدمة الجزء الملحق بـ«**ـالذخيرة**» المعنون بـ«**ـطلب المدد والإمداد**» : «هذا وإني لما فرغت من تأليف كتابنا المسمى بـ«**ـذخيرة المحتاج في مدح صاحب اللواء والتاج**»، ختمت ذلك بـ«**ـطلب المدد والامداد من صاحب اللواء والتاج ورفيع المكانة السامي المرقى والمعراج**».

وتضاربت الأقوال أيضا في عدد أجزاء «**الذخيرة**» ؛ فمن قائل خمسة وأربعون أو خمسون، وقائل سبعون أو مائة. والصواب ما ذكره كاتبها العبدوني في «**اليتيمة**» أن «**الذخيرة**» تقع «في نحو ستين مجلدا، بعضها كبار غاية يقبلون القسمة على سفرين أو ثلاثة، وكان ـ أي المؤلف ـ يقول لي نقسم ذلك إلى أن نبلغ مائة مجلّد في مدحه صلى الله عليه وسلم حتى اخترمته المنية... فترده على تلك الحال الموجودة الآن وهو ستون مجلدا». ولا ندري إن كان جزء «**المدد والامداد**» داخلا في الستين أو زائدا. وهناك صعوبة في ترتيب أجزاء «**الذخيرة**» من الأول إلى الستين أو الواحد والستين، لأن المؤلف وكاتبه المُمْلَى عليه لم يُعنَيَا بمسألة الترقيم، من جهة، ولأن أجزاء «**الذخيرة**» لا توجد كاملة في أية مكتبة عامة أو خاصة فيما نعلم. نعم إن أجزاء «**الذخيرة**» المعروفة اليوم بالمغرب، بعد إضافة الأجزاء المطّلع عليها أخيرا في الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، قد تفوق الستين مجلدا لكن بعضها مكرر، وبعضها مبتور الأول أو الآخر لم يُدْرَسْ بعدُ دراسة مقارنة. ولنا في هذا الصدد اقتراح سنذكره في آخر العرض.

أما عن مضمون «**الذخيرة**» فهو موحَّد ومختلِف في نفس الوقت. فهو موحَّد باعتبار أن الصلاة والسلام على رسول الله سائدة في كل أجزاء الكتاب بصيغ عديدة، معظمها مبتكر من إنشاء المؤلف، وقليل منها مقتبس من آيات أو أحاديث أو مؤلفات مما ذكر في مصادر «**الذخيرة**». ويزيد هذه الوحدة بروزا أن صيغ التصليات تكتب في جميع النسخ بالقلم الغليظ وبلون متميز واضح.

والمضمون مختلف باعتبار أن كل جزء يدور حول موضوع معين من السيرة النبوية، يتناول المؤلف فصوله بأسلوبه الصوفي الوجداني، مسبوكة داخل التصليات التي تتوالى من بداية الجزء إلى نهايته، وأحيانا تكون مسبوقة أو متلوة بأدعية وتوسلات وابتهالات، وقصائد مطولات أو مقطعات.

هذه الموضوعات المختلفة التي تتناولها أجزاء «**الذخيرة**»، من شأنها أن تسهل عملية ترتيب هذه الأجزاء، متى جمعت، ذلك أن المؤلف يذكر أحيانا في ديباجة الجزء مناسبته للجزء الذي سبقه ووجهة تساوقه معه، ولا يصرح بذلك أحيانا وإنما يعثر على ذلك من متابعة قراءة صفحات الكتاب. وهذه عملية صعبة، لأن الإشارات المطلوبة قد تكون في أول الجزء أو وسطه أو آخره. وهناك وسيلة أخرى تساعد على الترتيب، هي التسلسل المنطقي للموضوعات ؛ إذ لاشك مثلا في أن يكون في الطليعة الجزء المتعلق بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مرضعاته وحواضنه وكفلائه، وأبويه وأجداده وقرابته، وأعمامه وعماته، وأخواته من الرضاع وأولاده وأزواجه وسراريه، تتلوه أجزاء أسمائه صلى الله عليه وسلم وصفاته، والذات المحمدية ؛ وأن يُعد في الأجزاء الأخيرة السفر الذي يتحدث عن وفاته عليه السلام، بعده أجزاء صفات الأولياء والصالحين وفضائلهم ومراتبهم.

من الأجزاء المزدوجة التي نص المؤلف على ترتيبها، جزء الإسراء المعنوي، بعده جزء الإسراء الحسي ؛ وجزء الحج، بعده جزء الزيارة ؛ وجزء مناقب الخلفاء الأربعة يتلوه جزء مناقب العشرة المبشرين بالجنة ؛ وجزء تفسير سورة «الشمس وضحاها»، يتلوه جزء أسماء كتب الأعلام الذين ألفوا في الصلاة على النبي عليه السلام. وهذا الجزء خاص بمصادر «**الذخيرة**»، ومنها «**دلائل الخيرات**»، و«**تنبيه الأنام**»، **وكتاب القاضي إسماعيل** المالكي، وأبي بكر **ابن عاصم**، و«**الإعلام بفضل الصلاة عليه أفضل الصلاة والسلام**»، وسيرا مع السياق العام للـ«**ـذخيرة**» فإن هذه الكتب مدمجة ضمن صلوات وتسليمات.

وبالجملة، إن تآليف المغاربة في السيرة النبوية بمختلف أصنافها وعلى امتداد العصور والحقب لدليل على تشبثهم بدينهم الحنيف. كما أن مؤلفاتهم في الصلاة على النبي الكريم والتفنُّن في تمجيده والإشادة بشمائله، وإن شاركهم في ذلك إخوانهم من أرجاء العالم الإسلامي، لتبوئهم منزلة رفيعة في هذا الشأن. ومن المحقق الأكيد أن أي أحد من المؤلفين المسلمين لم يُعرف له كتاب في طول «**ذخيرة المحتاج**» وإحكامه وإمتاعه. ومن حق كتاب بهذه المكانة على الصعيد الإسلامي أن ينال ما يستحق من العناية.

وأقترح على منظمي هذه الندوة العلمية، وعلى الأسرة الشرقاوية المجيدة، وعلى المنتخبين وسائر محبِّي مدينة بجّعد أن يوفِّروا الوسائل المادية والأدبية لتكوين لجنتين :

ـ لجنة تبحث عن أجزاء «**الذخيرة**» كلها وجمعها هنا سواء النسخ الأصلية، أو المصورات عند الحاجة.

ـ ولجنة لقراءة هذه الأجزاء والتعريف بها وترتيبها ليحفظ هذا الأثر النفيس من البتر والتبعثر، وتصبح مدينة بجّعد مقصد الباحثين في هذا الصنف من التأليف، من داخل المغرب وخارجه، فـــ«**الذخيرة**» مفخرة لبجّعد وللمغرب عامة.

مصير زاويتين

محمد مفتاح
كلية الآداب ـ الرباط

سيتناول هذا البحث القضايا التالية : I) علاقة الزاوية الشرقاوية بالزاوية الزعرية، II) توسع الزاوية الشرقاوية وانكماش الزاوية الزعرية، III) علاقة الزاويتين بالزوايا الصحراوية، IV) التوجه الروحاني للفكر المغربي.

I ـ الزاوية الشرقاوية والزاوية الزعرية

1 ـ الدراسات الشرقاوية

تناولت الزاوية الشرقاوية دراسات عديدة تعرضت لمجالها وأشخاصها وسندها وممتلكاتها وإشعاعها وعلائقها بالزوايا وبالمخزن. ولن تكلف هذه المداخلة نفسها ما لا تطيق، فتزعم أنها تقترح مقاربة جديدة تضيف إلى ما سبقها من أبحاث مختلفة المستويات والمقاصد، وإنما ستهدف أساسا إلى تقديم بعض المعلومات حول علاقة الزاوية الشرقاوية بالزاوية الزعرية، وإلى طرح بعض الأسئلة حول مصير الزاويتين : صعود الزاوية الشرقاوية وتدهور الزاوية الزعرية.

أشار بعض الباحثين إلى علاقة الزاوية الشرقاوية بالزاوية الناصرية وبالزاوية الحمدوشية وبالزاوية الفاسية وبالزاوية الدلائية، بل جعل إيكلمان تفكك الزاوية الدلائية على يد المولى رشيد (1664–1672)، وعلى يد المولى إسماعيل، من بين العوامل التي ساعدت على بزوغ نجم الزاوية الشرقاوية. لكن تلك الدراسات، ماعدا استدراكات الأستاذ بوكاري، لم تبرز العلائق المتعددة والمتداخلة التي كانت بين الزاوية الشرقاوية والزاوية الزعرية، في حين أن كثيرا من هذه العلائق تشير إليها بعض المصادر

الصوفية المتداولة بين أيدي الناس، وإن كان الباحث لا يجد فيها تفصيلا مثل التفصيل الذي يجده في بعض مخطوطات الزاوية الزعرية[1].

2 ـ ضروب العلاقة

أ ـ العلاقة بين الزاويتين في المصادر المعروفة :

يمكن تشخيص العلاقة بين الزاويتين من خلال نوعين من المصادر : مصادر معروفة مشتركة ومصادر غير معروفة إلا من قبل بعض المختصين. والمصادر المعروفة هي «**صفوة من النشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**» لمحمد الصغير الإفراني[2]. فقد ترجم لأبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري في الترجمة الخامسة، وترجم لأبي عبد الله سيدي مَحمد الشرقي في الترجمة السادسة عشرة. وهي أيضا «**ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع**» لأبي عبد الله محمد المهدي الفاسي[3]. فقد ترجم لأبي القاسم الزعري الجابري والد سيدي مَحمد الشرقي، وتعرض في الترجمة نفسها لذكر أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري ومخاطبة سيدي مَحمد الشرقي له.

ومن يرجع إلى ما ورد في هذه المصادر المعروفة يجد ضروبا من العلائق بين الزاويتين : منها العلاقة العرقية أو علاقة الانتماء القبلي ؛ أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري وأبو القاسم الزعري الجابري ينتميان معا إلى القبائل العربية، وبالتحديد إلى قبائل «جشَّم» الهلاليَّة. ومن المؤكد أنه كان لهذا الاشتراك في الانتماء تأثيرات مهمة ونتائج مؤكدة في مستويات كثيرة ؛ المستوى القبلي : العربي/البربري ؛ المستوى المخزني : الطاعة/التَّمرُّد ؛ ومن العلائق العلاقة الروحية أو الانتماء الرُّوحي. فقد ذكر صاحب «**الصفوة**» أن أبا عبد الله محمد بن مبارك الزعري شاع له في المغرب صيت عظيم وقصده الناس من الآفاق البعيدة ؛ وهذه الشهرة وهذا الصِّيت العظيم والذكر

(1) انظر : بوكاري أحمد، **الزاوية الشرقاوية : زاوية أبي الجعد**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1985 ـ 1989 ؛ أعفيف محمد (مترجم) : **الإسلام في المغرب**، ديل ايكلمان، الدار البيضاء، دار توبقال، 1992.

(2) محمد بن محمد السوسي المراكشي، **صفوة من النشر، من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر** (**الصفوة**)، المطبعة الحجرية، بفاس، دون تاريخ.

(3) محمد المهدي بن أحمد الفاسي، **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع، وما لهما من الأتباع** (**الممتع**)، المطبعة الحجرية بفاس، 1313/1896.

الخيِّر لم تترك بلديَّه وعصريَّه سيدي مَحمد الشرقي غير مكترث به. فقد ذكر أنه قال أمام الملإ : «اشهدوا علينا أننا من زمان ابن المبارك». فسيدي مَحمد الشرقي كما تؤكد هذه الترجمة أخذ عن ابن المبارك الزعري ؛ وحتى إذا جعلنا هذا القول مبالغة، فإن ما لا يُدْفَعُ هو العلاقة الوثيقة التي كانت بين الرجلين. ولا عجب في هذا، إذ إن صاحب كتاب «**الممتع**» يُحلّي أبا عبد الله محمد بن مبارك الزعري بصفات لا يُحلّى بها إلا المتصوفة المشهورون على صعيد العالم الإسلامي ؛ فقد قال فيه : «كان فياض الحال باهي الخوارق مدَّعى فيه القطبانية»، كما أن صاحب «**مرآة المحاسن**»(4) أكد تلك الأوصاف فأوجزها في قوله : «وكان جليل القدر شهير الذكر».

إن الرجلين كانا متعاصرين ومعاصرين للمنصور الذَّهبي، ولذلك فإن الدولة السعدية أخذت في حسبانها تنفذ الرجلين في مجال اجتماعي حيوي يربط بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، ويكون همزة وصل بين قبائل فازاز البربرية والقبائل العربية الهلالية والقبائل المصمودية. فقد ذكر الإفراني أن أبا عبد الله سيدي مَحمد الشرقي لما ظهر أمره وشاع في الناس ذكره، بعث له السلطان أحمد المنصور وجعله من خواص بطانته ؛ على أن الترجمة لم تذكر شيئا عن موقف المنصور من أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري. غير أن مما يحتمل أن المنصور الذهبي لما بعث وفدا لزيارة سيدي محمد الشرقي واختبار أمره، بعث وفدا للزعري أيضا. وما يهم هنا هو اعتبار الزاويتين منذ المنصور السعدي صارتا مجالين دينيين وفكريين واجتماعيين وسياسيين مهمين.

إن هذه العلائق المتعددة المتجلية في العلائق العرقية والروحية والسياسية والمصيرية نشأت عنها علاقات فكريّة وأدبية عززت تلك العلائق. لهذا، فإننا نجد مراسلات عديدة بين الزاويتين استمرت مدة طويلة. وقد أثبت صاحب كتاب «**الممتع**» بعضها ؛ فمما أورد مخاطبة سيدي محمد الشرقي لأبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري الآتية :

يا الساكن في أرض البوادي — لا تتعـــــدش الموارد
أصحب هداة الطريقـــــا — تحمـــــل لك الفوائـــــد

(4) محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي، **مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ أبي المحاسن** (المرآة)، المطبعة الحجرية بفاس، 1906/1324.

فأجابه بن مبارك الزعري بقوله :

بـالله مـا كـان هـذا إلّا من مـجذوب سالِكْ
يسقي خمرا للرجـال مـملوك من الحق مالك(5)

يظهر من هذه الأبيات أن سيدي محمد الشرقي كان يطارح الزعري في شؤون التصوف وفي غيرها. ففيما يظهر أن الزعري كان يبسط أمور التَّصوف بسطا لا يرضي أصحاب الثقافة العالمة، ويصاحب أناسا ليسوا على شيء من العلم مما يجعله يَتَنزَّل إلى منازلهم ليُيَسِّر ولا يعسّر ويبشر ولا ينفر سالكا مبدأ «خاطبوا الناس على قدر عقولهم». ولعل هاته المقاصد هي التي جعلت الزعري لا يجيب الشرقي إلا بعد أن ألح عليه أصحابه فأجابه فوقعت الإجابة موقعا حسنا من سيدي محمد الشرقي، لأن الجواب يتضمن نكتا صوفية دقيقة وإشارات رقيقة، وهي أن الزعري شيخ مجذوب والمجذوب مملوك من الله رقيق ليس له حرية التصرف، فهو، إذن، قد بلغ مرْتبة عليا في درجات الطريق إلى المعرفة الإلهية، ودرجته تلك جعلته يسلك طريقا خاصة لتربية المريدين وترقيتهم. ولذلك، فكل إنكار لهذه الطريقة فيه إنكار لخصوصية الطريقة الصوفية.

ب ـ العلاقة بين الزاويتين في المصادر الغميسة :

تلك بعض المعطيات حول العلاقة المتنوعة والوثيقة التي كانت بين الزاويتين في الصدر الأول من شيوخهما ؛ وقد استمرت هذه العلائق بين خلف الزاويتين كما تقدِّمها بعض المصادر المخطوطة. فقد كان بين الخلف مراسلات. وأهم هذه المراسلات ما حفظه كتاب «**نزهة الناظر وبهجة الغصن الناضر**»(6) لأحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب بن موسى بن محمد بن مبارك الزعري الدار التّستاوتي الحسني. تنحصر ولادته فيما بين 1042 و1046 ووفاته بين 1127 و1128. وقد تلقى تعليمه في قبيلة زعير ثم أكمله بزاوية الدلاء، وكانت علاقته مع المخزن مضطربة ؛

(5) انظر **الممتع**، ترجمة محمد الشرقي وترجمة الزعري.

(6) جل هذه النصوص مستقاة من عمل الأستاذ عبد اللطيف شهبون الذي أنجزه تحت إشراف المرحوم الأستاذ محمد الكَنوني بعنوان : «**شعر أبي العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتي**» (**1990 ـ 1991**) : فقد ذكر نسخا عديدة لهذا المخطوط ؛ وقد راجعت مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط وعليها اعتمدت، مخطوط رقم 3070.

وسنرجع إلى هذا. أما ما يهمنا الآن فهو أنه رثى سيدي المعطي بن عبد الخالق الشرقي (ت 1092 هـ) بقصيدة يقول فيها :

قل للأحبة من بني الشرقي	الماجد الموسوم بالصدق
لو كان ينفعني اشتياقي إلى	فقد الحبائب متُّ من شوقي
أو كان نثر الدمع يدرأ عن	متشوّقين حرارة الفرق
بادرتكم للحزن أبكي على	فقد الفتى المعطى ومن حقّي
خلّوا الأسى وتهيأوا للقى	ربّ العباد وسيروا بالرِّفق
ولتصبروا فالصبر أشرف ما	نال الفتى من باريءُ الخلق
ولتنبذوا ما كان من شجو	ولتتركوا ما كان من حلق
أنتم نجوم يهتدى بكمُ	لا تعدلوا عن منهج الحقِّ
وعليكم منّي التّحيَّة ما	بزغت دراري الشعر من أفق(7)

أحمد بن عبد القادر يرثي سيدي مَحمد المعطى الذي هو رابع الشخصيات المهمة في الزاوية الشرقاوية، وهو في هذه القصيدة يشير إلى أصلهم وصدق معاملتهم وإلى الصلات التي كانت بينهم ؛ ومع أنهم فقدوا ركنا مكينا، خليق بأن يُبْكَى عليه ويحزن فقد حثهم على تخلية الأسى والتحلية بالعزاء، وعلى نبذ الشجو...

وقد استمرت هذه العلاقة الوثيقة بين حفيد الزاوية الزعرية وبين أحفاد الزاوية الشرقاوية، عكستها رسائل متبادلة في الكتاب المذكور. هكذا يجد القاريءُ رسالة موجهة لأبي التواجد صالح بن المعطى (ت 1723 م)، كما كتب إليه سيدي محمد الصالح الشرقي قصيدة في عشرين بيتاً ؛ مطلعها :

يا فخر أهل المغرب	ومن إليه تقربي(8)

فأجابه التستاوتي :

أدركت كل مأرب	وحزت كل مطلب
وكنت في عز وفي	مجد رفيع الرتب
لا تخشى من سير وسر	للّه سير أدب
وادع إلى اللّه على	بصيرة في الطلب

(7) انظر عمل محمد شهبون، قسم الإخوانيات.

(8) انظر العمل أعلاه.

كما كتب محمد الصالح بن المعطى أيضا أبياتا قال في أولها :

بلغ السيل الزُّبى يا سادتي   وغدا السَّيف على متن الورج

فأجابه أحمد بن عبد القادر :

بلغ الصُّبح وفرَّ اللَّيــل في   خلج يشتد من ذاك البلج
لطفه في قهره حلما سرى   سريان النور في جمر وهج
وانسب الفعل له إن شئت أن   تبرأ الأحشاء من داء سمج
وانتظر فجرا قريبا طالعا   من سماء العفن ياتيك بالفرج

على أنه أحيانا لم يذكر آسما بعينه، ولكنه يذكر تعبيرا عامّاً مبهما ؛ يقول : «ومما أجبت به أولاد الشيخ سيدي محمد الشرقي ما نصه :

أشيء عراك اليوم أم أنت شائق   فمالي أرى الآماق منك سواجما
نعم قد أتاك من أهل ودِّي رسالة   تذكِّرني أمرا قضى متقادمـا
أرادوا من الإفضال إحياء سنة   أميتت وراموا أن يحوزوا مكارما
ولا عجب فاليمن طوع أكفِّهم   لهم همم قد ألبستهم مفاخما

هذه الأبيات الإخوانية يذكر بها أحمد الزعري بما سلف من الود والعلاقة الوثيقة التي كانت بين الزاويتين. ولعل النثر الذي صاحب هذه الأبيات يوضح مغزى المراسلة وأهداف الرسائل التي كانت تتبادل بينهما ؛ يقول : «وبعد، فقد ورد علينا منكم كتاب وأي كتاب، راقت إشارته وفاقت عبارته، وعذب مبناه واستُلِذَّ فحواه. قد أذكرنا، والله، ما كان عليه الصدر الأول، وصرَّح بما يكون في جنابكم عليه المعول (...) وما أشرتم فيه من الاهتمام بأموركم وسرورنا بسروركم، وتأسُّفنا لشروركم مطبوع (...) وقد وقع من البغي والفساد في هذه البلاد ما يوجب الانتقام ويهدم سور التوقير والاحترام...»(9).

يتبين من كل ما تقدم أن العلاقة بين الزاويتين لم تنقطع ولم تنل منها الأحداث التي اعترضت الشيوخ، ولكنها توطدت. هكذا يجد القارئ في سلسلة محمد الصالح بن المعطى شخصيتين من الزاوية الزعرية ؛ إحداهما مؤسس الزاوية الزعرية محمد

(9) انظر الإحالات التي يحيل عليها العمل المذكور.

الزعري، وثانيتهما شخصية مؤلف «**نزهة الناظر**» أحمد بن عبد القادر[10]. وتُتَمِّن هذه العلاقة ويدرك تأثيرها ونتائجها إذا عُلِمَت مكانة سيدي محمد الصالح بن المُعطى ضمن الزاوية الشرقاوية ومكانة أحمد بن عبد القادر في الزاوية الزعرية. وقد بَيَّنَتْ دراسة الأستاذ أحمد بوكاري مكانة الشرقاوي، ورسالة عبد اللطيف شهبون منزلة أحمد بن عبد القادر.

ج ـ من الحالة إلى النسق :

يمكن النظر إلى العلاقة بين الزاويتين بأنها كانت علاقة مؤسسة بمؤسسة فقط ؛ ولكن من يحاول أن يربط بين وقائع العصر يظهر له أنه كانت هناك شبكة من العلائق بين الزوايا المتعددة وبين الشخصيات الفاعلة في الأحداث السياسية والثقافية حينئذ. ويمكن ضرب المثل بشخصية اليوسي التي كانت محورا يستقطب الزاويتين معا. فقد كان يراسل سيدي محمد الصالح وأحمد بن عبد القادر كليهما. ومن يرجع إلى رسائل اليوسي يتأكد من هذه العلاقة الوثيقة بين هؤلاء الرجال[11]. هناك أربع رسائل لليوسي : إثنتان منها لمحمد الصالح بن المعطى، واِثنتان لأحمد بن عبد القادر ؛ وقد كانت رسائله ابتداء أحيانا وإجابة أحيانا أخرى للرجلين... ولكن ما يجب الإلحاح عليه أن الأشخاص الثلاثة المذكورين كانوا قمما شامخة في العلم وفي التقوى وفي الشهرة، وكانت لهم مكانة ملحوظة لدى المخزن حينئذ.

وقد بينت لنا الوثائق أن هناك أكثر من صلة بين أحمد بن عبد القادر وبين اليوسي ؛ ولعل هذه الصلة تتجلى في الرسائل التي كانت توجه إلى المخزن. فرسالة اليوسي معروفة مشهورة، ولكن رسالة أحمد بن عبد القادر غير معروفة وغير مشهورة. فقد كتبها في 8 جمادى الثانية (1095 هـ)، وهي رسالة متقاربة زمنيا مع ما كان يكتبه اليوسي من رسائل سياسية كما أن مضمنها يتماثل مع رسائل اليوسي ؛ ومضمن رسالة التستاوتي هو : رد المظالم وتفقد المساجين والسؤال عن الأسارى وترتيب جيوش المسلمين وإحياء ما اندرس من معالم العلم وتفقد المياه المهروقة وإقامة محتسب عالم في الأسواق وتحديد بناء أسوار المدن وحفظ الثغور واتخاذ أمناء في المراسي وتجنب قضاة السوء وعدول الجور واتخاذ البطانة وأهل المشورة من العلماء المخلصين واتباع

(10) انظر دراسة أحمد بوكاري المذكورة.

(11) انظر : **رسائل أبي علي الحسن اليوسي**، فاطمة القبلي، دار الثقافة ـ البيضاء، 1401هـ/1981 م.

الخلفاء الراشدين في الملبس والمشرب وعدم تضييع أموال المسلمين في الفرش والبسط والجواري وفاخر اللباس (...)[12].

II ـ مآل الزاويتين

يتبين من هذا أن الزاوية الشرقاوية كانت لها علاقة وثيقة مع الزاوية الزعرية ومع مشهوري المثقفين حينئذ ؛ وقد أبرز بعض الدارسين علاقة الزاوية الشرقاوية بزاوية الصومعة وبالزاوية الدلائية والزاوية الناصرية والزاوية الفاسية والزاوية الحمدوشية ؛ ولكن السؤال الذي يطرح هو : لماذا هيمنت الزاوية الشرقاوية على زاوية الصومعة، وغطت على الزاوية الزعرية ؟ بل يمكن القول إنها استولت على ميراث الزاوية المجاورة لها ! قد يلتمس الجواب عن السؤال السابق من جهات متعددة. وسنكتفي بتقديم بعض المعطيات التي ساعدت ـ فيما يظهر ـ الزاوية الشرقاوية على البروز والظهور، وعرقلت مسيرة الزاوية الزعرية مما جعل ذكرها خافتا بالقياس إلى أختها الزاوية الشرقاوية.

1 ـ المكون البشري

تؤكد كثير من المصادر التاريخية القريبة من نشأة الزاويتين أن مؤسسيهما ينتميان إلى القبائل العربية الجشمية الهلالية ؛ فهما من الزوايا العربية التي يمكن أن يقال فيها إنها كانت منافسة للزوايا البربرية : الزاوية الدلائية وزاوية الصومعة، كما أن مجالهما كان يُغَطِّي قسما كبيرا من القبائل العربية الساكنة في الغرب وفي زعير وفي تامسنا، وإن كان يُسْتَشَفُّ من الوثائق أن الزاوية الزعرية كان مجالها أرحب وأوسع مما سيكون له بالغ الضرر على مصير الزاوية. فأحمد بن عبد القادر ولد على ضفاف منابع وادي أم الربيع ثم انتقل أبوه إلى الرَّحبة، وهي موضع قريب من تستاوت ثم إلى تستاوت فصرصر قرب القصر الكبير فكورت فالزاوية الدلائية فزاوية خلفون التي كان بها اليوسي فَعُسَيْلة فتسكرام فقرن مهدي، فسلا ثم شالة فمكناسة. هذا هو المجال الذي كان التستاوتي وأبناؤه يمشون في مناكبه ويأكلون من رزقه، وهو مجال فسيح تسكنه القبائل العربية وبعض قبائل فازاز... وأما الزاوية الشرقاوية فقد كان مجالها الحيوي الأساسي هو القبائل العربية في تادلا وفي الشاوية وقبائلها مثل مزاب بما فيهم

(12) انظر ملخصا لرسالة الزعري في دراسة محمد شهبون : التقديم، ص. 79 ـ 80.

من الأعشاش والخزازرة وأولاد محمد... هذه القبائل التي كانت خادمة للزاوية الشرقاوية، وكانت الزاوية تتشفع فيها لدى السلاطين حينما تقوم بما يغضب المخزن، كما أن الزاوية الشرقاوية كانت لها علاقة بمجال الزعري، والزعري كانت له علاقة بمجال الزاوية الشرقاوية ؛ ويدل على هذا التداخل رسائل بعث بها الزعري إلى بعض أهل تامَسْنَا، وقصيدة ؛ يقول في ديباجتها : «هذه نفثة مصدور وأَنَّةُ مضرور خاطبت بها بعض الإخوان من أهل تامسنا (في) الثالث من شوال سنة ستة أعوام ومئة وألف (1106 هـ).

ما يجب التأكيد عليه هو أن المجال الذي كان فيه نفوذ الزاويتين يشمل أهم السهول المغربية الممتدة من القصر الكبير إلى وادي أم الربيع.. وهو مجال خصب ومعبر ضروري في الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال، وتسكنه قبائل ذات شوكة ومنعة... مِمَّا يحتّم دراسة العلاقة بين الزاويتين لإدراك الأبعاد الاجتماعية والسياسية والفكرية للزاويتين وعلاقاتهما المتشعبة.

2 ـ المكون السياسي

إن أهمية هذا المجال الاجتماعية والاقتصادية تنضاف إليهما أهمية سياسية. وقد أدركت الدولة المركزية هذه الأهمية فتعاملت مع الزاويتين في ضوء ما تتَّخذانه من مواقف دينية ـ سياسية.

أ ـ المخزن والزاوية الزعرية :

وقف المولى اسماعيل من أحمد بن عبد القادر موقفا صارما، فأشخص إليه عدة مرَّات ؛ وقد بدأ امتحان الزعري منذ 1095هـ إلى آخر حياته، وكانت قمة المحنة هي سجنه من 1104هـ إلى 1106هـ بحبس فاس الجديد. وتذكر المصادر عدة أسباب، كما يمكن للمؤرخ أن يَسْتَشِفَّ أسبابا أخرى غير ما ذكرته كتب الطبقات والتواريخ. فقد ذكرت أن سبب السجن هو أن أحمد بن عبد القادر كانت تغلب عليه حالات، فيدَّعي أنه صاحب الوقت أو المهدي أو ما أشبه ذلك ـ وأنه شفع في مئة ألف رجل، وذكروا أنه كان يتبرأ من هذه التهمة ويشفع في نفسه شعرا ونثرا[13] ؛ وقد يزكي هذه التهمة المراسلة التي وقعت بين مؤسسي الزاويتين، إذ يظهر من خلالها

(13) انظر أعلاه : **مرحلة المحنة**، ص. 78 ـ 79.

أن بعض تعاليم الزاوية الزعرية يمكن أن تؤول ضدها ؛ على أن هناك عوامل أخرى لها بالغ الأهمية في نكبة أحمد بن عبد القادر وامتحانه وانعكاس المحنة على مصير الزاوية وعلى مسيرتها ؛ ونعتقد أن من بين هذه العوامل هي رسالته إلى المولى اسماعيل وهي رسالة لا يمكن للمخزن أن يسكت عنها كما لم يسكت قبل عن رسالة اليوسي، لأن المخزن كان يرى أنه أعلم بأمر الأمة المغربية جميعها لا بطائفة معينة. فهو، إذن، نزاع بين من يحرص على الوحدة الوطنية ويحرسها، وبين مثقف مهما بلغ علمه وتقواه فإنه يبقى أسير نظرة مثالية أو ذاتية أوطائفية، كما أن من بين العوامل قرب الزاوية الزعرية من بلاد فازاز وتداخلها معها لأن نكبة الزعري تزامنت مع أحداث وقعت بين المولى اسماعيل وأهل فازاز في التاريخ نفسه(14) ؛ والمجال الجغرافي مُعْدٍ ؛ وغير مستبعد أن تكون هناك مصاهرة بين الزعري وبين بعض قبائل فازاز. فقد كان للرجل نساء وجوار عدة ولد منهن أبناء وبنات كثيرين. من نسائه وجواريه : أم عز ووردية وبنت ابن يوسف وأم هانىء وزهرة ورقية وياقوت ومنصورة ودامية وريحانة وعنيمة وميمونة وفاطمة وياسمين وجوهرة ومباركة... ومن أولاده : العروسي ومحمد الشريف وابراهيم ويونس والغزالي والطيبي والشافعي والياقوت وحليمة وميمونة وفاطمة وريحان وإلياس وجوهرة... ومن غير شك أن علاقة المصاهرة كانت موجودة بين الزعري وبين قبائل فازاز.

إذن من عوامل امتحان الزعري العامل السياسي المتجلي في الرسالة وفي مداخلة قبائل فازاز ثقافة ومصاهرة ومجالا جغرافيا، وكل هذه العوامل جعلت المخزن يضيِّق على الزاوية حتى فقدت كثيرا من إشعاعها وأهميتها فتفرق أنصاره ومريدوه ومالوا لأعدائه. وقد صور هذا الوضع في قصيدة لامية ؛ يقول فيها :

وظنوا بأن الوصل لاحت بروقه ... ولم يتأنـوا في ادِّعـاء المنـــازل

ويقول في قصيدة موجهة لأهل تامسنا مؤرخة بسنة 1106هـ.

ولما جرى ما قد جرى بيننـا ... وبين سلطاننا أعرضتم كالثعالب

ويقول في أخرى :

أنـــاشدكم بالله يا علماءنـــا ... ويا صلحاء الوقت في كل بلدة

(14) لاستشفاف هذه العلاقة، يراجع **الاستقصا**، وخصوصا ما تعلق بمحاربة المولى إسماعيل لقبائل فازاز.

ألا هل سمعتم ما يصحح قول من يظن بنا شرا ونقصا كإخوة[15]

ب ـ المخزن والزاوية الشرقاوية :

ذلك مصير الزاوية الزعرية التي كانت ضحية لموقعها ولمواقفها السياسية والدينية ؛ وأما الزاوية الشرقاوية فقد كان موقعها أحسن حالا من موقع الزاوية الزعرية وكان شيوخها معتدلين عقيدة وسياسية فلم يسلكوا سبيل اليوسي ولا سبيل معاصره الزعري، ولم يثبت أن أحدهم ادعى المهدوية والشفاعة أو العلم بالغيب أو وضع نفسه موضع المخزن. وموقع الزاوية الشرقاوية ومواقفها السياسية وتعاليمها الدينية جعلت منها وريثة لزوايا عديدة مثل زاوية الصومعة والزاوية الدلائية والزاوية الزعرية التي لم يبق لها إلا أضواء خافتة في مكناس وسلا وزعير.

يتبين من هذا أن علاقة الزاوية الشرقاوية بزوايا عصرها وعلاقاتها بشخصيات دينية وعلمية معروفة يحتاج إلى مزيد من البحث حتى يمكن إدراك سر استمرار الزاوية الشرقاوية قرونا طويلة بعكس زوايا أخرى معاصرة لها ؛ على أن اتساع مجال إشعاع الزاوية الشرقاوية إذا كانت له جوانب إيجابية فقد تكون له جوانب سلبية. فقد يسهم مريدو الزاوية في شد عضدها أو في فتِّ عضدها حين يخالفهم التوفيق. ولعل أوضح الأمثلة التي يمكن أن تقدم في هذا الشأن هو قضية الوزير ابن زاكور مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله. فقد كان لابن زاكور علاقة وثيقة مع مؤلف «**ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتّاج**»، محمد المعطي بن صالح (1180هـ/1766م). فقد كان ابن زاكور واليا على تطوان ونكب (1179هـ)، ونفي شيخ الزاوية الشرقاوية إلى مراكش...[16].

فهل هذا الموقف المخزني الذي يحسمه سيدي محمد بن عبد الله خاص بالزاوية الشرقاوية لأسباب سياسية أم أن هذا الموقف عام يشمل كل زوايا المغرب ؟ إن الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى دراسة شاملة حتى ينظر إلى هذا الحدث في نسقيته، مما يؤدي إلى تقديم تأويل مقبول ولا ينظر إليه منعزلا..

---

(15) انظر عمل محمد شهبون للاطلاع على المقطوعات والقصائد.

(16) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**،دار الكتاب بالدار البيضاء 1954 (ج 8، ص 59).

ما نريد أن ننبه إليه هو أن الدراسات المتعلقة بالزاوية الشرقاوية وبعلائقها بالزوايا الأخرى تكون أهم وأفيد إذا نظر إليها في شبكة من العلاقات : العلائق بين الزوايا وهيئات المريدين والمجال الجغرافي والبشري وموقف السلطة وتوجهاتها السياسية والدينية.

III ـ علائق زوايا الشمال بزوايا الجنوب

هذه علائق من البحث يجب تعميق البحث فيها ؛ وهناك علاقة أخرى هامة جدا، وهي علائق زوايا الشمال بزوايا الصحراء المغربية. إن الذي لا يحتاج إلى إثبات هو العلاقة الوطيدة التي كانت بين زوايا الشمال والزاوية الناصرية، ولكن الذي يحتاج إلى إيضاح هو علائق أخرى. وسنسوق أمثلة ليقام بتحريات في ضوئها. إن الشاعر عبد الله بن محمد الشنقيطي المعروف بآبن رازكَة (1060 ـ 1114)[17] اتصل بالمولى اسماعيل عن طريق ابنه محمد المعروف بالعالم الذي كان واليا على سوس. والشاعر ابن رازكَة له مراسلات مع أحمد بن عبد القادر التستاوتي الزعري ؛ وهذا الشاعر كانت له علاقات متشعبة مع وجهاء الصحراء وصوفييها ؛ والمثال الثاني هو زاوية سيدي العربي العروسي الكائنة بناحية سطات وكانت زاوية شرقاوية ؛ وقد ذكر لي أحد الثقات أن هذه الزاوية لها مراسلات مع زاوية تاجاكانت بالصحراء[18]... ويتبيَّن من هذا وحدةُ الثقافة المغربية الضاربة في أعماق التاريخ...

IV ـ الثقافة المغربية والغنوصية

يمكن تثمين الأدوار السياسية والثقافية والاجتماعية التي كانت تقوم بها هذه المؤسسات. ويمكن اقتراح تحقيب جديد لثقافة الزوايا بحسب هيمنة اتجاه على ما سواه. وعلى هذا يمكن الزعم أنه منذ نشأة الزاوية الشرقاوية اتجه شيوخ الزوايا ومريدوهم إلى الأمداح النبوية والتوسلات بالأنبياء وبالأولياء ؛ وتغلبت هذه الوجهة على الأمداح السلطانية والدنيوية. والسؤال الذي يطرح هو ما تأثير هذه الوجهة في تقوية الزوايا أو في إضعافها. فكيف نظرت السلطة المركزية إلى كتاب «**الذخيرة**»، وإلى

---

(17) انظر ديوان ابن رازكَة، شرح وتحقيق ودراسة محمد المختار ابن أباه، الدار البيضاء، 1986 م.

(18) الثقة هو الأستاذ أحمد السطاتي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب، الرباط.

كتب ابن زاكور في الأمداح النبوية والتوسلات ؟ ألم تر السلطة المركزية في هذه الوجهة حيفا في حقها ؟ ألا يؤدِّي بها هذا «الانحراف» إلى امتحان المادحين والمتوسلين حتى يرجعوا إلى امتداح الأحياء ؟

حصيلة

حصيلة ما تقدم : أن العوامل الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية كانت سببا في نشأة الزوايا وفي ازدهارها، وأن تلك العوامل هي السبب في تدهورها وانكماشها؛ وأنَّ مصير الزوايا التي ناوأتها السلطة المركزية ليس مصير الزوايا التي رضيت عنها السلطة وشجعتها.

نحو تهيئ متحف تراثي بأبي الجعد

أحمد التوفيق
معهد الدراسات الإفريقية

من أجل التغلب على التشنجات ونوازع الرفض الناجمة عن التفاوت بين الأجيال، لابد من البحث عن أسلوب يجدد التوازن الثقافي المساير للعصر والمستمد في الوقت نفسه من معطيات الرصيد الثقافي للبلد بصفة عامة ولكل منطقة على حدة، وذلك بتوفير التوافق ـ عن طريق العمل الثقافي ـ بين الماضي والحاضر وطموح المستقبل. هذا هو منطلقي في هذا الحديث، وأظن أنه منطلق له ما يبرره.

1 ـ الفئات المجتمعية في أبي الجعد وثقافاتها

منذ قرن وعشر سنوات، أي منذ يوم 16 شتنبر 1883، مرّ من أبي الجعد الراهب الباحث الشهير شارل دوفوكو الذي قام بجولة في المغرب قيدها في كتاب عنوانه : «**التعرُّف على المغرب**» (Reconnaissance au Maroc)، وهو كتاب أعيد طبعه مؤخراً.

وفي الصفحات التي خصصها دوفوكو لأبي الجعد تحدث عن صاحب المدينة، وهو شيخ الزاوية الشرقاوية سيدي ابن داود. وتحدث عن السكان وقال إن عددهم كان يبلغ حوالي 1700 نسمة وتحدث عن الطائفة اليهودية وقال إن هذه الطائفة تبلغ من هؤلاء السكان 200 نسمة. وتحدث عن علاقة الزاوية بسكان المناطق المجاورة، سكان منطقة نفوذ الزاوية، أي الفلاحين. وذكر على سبيل المثال أن هؤلاء الفلاحين يقومون برفد الزاوية بكل ما تحتاج إليه : ففي السنة التي مرّ فيها بأبي الجعد، حمل الفلاحون إلى الزاوية أحمالا من الزرع تبلغ مائتي حمل، بينما حملوا إليها في السنة التي قبلها ـ وكانت أخصب على ما يبدو ـ أربعمائة حمل.

وذكر دوفوكو قبيلة أبي الجعد والقبائل المجاورة، وقال إن كل واحدة منها تجهز على الأقل ثلاثة آلاف فارس، وذكر شيخ الزاوية ووصفه بالذكاء وعدم التزمت ؛ ومع أنه كان طاعنا في السن، فقد ظل يحتفظ بكامل قواه العقلية وإشراقته على الناس الذين يتهافتون عليه طلبا لبركته.

إذا نحن تأملنا هذه الأخبار، بقطع النظر عن تفاصيلها، وقرأناها على أساس ما أبدعه الفكر الإثنولوجي المعاصر من اختزالات وتركيبات نظرية في سبيل البحث عن مكونات المجتمعات البشرية، وجدنا مكونات هذ المجتمع البجعدي تلتقي مع هذا الفكر الإثنولوجي في تصنيفه لفئات المجتمعات، في عهود ما قبل الرأسمالية، إلى ثلاثة مكونات، هي الفئات المجتمعية الثلاث: 1. فئة القائمين بشؤون الدين ؛ 2. فئة القائمين بشؤون الحرب ؛ 3. فئة القائمين بإنتاج القوت. وهي فئات أساسية في مجتمعات ما قبل الرأسمالية وتكون المجتمعات البشرية كلها على وجه التقريب بعد مجتمعات الصيادين والمتعيشين بالالتقاط.

هذه الفئات الثلاث تتصل بها في الحقيقة ثلاثة أنواع ثقافية : فالقائمون بشؤون الدين ترتبط بهم الثقافة العالمة، ثقافة المكتوب المقيد في الغالب، وإن كان لبعض الشرقاويين مثلا إنتاجات ثقافية لا تمت لهذه الثقافة العالمة بصلة مباشرة. والفئة القائمة على الحرب ترتبط بثقافة أخرى تكون في أغلب الأحيان شفوية وتنتج أمثولات الحرب والأساطير والبطولات والصياغات المتعددة لهذه البطولات. أما الفئة الثالثة، وهي فئة أصحاب الإنتاج الذين يشتغلون بالأيدي من أصحاب الحرث والصناعات والحرف، فترتبط بها ثقافة تنتج باليد بالإضافة إلى الثقافة الشفوية.

فثقافة الفئة الأولى تنتج غالباً بالقول وبالفكر وتقيد بالأقلام؛ وثقافة الفئة الثانية هي ثقافة العلاقات بين الفئات وما ينتج عنها من تصورات وسلوكات؛ بينما ثقافة الفئة الثالث، ثقافة المنتجين الفلاحيين والصناعيين، هي ثقافة لها في الغالب مظاهرها الشفوية التي تتجلى فيها، ولها جميع الأجناس التي تترتب عنها وتنتحلها، ولكن لها جانبا آخر هو إنتاج المواد ولا سيما على يد فئات الصناع الذين ينتجون مهارات وينتجون أشياء تعجب الخيال وتُثيره وتُشترى في مرحلة ما، على أساس أنها أشياء ثقافية.

إذن، فالمحراب أو الكتاب والسيف والمنجل هي رموز هذه الثقافات الثلاث. ثقافة عالمة وثقافة فنية وثقافة تؤثر في الوجدان والخيال.

2 ـ الاهتمام بالتحف الفنية على الصعيدين العالمي والمغربي، تاريخه ودوافعه

لقد أنتجت ثقافة اليد عددا من الابتكارات كانت لها قيمة تتعدى وظيفتها الاجتماعية أو العلمية، وتسمى القيمة الفنية، وهذا ما أثار عند الإنسان غريزة قديمة قدم الحضارات، وهي غريزة جمع التحف (الفنية) لفنيتها، وإن كانت في الأصل عملت لأشياء أخرى أو صنعت عليها نماذج مماثلة خصصت لتكون مظاهر فنية لهذا الإنتاج، وبالتالي فإن الجمَّاعين أو ذوي الغريزة التجميعيَّة نشأوا في الحضارات الأولى، وخير من يمثلهم أصحاب وسائل الاقتناء من الملوك والأمراء المثرين الذين كانوا يجمعون إنتاجات هذه الثقافة اليدوية ليتخذوها تحفا وصفها كتاب ليسوا من النخبة ولا من علية القوم. وعن طريق هؤلاء الكتاب وأوصافهم، آستطاع معظم الناس أن يتمتعوا بها ويقدروها ويثمنوها.

لكن التطور الذي حدث في أوروبا منذ القرن السادس عشر جعل بعض الأمراء والمثرين يتيحون الفرصة لعامة الناس بأن يشاهدوا ما جمعوه من تحف فنية ويتملوا بها ويتمتعوا بجمالها ويقدروا مالكيها من خلال تقدير الأذواق التي سهرت على جمعها. ومن ثم يمكن القول إن فكرة المتاحف قد بنيت على انتقال الملكية الخاصة إلى التنظيم الجماعي أو المتعة الجماعية، منذ عدة قرون. ومعلوم أن لهذه التحف الفنية التي يمتكلها الخاصة أثراً باهراً لا يخلو من جانب سلطوي. ومما يذكر بهذا الجانب ما قرأته في مذكرات شخص من أهل قبيلة غجدامة كان مصاحباً للقائد المدني الكَلاوي عندما كان مع الجيش الفرنسي يساعد في «تهدئة» ـ أي غزو ـ قبائل أيت امحمد وأزيلال، إذ ذكر أنه بعد المعارك الضارية التي شنها الفرنسيون على هذه المنطقة ترك هؤلاء للقائد الكَلاوي أن يتولى تسيير الشؤون العادية وإرساء الطاعة المخزنية تحت الاستعمار. وذكر صاحب هذه المذكرات أن مما لاحظه أن أعيان القبائل المستسلمة ترددوا، بعد معارك ضارية مع الفرنسيين، في القدوم على الكَلاوي؛ ومع ذلك جاء بعضهم، فكان الكَلاوي يتقصد أن يبهرهم بأن يقدم لهم الشاي في صينيات من المعدن والفضة وفي أوانٍ رفيعة من الذهب، وكان هؤلاء الجبليون ينبهرون تماما أمام هذه الأواني، يشربون فيها الشاي ويتناولون قطع الكعك المسماة بالقريشلات، إلخ. قال : «جاء خمسة في المرة الأولى، وفي الغد حكوا ما رأوا للآخرين وجاء عشرات بعد ذلك، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت القبائل كلها قد جاءت». طبعا هناك

عوامل أخرى لهذا الانقياد، إنما هذه الملاحظة الخاصة قد وردت ـ بوعي أو بلا وعي ـ لتؤكد ما هو معروف في أوساط أخرى من أن علية القوم يبهرون مَنْ دونهم بوسائل ثقافية من هذا القبيل.

وأرجع إلى القول إن هذه التحف الأثرية صارت بعد الثورة الفرنسية على الخصوص موضع اهتمام العامة في أوروبا، وبمعنى آخر إنها اقترنت بميلاد ما يسمى الجمهور أو الفئة العامة، فكان الجمهور يكتشفها ويتذوق جمالها ويستمتع بها ويكتشف من خلالها بالتدريج تطور الحضارة المادية عبر عقود من الزمن. ومن ذلك الاهتمام تكونت نظرة عالمية عن تطور الثقافة المادية التي تغيرت مفاهيمها جيلا بعد جيل.

3 ـ المتحف الأثري والمتحف الإثنوغرافي

تُصَنَّفُ المتاحف في وقتنا الحاضر إلى متاحف أثرية ومتاحف إثنوغرافية. فأما **المتاحف الأثرية**، فعادة ما تكون فيها الأشياء التاريخية التي عثر عليها بعد تنقيبات أثرية، معبِّرَةً عن حياة الناس عامة. ولما كانت التنقيبات الأثرية تتم عادة في المدن الملوكية، مدن السلاطين والقصور والمعابد وما إليها من الآثار التي لها دلالات حضارية في التاريخ الرسمي المعهود، أكثر مما تتم في غيرها، فإن هذه الوجائد تنتمي إلى مرحلة خاصة من الحياة التاريخية. وهكذا فكل ما يتخلف عن الناس في التاريخ ويوجد بعد تنقيبات أثرية يشكل متحفا أثريا بالمعنى الأثري المحض.

أما **المتاحف الإثنوغرافية**، فتُعْنَى بمواد تنتمي إلى ثقافة خصوصية قوامها استعادة مختلف مظاهر حياة كل جنس بشري على حدة (باعتبار أن هنالك نوعا من الانفجار في التنوع الحضاري عبر القارات). فالمتحف الإثنوغرافي ليس من الضروري أن يتكون من الوجائد الأثرية التي أسفرت عنها التنقيبات، إذ يمكن أن تجمع فيه الأشياء المتخلفة عن الناس، وربما تُعاد إليها الحياة وتُنْشأ منها مجموعات تمثل حياة الفلاحين أو الرعاة أو البدو أو الحدادين أو الصيادين، الخ.، لربط الماضي بالحاضر وملء الثغرات الموجودة بين الأجيال والأفكار لأن التاريخ شيء يغيب عنَّا، ولا يستعاد إلا بالآثار التي تغني الخيال والذاكرة.

4 ـ أهمية التحف

أ ـ لاستعادةِ الماضي :

ولهذه الأشياء المحسوسة قدرة عظيمة على مساعدتنا في استعادة التاريخ. فالتاريخ في الثقافة العالمة يستعاد بقراءة المكتوب، والمكتوب خطاب مصنوع نمر خلاله بصعوبة عبر حواجز متعددة، لكي نتصور الماضي أو نتخيله. أما الوجائد المصنوعة باليد، فهي شهادة مباشرة بيننا وبين الماضي وقاعدة أكثر صلابة لتخيل هذا الماضي عند الراشدين وخصوصا عند الأطفال.

فهناك إذن فرق بين استعادة الماضي وتخيل التراث وربط العلاقة بيننا وبين الماضي عن طريق الثقافة العالمة التي تعاني من مشاكل سببها النص بنقائصه التي لا حصر لها، وبين استعادتنا هذا الماضي عن طريق المتروكات والمخلفات الأثرية المادية. وهذا الفرق في الحقيقة نابع من تحول في النظر إلى الإنسان بصفة عامة : من إنسان النخبة إلى إنسان الجماعة إلى إنسان الجمهور إلى العلاقات بين الناس. وقد بدأ هذا التحول في فكر الأنوار في أوروبا. لذلك يرتبط فكر الأنوار بالموسوعة التي هي وصف للأشياء المادية العادية في حياة الناس. فهناك ارتباط بين هذا الانقلاب في مفهوم الثقافة والانقلاب في مفهوم التاريخ وبين إعلاء قيمة الأشياء المصنوعة يدويا إلى درجة تقترب من التصور القديم للثقافة، ثقافة الكلام أو ثقافة المكتوب.

ب ـ لحفظ الجانب الاجتماعي والرمزي :

المتحف الإثنوغرافي والمتحف الأثري يعتمدان ـ كما قلنا ـ على الشواهد المادية. ومن هذا المنطلق، يمكن أن نتناول في سياق كسياق أبي الجعد البنية الاجتماعية، لإنشاء متحف أثري ندرج فيه ما يشهد على حياة القبيلة وكيف كانت معيشتها، ما يشهد على السكان وكم كان عددهم وكيف كان هؤلاء السكان وماذا كانت أجناسهم، وما يشهد على الاختلاف بين الطبقات. فعندما تجد أشياء عن المطبخ، يكون من السهل أن تلاحظ هل كانت تنتمي إلى أسرة موسرة أم إلى أسرة عادية من أسر الفلاحين. كما يُمْكِنُ مَوَادَّ المتحف أن تتناول الحياةَ الداخليةَ وشواهدَها من العوائد المنزلية والأواني والملابس وأدوات التزيين والحلي والتمائم والعادات المتعلقة بالحياة الاقتصادية وأدوات الفلاحة وتقسيم الحقول وأيام الفلاحة ومواسمها. فالتويزة مثلا هي التعاون بين الفلاحين، وبعبارة أخرى إنها نوع من التضامن

الاجتماعي في ممارسة الأعمال الفلاحية، ولكن لها رموزها التي يعرف منها الفلاحون الأطباق والحبق وغير ذلك. فهذه كلها أشياء مادية يمكن الإثنوغرافيين والمؤرخين أن يعيدوا تشكيلها لتكون شواهد مادية على تنظيم اجتماعي ما.

ويمكن أن نتوصل إلى استعادة عدد من مظاهر الحياة الاجتماعية وتصورها حتى ولو كانت مجردة ـ كالتنظيمات ـ، وذلك عن طريق الأشياء المادية الشاهدة عليها. ومن الشواهد المادية الأخرى على الحياة الفلاحية مخازن الحبوب والمطامير وتربية الماشية وعلامات تملكها والأسواق وأعياد الفلاحين والأعياد الدينية ثم المساجد وتأطيرها وآليات التعليم والمزارات والزوايا، إلخ.

ويُمكِنُ المتحفَ الإثنوغرافيّ أن يعيد لجماعة ما خصائصها ومقوماتها من خلال هذه الـمخلَّفات المادية. ذلك بأن العناية بهذا الجانب من الثقافة يمكّننا، ولو بطريقة مختزلة، من تدارك ماض يتهدده خطر الاندثار.

فالأوروبيون نقلوا هذه الحياة بعدما اندثرت، نقلوا جزءا منها في المتاحف وما يزالون يزيدون في إغناء هذه المتاحف. ولذلك نلمس نزوعاً إلى تنويع في المتاحف حتى إنهم في أوروبا تركوا قرى بكاملها على شكل متاحف، وكتبوا في ذلك كتباً مثيرة تدل عناوينها على هذا الخطر الذي يهدد اختفاء جوانب من الحياة المادية الشاهدة على الماضي القريب.

ج ـ لحفظ الجانب المعجمي :

إذا اختبرنا الجيل الحالي، ولو اختبارا بسيطا، استطعنا بسهولة أن نعرف مدى اندثار هذه الثقافة من خلال اندثار أسماء الأشياء. فمن حسن حظ المغرب أن مجتمع ما بعد الاستقلال حاول ـ في ظروف نعرفها جميعا أو يعرفها على الأقل الذين كانوا شهودا عليها ـ أن يحافظ فيه على الازدواجية في عدد من أنماط الحياة، كالملابس، حفاظا على الهوية. ولولا هذه الازدواجية في الملابس والأثاث المنزلي والعادات، لاندثرت كما اندثرت بكيفية أعمق في الدول المجاورة التي تشبه ثقافتها ثقافتنا.

فمن الملابس الشعبية التي يعرفها جميع المغاربة التشامير والقفطان. لكن عندما نصل إلى الكَرزية والمضمة والفرجية والحايك والشد والرزة، لا أظن أن الكثيرين

يعرفون الفرق بين الشد والرزة والمجدول وأنواعه، والفرق بين السلهام والهدون. ولا أدري إن كان هناك من هذا الجيل الناشئ من يفرق بين الإزار والشقة، وبين الدفينة والتحتية، وبين الحزام والحمالة، وبين السبنية والقطيب، وبين الشربيل والمشاية، إلخ.

وفي ميدان الحلي هناك تلاش مماثل للقاموس، مثلاً : الخاتم والدواح، إلخ. إن اختفاء هذه المصطلحات اختفاء للأشياء، اختفاء لحياة بكاملها، مرتبطة بها، بمعنى أن الأدبيات المختلفة التي يحملها التراث ستصبح ألغازا ونخسر خسارة أخرى على مستوى الوثائق والمعجم والمراجع الفنية في ثقافتنا. ومثل هذا يمكن أن يقال عن الحلي وما يتصل بها من الجواهر وأسماء مثل الخرصة والكتفية والنبايل والفكرون والخميسة واللوح والدواح إلى غير ذلك... ثم الوشم الذي كان سائدا في هذه المنطقة : فمن يا ترى يدرك من شبابنا الفرق بين المركب والغمزة والسيالة والعجالة، إلخ.

وفي ميدان الأدوات الفلاحية، قد نجد أن المحراث معروف، ولكن أنواع المحراث الذي يتعمق الأرض شقّاً ويمرر لإعادة الحرث والسكة والكتمية والتمون، إلخ، تكاد تكون غير معروفة.

هذه الحضارة عندنا في طريق الانقراض ولا سيما بعد المكننة، وبعد التغيرات التي نعتمدها ونشكر الله عليها، ولكن ضياع عناصر من التراث الحضاري يشكل ـ مع ذلك ـ هوة بيننا وبين بعض معطيات تاريخنا الحقيقي، وبالتالي سيترتب عليه نقص في بناء ثقافة متوازنة مغربية بين الثقافات العالمية إذا ما بقيت الثقافة المقيدة وحدها في الكتب علما بأن هذه كان لها ما يرفدها من هذا الجانب المادي الذي لا تفهم دون الرجوع إليه. وفي ضياع الشواهد خطر يهدد بالتمزق في التصور الثقافي للتراث.

د ـ لحفظ الجانب الإيقاعي :

ومما يمكن الاستشهاد به في قضية هذه الثقافة التي أخذت ملامحها تضيع منا، ما نشعر به ونحن نقرأ تلك الإنتاجات الأدبية الشعرية الروحانية لأهل الزاوية الشرقاوية مثلا: فإننا نستطيع أن نقرأها، ولكننا نتساءل كيف كانت تلك الأصوات التي تنشد بها الأمداح؟ فالأوروبيون الآن يعرفون أن اللغة اللاتينية أصل من الأصول الكبرى للغات الأوروبية ولكن ضاعت بعض الأصوات اللاتينية إلى غير رجعة. كذلك عندما أسمع وأقرأ أن سيدي محمد صالح الشرقاوي كان يقول : «اللي يبغي

يتعنى ويكون منا يتبع طريق السنة»، فلا شك في أن بعض الفقراء والأتباع ما زالوا يحفظون النغمة التي تنشد بها الأمداح، ولكن بعد عشرين سنة من الآن لا أحد يضمن بقاء أنغام من هذا القبيل معروفةً ما لم تسجل.

فالصوت واللحن جزء من الإنتاج له فنيته، والدليل على ذلك أننا نسمع بعض المادحين الآن ينشدون قصيدة ابن الوردي مثلاً أو أشعار صوفي إيراني، وينشدونها على إيقاع لا علاقة له بروح القصيدة. ولا علاج لهذه المسألة بالاجتهاد، لأن مسألة العلاقة بين اللحن أو الإيقاع ومضمون الشعر الروحي مسألة كيمياء تشبه ما نلمسه في الفن المعماري الديني المتناسق.

وبتوافر وسائل التسجيل اليوم، يمكن إنقاذ ما بقي محفوظا من هذه الأصوات الإنشادية التي تتفرد منطقة بجعد ببعضها، ويكون ذلك من المكاسب والمحفوظات التي يمكن أن نبحث فيها ونعجب بفنيتها كما نعجب بمثل هذا الصوت الشرقاوي البجعدي:

الله الله يا لطيف ✻ الحب يهز الرجال ✻ والله ماني خفيف

فسياق هذا القول معروف، ولكن اللحن هو ما قد نشتاق إلى سماعه.

وصوت آخر :

إذا اشتاقت للأرواح ✻ سلمك نفسك نبغيك ✻ تربح ما علينا جناح

ثم إن شطح هذا الرجل شطح اختفى تماما أو على وشك الاختفاء، إنه ليس كشطحنا ولا كشطح الشيخات طبعا، بل هو شطح آخر، وهو مما يمكن استدراكه.

5 ـ فوائد المتحف

أما فوائد المتحف، فلا تحتاج إلى بيان. فهي أولا فوائد علمية، لأنها ـ كما قلنا ـ إغناء للتاريخ المحسوس؛ وهي ثانيا فوائد تربوية سواء للتلاميذ الذين ينبغي أن نعيد تربيتهم على الجزئيات، لأن التربية القائمة على فحص الجزئيات لا يمكن أن تدرك إلا بالتعمق في ملاحظة الماديات. وتزداد أهمية هذا الجانب إذا أدركنا أن المنهج الذي نتعلم به ونكرسه للتلقين هو منهج الفكر المجرد إلى حد ما، وبالتالي فإن بينه وبين الفكر الراقي الحديث هوة سحيقة تمس إمكانية إغناء اللغة والإحساس والخيال والقدرة

على التعامل مع الواقع. ولا يمكن إعادة ترميم هذا المنهج إلا عن طريق الاعتماد على الأشياء المحسوسة والانتباه إلى دقائقها، أي العناية بالجزئيات في تربية الأطفال. والأشياء المحسوسة التراثية من الأمور التي تعين على هذا التصحيح.

وللمتحف فائدة ثالثة فنية لا جدال فيها، إذ نستطيع عن طريقه أن نكتشف في أشيائنا المادية روح المنتجين من عمال وصناع وفلاحين، هذه الروح ينبغي الاجتهاد في تمثلها وإعادة بنائها من جديد واكتشاف جوانبها الفنية في هذه المأثورات.

وللمتحف فائدة رابعة وهي فائدة اجتماعية تتمثل في التربية على عدم احتقار الصناع ولو كانوا من الأمِّيِّين، وهذا ما سيزيل من ذهن الناشئة التصورات السلبية السائدة. وفي هذا الصدد، أذكر أننا كنا مع وزير الثقافة في بني ملال منذ أسبوعين، وذلك بمناسبة نشاط ثقافي هناك؛ وعلى هامش ذلك النشاط عرضت سيدة من المنطقة ما يمكن أن نسميه بالفن التلقائي من إبداعها؛ وكلما وقف شخص أمام هذا المعرض متأملا متعجبا، بادرت هذه السيدة بالاعتذار قائلة : «أسيدي أنا مقارياش»! فهي تثير إعجاب الناس وتجذبهم، لأنها ثقافيا تنتمي إلى مجتمع له مفهوم خاص للثقافة ينمي مدركات وكفاءات أخرى قائمة على الرصيد التراثي عند عموم الناس. الفائدة الاجتماعية للمتحف إذن هي عدم احتقار الصناع وعدم احتقار الماضي ثم التغلب على الحواجز الإيديولوجية التي تكرس سيادة نوع من الثقافة.

وللمتحف فائدة ثقافية أخرى هي إبراز الخصوصية المحلية، التي لابد من أن تكون خصوصية في إطار الوطن وتنوعا في إطار الوحدة، تتدرب على ممارستها الأجيال بشكل ديمقراطي في عين المكان. وعلى سبيل المثال، فمنطقة أبي الجعد تنتمي إلى محيط أوسع يمتد حتى الشاوية وبني ملال. وهذه المنطقة الخاصة تحتوي على عدد من المكونات، إذ أن سكان أبي الجعد ينتمون إلى تشكيلة ثقافية ينبغي إعادة اكتشافها في تفاصيلها الأدبية، وبالتالي فإن أي متحف إثنوغرافي ينبغي أن يتضمن تمثيلية لهذه المكونات بأجمعها وألا يكون مقتصرا على واحدة منها.

6 ـ أهمية إنشاء متحف في أبي الجعد

بناء على ما سردناه، يمكن القول إن مشروع متحف بأبي الجعد، بالرغم من ضعف الإمكانيات والتجهيزات في ميادين أخرى وبالرغم من الحاجة إلى أشياء لها أسبقيتها، هو مشروع قابل للإنجاز لأننا نريد أن تكون لنا متاحف. فالمتاحف

الموجودة في المغرب لا تتعدى ثلاثة عشر نصفها أنشئ في عهد الاستعمار وستة في عهد الاستقلال، وهي متاحف أثرية ومتاحف إثنوغرافية.

ولو قسنا هذه الحصيلة الهزيلة بما عند بعض الدول التي نمت هذا الجانب من التجهيز الثقافي، لتوجب ـ حسب عدد سكان المغرب ـ أن يكون لنا 1000 متحف.

ويمكن مَتْحَفَ أبي الجعد الأثري الإثنولوجي أن يكون تجربة رائدة، وقد قيل لي في وزارة الثقافة إن متحفا كان موجودا بأبي الجعد فاندثر وأُغْلِقَ. وربما كان ذلك في عهد الاستعمار، إذ ليست في وزارة الثقافة جذاذة كاملة عنه ولا يعرف ما كان يحتوي عليه. وعلى كل حال، فالذين أنشأوه كانوا واعين بأن للمنطقة ذخيرة مادية يمكن أن تبرزها في صورة رأسمال متحفي، وهذا المتحف يمكن أن ينشأ في البداية حتى في مدرسة أو في مقر نادي الشبيبة والرياضة أو في دار خاصة أو في ما سواها. المهم بالدرجة الأولى، وحتى لا نصطدم بالعراقيل المادية، هو تكوين الفكر المهتم بالآثار الثقافية وإدخال هذا البعد الثقافي المتصل بجمع الآثار الثقافية عند الناشئة على الخصوص. وإذا فكرنا في هذه الأمور اليوم، فليس ذلك صدفة أو آبتكارا، وإنما هو نابع من لحظة ثقافية يتحتم فيها أن تقفز ثقافتنا من نوع واحد إلى أنواع متعددة وغنية، وأن تنقذ أشياء في طور الضياع. فثقافة المتحف جزء من المعرفة الموسوعية المنبثقة من نظام اجتماعي جديد أو الناجمة على الأقل من السعي في درء المفارقة بين الواقع والأفكار ما يمكن الدرء. وليس من الصدفة كذلك أن تكون جماعة من المثقفين والباحثين قد فكرت منذ خمس عشرة سنة في إصدار **معلمة للمغرب**. فالمعلمة التي هي عمل مكتوب مثلها في العمق والمبدإ كمثل المتحف، هذه المعلمة التي يشرف عليها الأستاذ محمد حجي صدر منها لحد الآن ثمانية مجلدات على الترتيب الأبجدي وتضم كل ما يتعلق بتراث المغرب وحضارته وأحواله الراهنة على أساس مداخل في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ماضيا وحاضرا. وفي ثناياها كثير من المواد الإثنوغرافية الصالحة للمتحف.

وفي الختام أعود فأؤكد أننا نعيش لحظة ثقافية خاصة، حيث يمكن مدينة أبي الجعد أن تكون رائدة في هذا الاتجاه ولو بقلة الإمكانات مع سداد الطموح. وأظن أن هذه المسألة لا تحتاج إلى كثير من التكاليف؛ ولو سرح الخيال، فإننا يمكن أن نقدر أن هذه التكاليف ليست باهظة.

صفحات من النشاط العلمي بمدينة أبي الجعد

في القرنين 17-18

محمد المنوني

كلية الآداب ـ الرباط

من أوائل المائة الهجرية التاسعة أو الخامس عشرة، مني المغرب بغارات الإسبان والبرتغال على الشواطئ المغربية في حملات كانت تهدف إلى الإستيلاء على المغرب عن طريق احتلال الشواطئ، وبذلك يسهل على المعتدين العمل لتنصير المغاربة. ومما يفسر ذلك أن مدينة مراكش صارت مهددة باحتلال البرتغاليين، بعدما تمكنوا من التسرب إلى نواحي أكادير ؛ ومدينة فاس بدورها، كانت هدف جيوش سيبستيان، في موقعة وادي المخازن. ومن الثابت أن الغزاة في هذه الحملة، أعدوا صلبانا ليقوموا بتعليقها قريبا من مساجد فاس ومراكش[1].

وبهذا أصبح المهتمون من المغاربة يدافعون في واجهتين : فإلى المجاهدين في الساحة، يقوم جناح آخر بالعمل لترسيخ الإسلام في سلوك المؤمنين، وصارت هذه هي وظيفة الزاوية، فإلى التربية الروحية، تضطلع كثير من هذه المؤسسات، بنشر الثقافة الإسلامية الهادفة، بدءا من شيوخها وأسرهم، ومرورا بالمريدين والطلاب، فضلا عن تأطير الزاوية بالأساتذة والمدرسة والخزانة، مع العلم بأن المعنيين بالأمر لا يحجمون عن خوض معارك الجهاد، دفاعا عن البلاد والعباد. والشواهد على هذا كثيرة. ومما يتصل منها بموضوعنا، أن الشيخ محمداً الصالح الشرقاوي هاله واقع المجاهدين المحاصرين لسبتة، فأنشأ قصيدة يستغيث فيها ويقول :

---

(1) مقال للأستاذ المرحوم محمد الفاسي بعنوان : «موقعة وادي المخازن الحاسمة»، مجلة **البحث العلمي**، ع 9، ص 223.

وامشوا للغـــرب باشروا أرضه كـــل ساعـــة
وانـــتشروا ـ لانخراطـــه فـــي سلـوك السلامـــة
وسداد ثغـــــــــوره ـ رايـــة بعـد رايـــة[2]

* * *

. وإلى هنا آن لنا أن نعرض ملامح من النشاط الثقافي بالزاوية الشرقاوية، ونبدأ بتبريز زمرة من شيوخها وأبنائهم خلال القرنين 11ـ12هـ/17ـ18م.

1 ـ فيأتي على رأس القائمة محمد الغزواني بن الشيخ مَحمد الشرقي العُمري، وقد درس في فاس على شيوخها الذين يعرف منهم الإمام أبو العباس أحمد المنجور الفاسي[3].

2 ـ ثم نشير إلى أخيه محمد المعروف بالمكناسي، وهو مجاز ـ خلال رحلته الحجازية ـ من العالم المصري بدر الدين القرافي مؤلف «**توشيح الديباج**»، في إجازة عامة ضمنها رجال سنده إلى أربعة كتب : «**الموطأ**»، و«**صحيحي البخاري ومسلم**»، و«**المختصر**» الخليلي، ثم «**سنده في التصوف**»، وأخيرا «**تاريخ الإجارة**» عام ثلاثة وألف[4].

3 ـ الشيخ أحمد المرسي : الإبن الثالث للشيخ محمد الشرقي، وكان مواظبا على سرد «**صحيح البخاري**»، حتى ذكر أنه ختمه بضعاً وعشرين مرة[5].

4 ـ الشيخ عبد الخالق بن الشيخ عبد القادر بن الشيخ مَحمد الشرقي، ينوه «**مختصر اليتيمة**» باشتغاله بقراءة العلم[6].

5 ـ ابنه محمد المعطي، يحليه نفس المصدر[7] بالعالم العامل، ويخططه الشيخ

---

(2) الأبيات من قصيدة وردت بتمامها في «**الروض اليانع**» للمعداني، خ. س 61 : 33/1.

(3) الشيخ محمد الغزواني هو الذي أشار له دون ذكر اسمه : الأفراني في «**صفوة من انتشر**»، ط.ف : ص 26.

(4) نص إجازة القرافي حافظ عليه الشيخ محمد الصالح الشرقي في إحدى «**كناشاتـه**».

(5) **المُرْقِي**، للعروسي خ. س. 2888.

(6) هو محمد بن المكي بن الشيخ محمد المعطي مؤلف **الذخيرة**، والإشارة هنا إلى إحدى إضافاته التي يثري بها «**اليتيمة**»، حسب مخطوطة خاصة منها آخر مجموع : ص. 111.

(7) ص. 110.

مَحمد بن عبد القادر الفاسي(8)، بالفقيه الأجل العلامة الصالح الناصح.

6 ـ وهو والد الشيخ محمد الصالح، ومن شيوخه بفاس الشيخ مَحمد الفاسي آنف الذكر، وله منه إجازة عامة حلاه فيها بالفقيه النبيه الناسك الأريب(9)، وقد أفاض مؤلف «**اليتيمة**»(10) في وصف الجانب العلمي من حياته، في نفس طويل نقتطف منه فقرات يقول فيها : «مجلسه العلم، وطبعه العلم... ومراقبته مطالعة الكتب، بها يشتغل في ليله ونهاره، ويتأنس في حضره وأسفاره، لا يخرج من خزانة الكتب إلا لقضاء حاجة الإنسان، وملاقاة من يرد عليه من الزوار والوراد والإخوان».

ثم يقول نفس المؤلف عن اشتغال المترجَم بالتدريس وهيامه به: «وكان ـ رحمه الله ـ لا تراه إلا والكتابُ بين يديه، وطلبة العلم دائرون به ومحلقون عليه، وهو مجلس لتدريس والإقراء، والتذكير والتحذير والوعظ والإغراء... وكان يقول لرفقته من العلماء الذين يجلسون معه لمذاكرة العلم ويردون : قد جعل الله لكل وليّ جُنة يتستر بها في وقته، وأنا جنتي هي العلم، ولولا تدريس العلم للطلبة واشتغالي معهم بمذاكرته، لخرقت من غلبة الأحوال ثيابي...».

7 ـ وقد خلَف الشيخُ محمد المعطي والدَه الشيخَ محمد الصالح، وهو العلَم الشامخ في تاريخ هذا البيت : علما، وصلاحا، وسعة صيت، وطول نفس في التأليف، والقصد إلى تأليفه «**ذخيرة المحتاج**»(11)، في نيّف وسبعين سفرا، وزع بينها مجموعة ضخمة من الصلوات النبوية، في صيغ تساير مراحل السيرة من الولادة الكريمة حتى الوفاة النبوية، وكفى مؤلفَها فخرا عشرات التنويهات به وبكتابه، وهي التقاريظ للـ«**ـذخيرة**» بمبادرة أعلام من المغرب الكبير والمشرق العربي، انطلاقا من

(8) في إجازته لابنه محمد الصالح، حسب «**كناشة**» المجاز المشار لها وشيكا، وممن ترجم للشيخ محمد المعطَى الذي نعلق عليه : الأفراني في «**صفوة من انتشر**» سابقة الذكر : ص 190 ـ 191، فيذكر من شيوخه بمراكش محمد بن إبراهيم التملي، وبفاس أبا السعود عبد القادر الفاسي الفهري، وقد سمع عليه التفسير والإحياء والحديث والتصوف وأوائل الكتب الستة وأجازه.

(9) نص الإجازة في «**كناشة**» المجاز المتكررة الذكر.

(10) القصد إلى «يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله مَحمد المُعطَى»، تأليف العبدوني من مخطوطات خ. ع، كـ 305.

(11) هناك بعض معلومات عن «**ذخيرة المحتاج**»، نشرها محمد المنوني ضمن دراسة بعنوان : «مؤلفات مغربية في الصلاة والتسليم على خير البرية صلى الله عليه وسلم»، مجلة **دعوة الحق** س 18، ع 4، ص.ص. 24، 30 ـ31.

المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا، ومرورا بمصر، وانتهاء عند الحرمين الشريفين[12].

ومن التنويهات بالمؤلف خارجا عن هذه التقاريظ، قولة أبي الربيع الحوات[13] عن المترجم : «نوه العلماء بقدره في كم من ديوان، واستفاض الحديث بفضله في أقصى البلدان، وتخرج عنه كم من شيخ جليل، وانتفع به الخلق جيلا بعد جيل».

8 ـ ومن النابهين من أبناء مؤلف «**الذخيرة**» : خليفة من بعده، أبو حامد محمد العربي، وله ترجمة موسعة في «**الفتح الوهبي**»[14].

9 ـ ثم آبنه الثاني : محمد المكي، مختصِرُ «**يتيمة العقود الوسطى**» مع إضافات مهمة.

10 ـ وثالثا : أبو الحسن علي، وهو الذي أصحب معه في وجهته الحجازية أسفارا من «**ذخيرة**» والده، حيث قرَّظها أعلام الجهات المشار لها سلفا[15].

11 ـ نُضيف ـ الآن ـ إسمين من أبناء الزاوية من فرع أحمد العروسي بن مَحمد الشرقي، وأولهما العالم محمد بن أحمد العروسي، ممن درس بفاس على شيوخها، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد القسمطيني، الذي حلاه بالنحرير الدراكة الألمعي[16].

12 ـ وهو والد عبد الخالق بن محمد العروسي مؤلف «**المُرْقِي في مناقب سيدي محمد الشرقي**»

* * *

وسيكمل هذا الاسم اثني عشر نموذجا للنشاط الثقافي في الزاوية الشرقاوية خلال القرنين 17ـ18، وقد كان عدد من هؤلاء يمثلون أطرا في ميداني التدريس أو التأليف.

---

(12) هناك مجموعتان لهذه التقاريظ : «**سفر تقاريظ أئمة المشرق**» : خ. س. 7958، و«**سفر تقاريظ أئمة المغرب الكبير**» : خ.ع، كـ 1181.

(13) **الروضة المقصودة**، مخطوطة المؤرخ المرحوم عبد السلام ابن سودة.

(14) من تأليف حفيد المترجم الحاج العربي بن بنداود بن محمد العربي، من مخطوطات خ. ع، د 3670.

(15) وردت الإشارة لذلك خلال «**تقريظ الذخيرة**» الذي كتبه العالم الجزائري محمد بن يوسف الصغير الحملاوي، ضمن سفر التقاريظ المغاربية.

(16) **المُرقي**، مصدر سابق.

13 ـ ونُشير ـ الآن ـ إلى أطر وافدة على الزاوية، بدءا من الفقيه أحمد بن حم أستاذ النحو بالزاوية(17).

19 ـ أحمد بن فتوح التازي(18).

20 ـ الطّبيب عبد القادر بن العربي ابن شقرون المكناسي، وكان يقرئ النحو والتصريف والطب(19).

21 ـ صالح الشرقي المحدث في البخاري بمسجد سيدي محمد الشرقي(20).

*

وكان بالزاوية مدرستان : الأولى من تأسيس السيد محمد الشرقي(21) والثانية من تأسيس السلطان مولاي سليمان.

*

وعن خزانة الزاوية يقول القادري(22) عن الشيخ المعطَى بن الصالح : «وحصلت بيده خزائن من الكتب، لكونه كان مليا من متاع الدنيا...».

ومن اهتمامهم بالكتب اقتراحهم تأليفها، فكان «**نزهة الحادي**» بإشارة الشيخ محمد الصالح على مؤلفها محمد الصغير الأفراني.

والشيخ محمد الصالح هو الذي اقترح على الطبيب عبد القادر ابن شقرون، وضع أرجوزته في االأغذية.

ثم كان الشيخ محمد المعطى بن الصالح هو المشير على محمد بن أبي القاسم السجلماسي، بشرح أرجوزته في التصريف، المسماة «**مبلغ الآمال في تصريف الأفعال**».

وسنرى هذا الاهتمام إلى متأخري الأسرة، فكان الشيخ عمر بن المكي الشرقاوي هو الذي ندب الرفاعي إلى نظم أرجوزته في قواعد الخط المغربي.

---

(17) اليتيمة، مصدر سابق.

(18) المصدر.

(19) نفسه.

(20) نفسه.

(21) نفسه.

(22) نشر المثاني، مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء : 174/4.

ملحق 1
افتتاحية السفر الأول من «ذخيرة المحتاج»

7867/خ.ح.ر.

هذا هو السفر الأول من كتاب «**الذخيرة**» للعلامة الجليل سيدي المعطي ابن سيدي محمد الصالح بن محمد المعطي بن عبد الخالق بن عبد القادر ابن الولي الصالح المربي أبي عبيد سيدي محمد الشرقي العمري دفين مدينة أبي الجعد، استهله بقوله :

«حمدا لمن أقرت بوحدانيته الأرواح في صلب آدم عليه السلام، وخضعت إجلالا لهيبته ملائكة الإلهام ورؤساء الكروبيين العظام، وشهدت بكمال ربوبيته جميع المكونات وسائر الأنام»، الخ.

ثم يقول : «أما بعد، فإني لما رأيت ما في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الفضائل والخيرات، والبشائر والأنوار والشوارق ولوائح المسرات، وما أعد الله لأهلها من أسنى المراتب وأعالي الدرجات وأعظم القربات» إلخ.

ثم يقول : «ووقفت على ما في كتب القوم من غرر الصلوات ونفائس التحيات، ومدائح سيد الأرضين والسماوات، وما وشحوها به من مشاهير المرويات»، الخ.

ثم يقول : «حركني حامل الحب الذي لا يرد وارده، وجذبني حامل الشوق الذي لا يكتم مشاهده أن أدلي دلوي بين المحبين المادحين، وأمد ظرفي بين الطالبين الراغبين، وأجري طِرفي بين القوم السابقين العاشقين، وأمتع طَرفي في كمالات سيدي الأنبياء والمرسلين، وأتشبث بأذيال الكرام الصالحين الواصلين، وأقف في مشاهد الخواص الذاكرين المفلحين وأرسم شكلي في توقيعات المحبوبين المقربين، وانتظم في سلك الأرقّاء المنتسبين لسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين»، الخ.

حتى يقول : «فجاءت بحمد الله بديعة الأسلوب، كفيلة بنيل المطلوب، تنفتح عند مناولتها أقفال القلوب، وتنكشف بفضلها أزمات الشدائد والكروب وتغفر ببركتها عظائم الجرائم والذنوب».

حتى قول : «وسميته **بذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج**».

قال : «وقد أشير عليه أن يسميها **بهجة الأخيار في الصلاة على النبي المختار**».

حتى يقول : «والقصد بذلك كله وجه الله العظيم، والتقرب إليه بخدمة نبيه وحبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المصطفى الكريم، راجيا بذلك نفحة من نفحات رضوانه العميم، ومنحة من فيض نواله الجسيم»، إلخ.

ثم أتى بفصل مطول في فضل الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وما ورد فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ثم أتى بتصليات كثيرة مزجها بفضائلها وبالأمر بها وبأحوال من كانوا يصلون على الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا فحمدوا عاقبة ذلك في الآخرة.

وأتى بالبيتين المشهورين عند المسمعين وهما :

إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم أعتقوها عتق أحرار
وأنت يا سيدي أولى بذا كرما ... قد شبت في الرق أعتقني من النار

وأورد من أخبارهم ما يشوق المومن إلى الاقتداء بهم.

والكتاب جيد الخط وليس فيه تاريخ النسخ ولا إسم الناسخ.

لكن يظهر من خطه أنه للسيد عبد الحق بن عبد الوهاب ابن قاضي سلا السيد الهاشمي أطوبي ناسخ «**سفر التحميد والتهليل**» الذي يحمل أيضا نفس الرقم : 7867/خ.ح.ر.

من عمل الأستاذ المرحوم كوثر: محمد بن عبد الله الإدريسي الروداني

ملحق 2
من أصول «ذخيرة المحتاج» كما عرضها مؤلف «يتيمة العقود الوسطى»

«**مسالك الحنفا**» للقسطلاني، و«**منهاج الفلاح**» لابن صعد، و«**تنبيه الأنام**» لابن عظوم، و«**دلائل الخيرات**» للجزولي، و«**الفجر المنير**» لابن الفاكهاني، و«**القول البديع**» للسنحاوي، و«**المنهاج**» لابن منديل، و«**السر اللطيف**» للحلفاوي، و«**الحدائق**» لابن عرضون، و«**كتاب الديباج**» لابن هريرة الصفوري و«**طريق الهداية**» لصاحب «**المجالس الفاسية**»، و«**التهذيب**» للجشتيمي، و«**كتاب الغنيمة**» للشيخ محمد بن ناصر، و«**منهاج الفلاح**» للحوضي، وكتاب الحلبى، وابن الصباغ، والعبدوسي، ومولاي عبد السلام بن مشيش، ودواوين المدح النبوي.

ملحق 3
وصية الشيخ مَحمد المعطَى بن الصالح وبين موضوعاتها التوصية بوقف ثلث كتبه

«... وبعد، فإن قضى الله علي بالموت الذي لا محيد لمخلوق عنه، فإن أمر أولادي الكبار والصغار وأولادهم وأولاد أولادهم، موكول إلى من إليه الأمر من قبل وبعد...

وأوصيهم أن يعزلوا الثلث من الغنم فيوقّف.... وكذا الكتب التي نسبت إلي ووجد خطي على ظهرها أو لم يوجد وصح ملكها لي، فإن الثلث منها يوقف لمن يقرأها من أولادي وغيرهم من عباد الله المومنين.... وكتبا كانت تحت يدي لصاحبنا السيد محمد بن مبارك الزموري الجابري المتوفى بفاس، كان أعطاهم لنا فتورعنا عنهم، فإن أراد أولاده يهبونهم على الزاوية أو يأخذون متاعهم فعلى بركة الله... وأما الدار التي بفاس والحمام والحوانيت فهم حبس على أولادي... وينفق منها على إصلاح الدار والدور التي لنا بأبي الجعد فدار سكنى والدي وكذا الدار التي بها ولدي عبد الخالق...

وكتابنا المسمى بـ«ذخيرة المحتاج» فإنه يوقف عليه شيء من مالي على من يقرأ ويهدي ثوابه لنا، وتنسخ منه نسخة وتهدى لسيدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم...

وأوصي أولادي أن يشتغلوا بما يعنيهم من أمر دينهم، ويعلموا أولادهم الصغار كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم... وأن لا يسكنوا هذه القرية، فحيث ما طاب لهم المعاش وسلم دينهم فليسكنوا...

وأوصي ولدي أحمد الحظر على إخواته...

هذه الوصية مثبتة آخر فهرسة
التاودي ابن سودة خ. س، 6018، كتبها
من خط الموصي إبنه عبد السلام.

ملحق 4
يشير إلى أوضاع تتصل بالزاوية الشرقاوية غير ما ذكر سلفا

1) مجموعة رسائل : ستة منها سعدية في خطاب الشيخ عبد القادر بن الشيخ محمد الشرقي، وواحدة دلائية، إلى السادات أحمد المرسي وعبد القادر ومحمد، أبناء الشيخ محمد الشرقي، والأخيرة في اسم أبناء الشيخ محمد الشرقي دون ذكر أسمائهم أو اسم باعث الرسالة (خ.ح.ر، 6436).

2) مجموعة رسائل من الشيخ محمد المفضل بن أحمد المرسي إلى الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي وغيره (خ. ع، ك 1063 : ثانية مجموع).

3) ما وجد من فهرس الشيخ محمد المعطى بن عبد الخالق الشرقي، حيث احتفظ بنص ذلك المعداني في «الروض اليانع» مصدر سابق.

4) ولنفس المؤلف «الجامع في إقناع المسامع» (خ. س، 65 : أول مجموع).

ملحق 5

ملخص رحلة صغيرة إلى بجعد
من تأليف الشيخ عبد المجيد الزبادي

الشيخ سيدي محمد الشرقي بن سيدي أبي القاسم دفين ضفة أم الربيع، له هنالك مزارة عظيمة، بن سيدي محمد الملقب الزعري دفين تاشّرفت، من ذرية سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر بن الخطاب.

وأمه السيدة رحمة بنت الولي سيدي حمزة، كانت تخدم سيدي سعيد امسناوْ الخدمة التامة، ولها كرامات، وقبرها مزارة على أم الربيع.

فأما أولاده رضي الله عنهم، فمنهم الشيخ أبو محمد سيدي الغزواني، صاحب الكرامات وخوارق العادات، وله مخاطبات مع أبيه ومع أخيه سيدي عبد السلام معلومة وهو دفين الميعاد.

ومنهم الولي العارف الزاهد الفياض أبو محمد سيدي عبد السلام رضي الله عنه، كان كثير الطعام، ويسر له ذلك بحيث بهر الأنام... وظهر من رسالاته الرائقة، ومخاطباته الفائقة فأبهر الألباب...

وقد حكى أن الشيخ سيدي أحمد بن خضرا كان ينتسب إلى هذا الشيخ، وله مزارة عظيمة بالميعاد.

وفيهم العلامة الحبر الفهامة الورع المكاشف أبو عبد الله سيدي محمد المكناسي رضي الله عنه، حج وأخذ بمصر عن بعض أعيانها من ذرية أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة «**صحيح البخاري**» وأجازه إجازة عامة، وأدرك العلم الظاهر والباطن وهو ابن بضع وثلاثين سنة، وله مزارة بالميعاد.

وقد كان له أخ اسمه محمد المكناسي ظهر خيره في حياة أبيه، فذهب حاجا وتوفي بمصر فدفنه الإمام أبو الحسن البكري، وبعث إلى أبيه يعزيه، فلقب اسمه رضي الله عنه هذا الولد المكناسي بدلا منه.

ومنهم العلامة النِّحرير، الأستاذ المحدث الورع النزيه، الولي العارف، أبو العباس سيدي أحمد المرسي رضي الله عنه، ذو الإشارات السنية، والمآثر السنية، ختم

«**صحيح البخاري**» بضعا وعشرين مرة. وكان عارفا بالحديث وأحكام الكتاب العزيز، وكان ذا صوت حسن، وصاحب جد واجتهاد، وهو دفين أبي الجعد، له هنالك مزارة مشهورة قريبة من مزارة أبيه.

ومنهم الشيخ أبو النصر سيدي عبد القادر رضي الله عنه، من أخص أولاد الشيخ وأعظمهم عنده، له مزارة مشهورة حذاء مزارة أخيه المرسي.

ومنهم سيدي المكي، له مزارة عند مزارة أخويه متصلة بجدار مزارة أبيه.

ومنهم سيدي الحارث وسيدي الطنجي من أهل الميعاد.

وللشيخ غير هؤلاء من الأولاد، لكني لم أعرف الآن أسماءهم ولا أحوالهم رضي الله عن جميعهم.

وأما الأحفاد بواسطة فأكثر، منهم الشيخ الأستاذ المقرئ العالم الصالح الولي، أبو عبد الله محمد المفضل بن سيدي أحمد المرسي بن سيدي محمد الشرقي رضي الله عنهم، تواتر أن شيخه الذي أخذ عنه وانتسب إليه في الطريق هو الولي الصالح سيدي محمد الحفيان الرتبي السجلماسي، أحد فضلاء أصحاب الشيخ سيدي محمد الشرقي وأخصهم، ويقال : إنه أخذ على عمه سيدي الغزواني، ويقال : إنه أخذ ــ أيضا ــ على سيدي محمد بنداود بن عمة سيدي عبد القادر، تخرج عليه ناس في العلم والصلاح، وكان كثير الطعام بزاوية جده، ثم انتقل إلى أرض سلا فسكن بحوزها، وبقي كذلك هنالك إلى أن مات محمل إلى المدينة ودفن بها، وله هنالك مزارة عظيمة مشهورة عليها أثر الجلال.

وله بأبي الجعد ولدان جليلان في مزارة واحدة عظيمة مشهورة، أحدهما سيدي الحفيان من المجاذيب وذوي الأحوال والكرامات، والآخر ــ وهو أكبر منه ــ يسمى سيدي الشرقي.

ومنهم العارف الولي ذو الكرامات الباهرة... أبو العباس سيدي أحمد البدوي بن الشيخ سيدي عبد السلام المتقدم.

وولده الولي المجذوب... أبو محمد سيدي عبد القادر بن أحمد البدوي بن سيدي عبد السلام رضي الله عنهم، وأفاض علينا من بركاتهم آمين.

ومنهم سيدي محمد بنداود لقب له، بن سيدي عبد القادر بن سيدي محمد الشرقي رضي الله عنهم...

وأخوه الأستاذ المقرئ سيدي محمد الشرقي.

ومن حفدة سيدي عبد القادر بن سيدي محمد الشرقي، بحر الشريعة والحقيقة، سيدي محمد المعطي بن عبد الخالق بن الشيخ عبد القادر بن القطب سيدي محمد الشرقي رضي الله عنهم... توفي بمراكش ودفن بها.

وولده سيدي محمد الصالح بن المعطي... وسميهم محمد المعطي بن الصالح.

من مخطوطات خزانة خاصة بمراكش

الحرف التقليدية لأبي الجعد بين الأمس واليوم

عمر مديحي
كلية الآداب ـ بني ملال

مدينة أبي الجعد بتاريخها العريق عايشت الظروف التي مر بها المغرب خلال أزيد من أربعة قرون.

وفي بداية القرن الذي نعيش فيه كان المغرب بلد المدن الصغرى، ثم اتجهت سياسة المستعمر الاقتصادية إلى التركيز على بعض المدن اقتصادياً، وخاصة المدن الكبرى، جاعلة منها مركزاً لترويج بضائع المدن الصغرى والقرى.

وهكذا استفادت تلك المدن من التمركز البشري والشغل والرأسمال، في حين ظلت المدن الصغرى تابعة لها اقتصاديا، ولم يشملها من العناية إلا التأطير الإداري والخدمات الأولية للوافدين عليها من القرى المجاورة.

وهذا الحال ينطبق على مدينة أبي الجعد ؛ فلم تنل حظها من التجهيزات العمومية ولا من الأنشطة الحضرية الحقيقية.

في إطار هذه القسمة غير المتوازية، نتساءل عن الحالة المعيشية لسكان أبي الجعد.

سكان مدينة أبي الجعد كانوا حرفيين بحكم تجمعهم السكاني القديم وحسن استغلالهم لموارد البيئة التي كانوا يعيشون فيها : استغلال التربة خلق صناعة الخزف، توفر الماشية أدى إلى قيام الدباغة والنسيج، الخشب المستورد من الغابات القريبة أدى إلى صناعة النجارة وساعد في صناعة الحدادة، الحجر الموجود في المنطقة استغل لصناعة الكلس.

إذن تواجدت هناك عدة حرف تقليدية : بعضها اندثر وبعضها في طريقه إلى الاندثار، وبعضها ازدهر، وبعضها ما يزال يقاوم بامكانياته البسيطة ووسائله التقليدية العريقة.

وسوف أركز في هذه المداخلة على بعض هذه الحرف : الخزف ــ النسيج ــ الدباغة ــ النجارة ــ الحدادة.

I ــ صناعة الخزف

اهتم صناع الخزف في أبي الجعد بصناعة المواد التي يحتاجها سكان المنطقة : كالقلة لسقي الماء والاحتفاظ به، وللاحتفاظ بالسمن وغيره، والخابية للاحتفاظ بالماء وترقيد بعض المنتوجات الزراعية كالزيتون، والغراف للشرب، والجبانة للشرب والاحتفاظ ببعض المواد، والحلاب للوضوء، والطعريجة لمناسبات الأفراح وعاشوراء، والمجمر للطبخ والتدفئة، والفخار للطبخ، والزهرية للتزيين، والقرمود لزخرفة البناء.

مكان الخزف أو ما يسمى بالقلالة عرف عدة تنقلات إلى أن استقر في مكانه الحالي في الطريق المؤدي إلى تادلة.

أما المواد التي كانوا يستعملونها في صناعتهم، فهي نفس المواد التي تستعمل اليوم : الطين وهو ثلاثة أنواع : أ ــ امحُّرو، ويوجد في الطبقة العليا من الأرض؛ ب ــ العنق، ويوجد في طبقة تحت محرو؛ ج ــ الكلوة، ويوجد تحت طبقة العنق. ولابد من إضافة نوع رابع يسمى الكْحَلْ، وهو نوع من الطين يخلط بأحد الأنواع الثلاثة.

أما تسويق البضاعة فقد كان يتحدد في أبي الجعد ونواحيها ووادي زم وخريبكة وتادلة والفقيه بن صالح وسوق السبت وبني ملال وحد البرادية...

هذه الحرفة لم تتطور، بل بدأت تتراجع في العقود الأخيرة بسبب التطور التكنولوجي، وانعدام التكوين، وظهور مصنوعات جديدة قضت على بعض المصنوعات القديمة ؛ فبظهور الثلاجة لم يعد الفرد يفكر في امتلاك قلة أو خابية، كما كان لظهور البلاستيك وقعُه السلبي على العديد من المنتوجات الخزفية.

إذن لإنقاذ هذه الحرفة، يجب التفكير في أسلوب آخر أسوةً بالمدن التي ازدهر فيها الخزف كآسفي والرباط وسلا وفاس ومكناس ومراكش وتطوان... وغيرها.

يجب إدخال وسائل الزخرفة على الأواني لأنها اليوم أصبحت تستعمل للديكورات والتزيين أكثر منها للطبخ وللاحتفاظ بالمواد.

وهذا الإجراء هو الكفيل بإثارة اهتمام الشباب نحو صناعة الخزف. أما بما هو حالي، فإن الشباب عازف عنها لعدة أسباب أهمها الأجرة الزهيدة.

ولتنمية الحرفة لابد من معالجة بعض المشاكل اذكر منها :

إيجاد محل آمن للعمل ؛ الكهرباء ؛ الماء ؛ المادة ؛ وأخيراً مشكل التأطير : فلابد من جلب معلمين من المدن التي يزدهر فيها الخزف لخلق معلمين شباب محليين. وبعد هذه المرحلة يمكن التفكير في جلب أفران، وفي خلق تعاونية... الخ.

II - النسيج

صناعة النسيج في أبي الجعد قديمة قدم هذه المدينة. وأهم المصنوعات النسيجية هي : البيزارة والحايك والحنبل والزربية والجلابة.

ويمكن القول إن الهدف منها لم يكن يتعدى الاكتفاء الذاتي. فالبيزارة كانت كلها بلدية بالأحمر والمربعات والعبروق وبيزارة الجوهرة بالحرير والصابرة والخيط وكَريزين، ثم هناك البيزارة المشتركة مع الأطلس بالموزونة والسوسدي والصابرة ورشمتها مختلفة.

أما وظيفتها في المجتمع البجعدي، فهي هدية كبيرة تعطى للأحباب والأصدقاء والمسافرين وللعرائس ؛ وهي لحاف المرأة البجعدية الأصيل.

وتطورت البيزارة وأصبحت تستعمل غطاءً للأفرشة وللوسادة ولمقاعد السيارات، كما أصبحت ستائر.

ولم تكن المرأة البجعدية تستغل بيع البيزارة إلا لقضاء أغراضها الشخصية. أما في وقتنا الحاضر، وبعد أن لفتت البيزارة انتباه الزوار وعشقها المغاربة والأجانب على السواء، فإنها أصبحت تباع في أبي الجعد ونواحيه وفي كل الأقاليم المغربية، وخاصة منها السياحية وفي المعارض.

وتكاد الجلابة والحايك والزربية تشترك مع البيزارة في الوظيفة والتسويق.

وقد عرفت سنوات الجفاف، أي في الثمانينات، ازدهاراً ملحوظاً في هذه

المصنوعات. ولعب النسيج دوراً اقتصادياً كبيراً في المدينة وانعكس على المنطقة المحيطة بها ؛ ذلك أن سنوات الجفاف رمت بالكثير من الرجال إلى عالم البطالة، فشمرت النساء ــ في بيوتهن ــ عن أذرعهن وأقمن المناسج، فصارت تصنع المنتوجات ليل نهار، وتباع هذه المصنوعات في الأسواق المغربية بل وحتى في الخارج، فصار مردودها ملحوظاً وأصبحت المرأة النشيطة تشرف على عدد كبير من المناسج.

وبسبب هذا الإقبال، عرف الحنبل تطوراً كبيراً، فصار أشكالًا وأنواعاً ؛ فمنه الصلابة والكنوار والكولوار والنصّاص، وتطور في زخرفته ؛ فأصبح مزركشا برسوم الحيوانات والمناظر الخلابة.

هذا الازدهار مازال إلى يومنا هذا، مما خلق أرضية خصبة ليقام تعاونية النسيج في أبي الجعد.

وتعرض المنسوجات البجعدية في المعرض الدولي بالدار البيضاء مرة كل سنتين. ويلاحظ إقبال الزوار والسياح عليها بكثرة ويباع منها كل ما يُعرض. وتشارك الصانعات البجعديات في معرض جائزة الحسن الثاني بأكَادير وتحظى بنفس الإقبال، ويلاحظ فيها المطالبة بالجلابة البجعدية وبالحنبل والبيزارة.

كما تشارك في معارض إقليمي بني ملال ومراكش، وفي الأسبوع السينمائي بخريبكة، وفي كل مناسبة، فضلا عن مناسبات المعارض المحلية زمن الموسم السنوي لأبي الجعد.

III ـ الدباغة

هي أم الحرف في أبي الجعد، لأن عليها كانت تتوقف مجموعة من الحرف : صناعة الدلا، والكير، والمنفاخ، والخرازة... وغيرها.

كانت مدينة أبي الجعد هي سوق المنطقة الوسطى للجلود. ففي زمن الاستعمار كان التجار البجعديون يبيعون الجلود في نواحي المدينة وبني ملال وايت عتاب والسماعلة ووريغة وفاس والرباط وسلا ومراكش...

وقد عرفت الدباغة عدة تنقلات على مستوى المكان إلى أن استقرت، في الثلاثينات، في مكانها الأخير الذي استسلمت فيه للموت المحتوم.

وقد ظلت نشيطة في الأربعينات رغم ما كانت تعانيه من نقص في الماء، حيث سجلت دار الضريبة في تلك الفترة 64 ضريبة، أي وجود 64 معلماً.

وقد شهدت نمواً اقتصاديا زمن الحرب، أي ما بين 1944 و1948، بسبب إغلاق المعامل الأوربية.

فنشطت صناعة الخرازة وأصبحت البلغة البجعدية تباع في جميع أرجاء الوطن وهي أنواع : الريحية والمسيطة والمقلوبة والمدفونة. وكان عدد الخرازة يفوق 100 خراز بين يهودي ومسلم.

ثم نشطت صناعة القرشال التي تخصص فيها اليهود وهذه الحرفة لها علاقة بالنسيج.

كما نشطت صناعة الشكارة، والقراب، والمنفاخ، والسروج، والدلا، وكلها تباع في أقاليم عديدة.

وفي الستينات، بدأت الدِّباغة في التراجع بسبب قيام المعامل في مدن أخرى وغياب الدعم.

وفي السبعينات، كانت الدباغة تحتضر ثم انتهت مخلفة وراءها ماضيا مجيداً وأطلالا تتآكل بفعل الزمن والهجرة.

أما الصناع الذين دبت الشيخوخة إلى أغلبهم، فما زالوا يحنون إلى قيام الدباغة في أبي الجعد وتطويرها ليستفيد منها الشباب، خصوصا إذا خضعوا للتأطير وخضعت الحرفة للتطور، مطالبين بمحل آمن وبه الماء والكهرباء يكون باسم المدينة، وبعدها تأتي فكرة التعاونية.

وإذا ما عادت الدباغة إلى حيويتها بالمدينة وتجهزت بآلات الغزل والصباغة، فإن ذلك سيساعد صناعة النسيج كثيراً وسيعود على المدينة بالنفع الكثير.

IV ـ النجارة

في بداية هذا القرن، لم تكن النجارة في المدن الواقعة بين الدار البيضاء وخنيفرة إلا في مدينة أبي الجعد. كان النجارون يشترون الخشب من غابة خنيفرة وينقلونها عن طريق وادي أم الربيع حتى تادلة ثم يتم نقلها بواسطة الدواب.

ازدهرت النجارة في أبي الجعد في الستينات نتيجة جدية المعلمين وخلق ورشة في إعدادية محمد الخامس، أي أن النجارة كانت تدرس في الإعدادي، وتخرج منها عدد من المعلمين ساهموا في تطويرها وساعدهم في ذلك حظهم من التعليم.

وظلت التجارة البجعدية يضرب بها المثل في كثير من المدن خصوصا بعد سنة 1944 التي شهدت دخول أول آلة كبيرة للنجارة بأبي الجعد.

وحينما تأسس التكوين المهني بالمدينة دخل مجموعة من الشباب يتعلمون هذه الحرفة ووجدوا مجموعة من الآلات، فأخذوا قسطاً من التعليم أهلهم للعمل، فاتجه أغلبهم إلى صناعة المواد وبيعها في أغلب الأقاليم المغربية.

كذلك تأسست تعاونيات سهلت التعامل بين المعلمين..

وعموما، فإن النجارة في أبي الجعد مزدهرة والطلب عليها كثير ومصنوعاتها تصل إلى كل أرجاء الوطن.

V ـ الحدادة

الحدادة من الحرف القديمة في أبي الجعد، كانت مصنوعاتها تخدم الفلاحة في المنطقة ؛ فتصنع السكة، والمنجل، والمقص، والجفان، والصفائح، واللجام. كما كانت لها علاقة بالنجارة فتصنع الأقفال والرتاج... وغيرها، بالإضافة إلى مصنوعات أخرى كالسكاكين وما إليها من المصنوعات التي تحتاج في الأعياد وغيرها.

هذه الحرفة ازدهرت في الخمسينات، فكانت الحدادة البجعدية توفر المصنوعات لسكان الأقاليم المجاورة. ساعدهم في ذلك الثمن المناسب للمواد التي تتطلبها الحرفة كالفحم والمسمار والحديد...

لكن بدءاً من السبعينات، صارت تتراجع شيئا فشيئا نتيجة التقدم الصناعي الحديث وغلاء المواد وغلاء المعيشة.

فكان الحداد إذا صنع سكة لأحد المزارعين، فإن هذا الأخير بالإضافة إلى دفع الثمن فإنه بعد جمع المحصول يخصص قدراً من الحبوب للحداد. وهذه العملية كانت هي الدعم الحقيقي للحداد.

وحينما دخلت الآلة الحديثة، فإن الاقبال على السكة انخفض وانخفض معه الدعم.

أما اليوم، فإن هذه الحرفة متواضعة جدّاً بأبي الجعد ولم يعد يضمن استمراريتها إلا شيء واحد هو العامل الاجتماعي. فالحدادون اجتماعيون بطبعهم، لهم غيرة على حرفتهم وعلى بعضهم البعض، يحبون النزهة والاجتماع فيما بينهم؛ وإذا مات منهم معلم، فإنهم لا يعملون ثلاثة أيام حداداً عليه، كما لا يعملون أسبوعاً كاملا في مناسبات الأعياد كعيد الأضحى وعيد المولد النبوي.

أما على مستوى العمل، فإن الحدادة مستمرة في التراجع. وللنهوض بها، فلابد من تأطير الشباب الراغب في هذه الحرفة تأطيراً عصريا، وإيجاد محل لائق من حيث المساحة والنظافة وتوفير الكهرباء والماء، ثم خلق تعاونية ودعمها مادياً.

وبهذا يمكن للحدادة أن تتنفس هواء جديداً نقيا.

إنَّ الحرفيين في أبي الجعد كانوا يرفهون عن أنفسهم بفن من الفنون المحلية كان يسمى «دق اسلان»، وهي دقة شبيهة بالدقة المراكشية مع اختلاف في الإيقاع، وكانت مناسبة عاشوراء من كل سنة فرصة لإبراز كفاءة أرباب الحرف في الدقة. وتستمر سهراتهم وزياراتهم لبيوت كرماء المدينة طيلة 10 أيام. بعدها بفترة قصيرة يتم احتفال الحرفيين بما جمعوه من مال، ويساعدون ببعضه المعوز منهم والمحتاج. وما تقلص عدد الممارسين لهذا الفن إلا نتيجة لتقلص عدد الحرفيين وضعف بعض الحرف.

إن تطوير الحرف التقليدية بأبي الجعد ـ في نظري ـ رهين بالاستفادة من تقنيات العمل في المدن التي تطورت فيها هذه الحرف كفاس ومراكش والرباط وسلا وآسفي... بارسال بعثات قصد التأطير لفترة كافية، تعود بعدها فئات من الشباب مؤطرة تأطيراً جيِّداً يُخول لهم تدريب فئات أخرى محليا. وبإيجاد الأمكنة الملائمة والمجهزة تجهيزاً لائقاً ومؤمنا لكل حرفة على حدة، حتى يتم الاستقرار المهني والنفسي والاجتماعي، وبعدها ينبغي خلق التعاونيات التي تنظم العمل.

ولاشك في أن التفكير في الاستفادة ممن سبقونا في هذه الحرف أصبح ضرورة حتمية ومسؤولية ملقاة على عاتق المسؤولين لبذل الجهود لإنجاز هذا المشروع بجدية وحزم.

الأنشطة الاقتصادية والتوسع الحضري بأبي الجعد

حسن ضياء
أستاذ باحث

عرفت مدن العالم منذ مطلع القرن 20 تحولًا مهماً شمل جميع القطاعات، كما عرفت تزايدا من حيث عددها، فارتفعت بذلك نسبة الساكنة الحضرية. والمغرب لم يبق بمعزل عن هذا التحول الذي ساهم فيه المستعمر بشكل كبير، في إطار استغلال خيرات البلاد ؛ فكان لذلك انعكاس على المجال والمجتمع. ومن آثاره بروز فئات اجتماعية متميزة لعبت دورا مهما داخل المجتمع المغربي، خاصة بالمدن العتيقة كما هو حال أبي الجعد. وارتفع عدد مدن المغرب بشكل سريع، وتزايدت معه نسبة الساكنة الحضرية. لكن هذا التزايد كان متبايناً في الزمان والمكان وتحكمت فيه عدة عوامل. ومن مميزاته : ارتقاء عدة مراكز قروية إلى مراكز حضرية، في حين تضخمت مراكز حضرية أخرى قديمة التأسيس، بينما بقيت وتيرة تزايد سكان عدد من المدن ضعيفة رغم قدم تأسيسها، ومدينة أبي الجعد تدخل ضمن هذا الإطار.

من هذا الباب سأحاول الوقوف على مدينة أبي الجعد كمدينة قديمة التأسيس وضعيفة التنمية من خلال أنشطة السكان والتوسع العمراني وربطها بمحيطها العام. وقبل التطرق لصلب الموضوع، نتساءل عن أسباب تهميش مدينة أبي الجعد والعوامل التي حالت دون تحقيق تنميتها. فإشكالية ضعف التنمية والتأزم الذي تعيشه المدينة تجد بعض أجوبتها أثناء تحليلنا لهذا الموضوع، نظراً للترابط القائم بين عدد من العناصر. وعليه، سأقسم هذه المداخلة إلى قسمين : القسم الأول يخصص لأنشطة السكان، والقسم الثاني للتوسع العمراني.

1 ـ تتميز الأنشطة الاقتصادية لسكان أبي الجعد بالتنوع والهشاشة

إن دراسة أنشطة السكان تسمح لنا بالوقوف على مستوى تحضر مدينة أبي الجعد، كما أنها ستمكننا من معرفة خصوصية المدينة ووظيفتها داخل مجالها. وقبل التطرق لمظاهر بنية السكان النشيطين وتوزيعهم حسب القطاعات الاقتصادية، يلزمنا أن نعطي ولو فكرة أولية عن البنية العامة لأنشطة السكان وكيف تطورت حسب إحصاءي 1971 و1982.

1.1ـ البنية العامة لأنشطة السكان : ارتفاع نسبة العاطلين

	1971			1982		
	ذكور %	إناث %	المجموع%	ذكور%	إناث%	المجموع%
نشيط / مشتغل	15,33	3,19	18,56	16,15	5,01	21,16
عاطل	2,68	0,77	3,46	3,47	0,58	4,05
متمدرس	15,78	8,45	24,18	17,76	13,30	31,06
ربة بيت	–	18,73	18,73	–	21,25	21,25
عاطل آخر	14,55	20,57	35,13	10,37	12,11	22,48
المجموع	48,28	51,71	100	47,75	52,25	100

جدول رقم 1 : البنية العامة لأنشطة السكان

المصدر : **مديرية الإحصاء.**

من خلال الجدول، يتضح لنا انعكاس الدينامية الديمغرافية. ومن أهم مظاهرها ضعف نسبة النشيطين المشتغلين التي لم تتجاوز 18,56% حسب

إحصاء 1971، بينما سجل المعدل الوطني الحضري 26،2% ؛ وقد وصلت هذه النسبة إلى 21،16% حسب إحصاء 1982، في حين وصل المعدل الوطني الحضري إلى 30،4%. ومرد ضعف نسبة النشيطين إلى عدة عوامل أهمها :

* ازدياد نسبة العاطلين وغير النشيطين إما بسبب انقطاع عدد كبير من الأطفال عن الدراسة أو لعدم وجود فرص الشغل رغم حصولهم على شواهد تعليمية مختلفة وإن كانت أزمة الشواهد حتى سنة 1982 لم تصل الذروة التي وصلتها الآن.

* هشاشة اقتصاد مدينة أبي الجعد وضعف ظهيرها.

* ازدياد عنصر الهجرة القروية في اتجاه مدينة أبي الجعد من جراء الجفاف الذي أصاب المغرب منذ منتصف السبعينات وخاصة المناطق الداخلية ومنها منطقة أبي الجعد.

إن ضعف النشاط يدل على تأزم المدينة خاصة إذا عرفنا أن وتيرة النمو السكاني بالمدينة ضعيفة، حيث وصلت في الفترة الممتدة بين 1960 و1982 إلى 2،99%(1)، وهي من أضعف نسب التزايد على المستوى الحضري الوطني. فضعف النشاط وارتفاع نسبة البطالة هو ما يفسر البؤس الذي يشعر به سكان المدينة، هذا الشعور الذي يزيد من حدته الوعي بالانحطاط، مادامت إنجازات الحاضر أقل قيمة من إنجازات الماضي. وضعف النشاط ينعكس على نسبة الإعالة ويجعلها مرتفعة حيث وصلت إلى 5،39 فرد لكل نشيط مشتغل سنة 1991، لكنها في الواقع أكثر من ذلك نظراً لكون نسبة كبيرة من المشتغلين هم أطفال ودخلهم الأسبوعي لا يتعدى، في أحسن الأحوال، أربعين درهماً. أضف إلى ذلك أن دخل ما يزيد عن 70% من أرباب الأسر النشيطة لا يتعدى 35 درهماً لليوم.

ويجب ألاّ ننسى أن غياب التصريح بالنشاط أثناء فترة الإحصاء ساهم بدوره في ارتفاع هذه النسبة، خاصة عند النساء، علماً أن عدداً كبيراً منهنّ يشتغلن بالنسيج ويُعْتَبَرْنَ مُعِينَاتٍ عائليات.

وإذا كان من الصعب الوقوف على خصوصية المدينة انطلاقاً من دراسة بنية

(1) Direction de la Statistique, Situation démographique régionale au Maroc, Analyse comparative, 1988.

أنشطة السكان التي تتشابه في كثير من المدن على الصعيد الوطني، فإن ما يلاحظ هو ضعف نسبة التشغيل عند النساء 23,18% مقابل 76,84% عند الذكور حسب إحصاء 1982. كما أن توزيع السكان حسب فروع القطاعات الاقتصادية قد يسمح لنا بالوقوف على خصوصية مدينة أبي الجعد.

2.1 ـ تشغل الصناعة التقليدية والخدمات نسبة كبيرة من السكان النشيطين

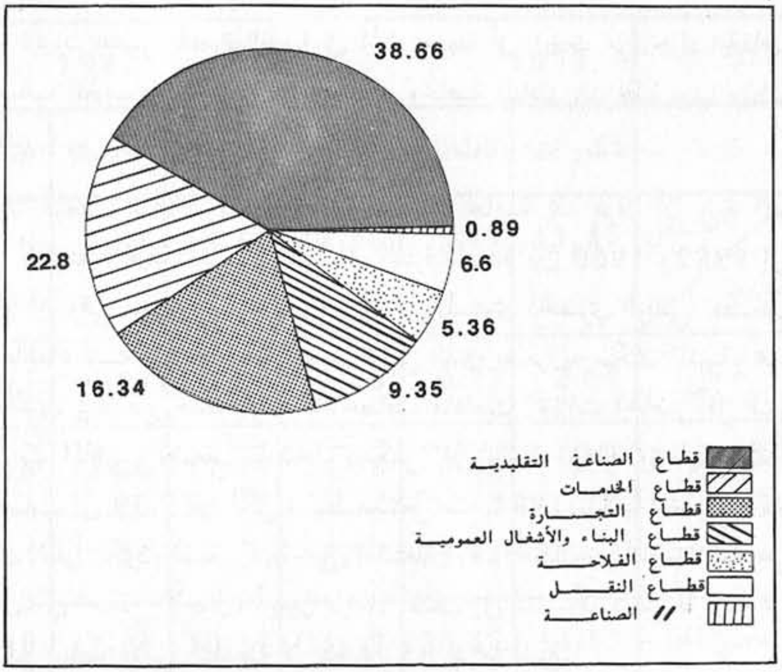

شكل رقم 1 : توزيع سكان أبي الجعد حسب فروع القطاعات الاقتصادية

هذا الشكل يظهر بوضوح أهمية قطاع الصناعة التقليدية في التشغيل. والتشغيل بهذا القطاع تميزت به المدينة منذ فترات قديمة، وكان سببا في توطيد نفوذها بالمناطق القريبة منها والبعيدة، إلى جانب وجود الزاوية. ورغم أهمية الصناعة التقليدية بالمدينة، فهي معرضة للانتكاسات المستمرة والمتمثلة في اختفاء بعض فروع هذه

الصناعة كالدباغة والصناعة المرتبطة بها وصناعة الدوم، وكذا اختفاء بعض الصناعات المرتبطة بالنسيج كالمُشُطِ والقرشال... إضافة إلى بعض الصناعات التي يمارسها اليهود كصناعة المنافيخ والغرابيل... وإذا كانت هذه الصناعات قد اختفت، فإن صناعات أخرى تحتضر كما هو حال صناعة الفخار رغم التغيرات التي شهدتها في السنوات الأخيرة. ومرد هذا التراجع إلى تعرض الصناعة التقليدية في عدد من المدن العتيقة، كصفرو وآزمور ومولاي إدريس زرهون، لمنافسة الصناعة العصرية وعدم قدرتها على مسايرة التطورات. على أن صناعتي النسيج والنجارة قد استطاعتا الصمود في وجه التحولات التي عرفتها المدينة، والحفاظ على قوتهما بل والزيادة في إنتاجهما والتمكن من تسويق هذا الانتاج وطنيا. وتصل منتوجات النسيج، خاصة الزرابي الصغيرة أو ما يعرف بالصَّلَّايات، إلى جهات عدة كالخميسات ومراكش وورزازات. ويتميز قطاع النسيج في أبي الجعد بصعوبة ضبط حقيقة ديناميته لكون هذه الصناعة تتم داخل المنازل، وتبقى المعرفة الخاصة بعدة أسر تمارس هذا النشاط على نطاق واسع والتردد على السوق الأسبوعي حيث يتم عرض المنتوجات أهم المصادر لضبط دينامية هذه الصناعة. ويعتبر قطاع النجارة من الصناعات القديمة بالمدينة والأكثر حيوية، وتوجه هذه الصناعة إنتاجها خاصة إلى عدة جهات من الأقاليم الشمالية والشرقية كتطوان والناضور ووجدة.. والمواد المسوقة هي بسيطة الصنع، نذكر منها الموائد والكراسي والصناديق. وحسب تصريح عدد من المعنيين، فإن المدينة تصدر ما يزيد عن 2400 مائدة في الشهر، وذلك عبر ثلاث طرق أساسية : عن طريق الصناع أنفسهم أو بالاشتراك مع غيرهم أو عن طريق التجميع، أي أن عددا من المستثمرين يشترون المنتوجات من عند صغار الصناع أو من عند الذين لا يحبون المغامرة، ويقومون بتسويقها؛ وكمية التسويق لا تتعدى في الغالب حمولة شاحنة. وتحديد الأسواق المتجه إليها تتحكم فيه عدة اعتبارات ذاتية واقتصادية بالأساس ويشكل عنصر الإخبار عاملا أساسيا في توجيه التاجر. ويرجع فضل استمرار هاتين الصناعتين لعوامل متعددة، أهمها :

* استمرار طلب المنسوجات ومنتوجات النجارة بسبب ازدياد السكان والتوسع العمراني.

* اقبال السوق الخارجي على هذه المنتوجات.

* انخفاض تكلفة الانتاج بالقياس إلى ثمن البيع، خاصة الزربيات.

* وفرة مادة الصوف سواء المحلية أو المستوردة من البيضاء ومراكش.

* دعم صناعة الجير الموجودة بالمنطقة لصناعة النجارة، حيث توفر لها المادة الخام (الخشب وأساسا خشب الأرز).

إن تشغيل هاتين الصناعتين لأعداد مهمةِ من السكان دليلٌ على أهميتهما. وقد ازداد عدد الوحدات الصناعية للنجارة فأصبح عددها 50،8% منها مركزة بالمدينة القديمة والأخرى موزعة على باقي جهات المدينة. كذلك ارتفع عدد المحلات التي تمارس فيها أنشطة النجارة وهي موزعة في كل أحياء المدينة وخاصة المدينة القديمة. وتعرف تجزئة الفتح بروز تجمع جديد للنجارة بعدما خلقت بها وحدة صناعية للنجارة منذ ربيع 1994 فتح عدد من المحلات للصناع. ونفس الشيء يمكن قوله عن قطاع النسيج، حيث تزايد عدد النساء اللائي يُتاجرن في مادة الصوف وخيوط الغزل. ووصل عدد باعة هذه المادة في خميس 1994/1/26 إلى 241 بائعة، في حين بلغ عدد العارضين لمصنوعات النسيج 95،245% منهم نساء. وتمارس النساء أيضا صناعة «الهدادن» ـ وهي إحدى فروع النسيج ـ، لكنها تستعمل في مادتها، عوض الصوف، الملابس القديمة بعدما تقطع على شكل خيوط. وتستعمل «الهدادن» كأفرشة عند الأسر ضعيفةِ الدخل، كما تكون مادة أساسية في صنع «البرادع» وأكياس الحبوب أو ما يعرف «بالتّلالَسْ». غير أن هذين القطاعين يعانيان من عدة مشاكل أهمها :

* التضخم، الشيء الذي ينجم عنه انهيار الأسعار.

* اشتداد المنافسة بين المنتجين التي تؤدي إلى عدة نزاعات.

* تطفل عدد من العناصر على قطاع النجارة، مما أدى إلى تضرر الصناع حيث قال بعضهم : «هاد الحرفة ولات مذلولة وولا غير لِّهَزْ منشار تيكَول أنا نجار».

* ضعف التنسيق بين المنتجين في قطاع النسيج وغياب شبه تام لدعم الدولة قصد تنظيمه وتمييزه وطنيا، على غرار الزربية الرباطية مثلًا، لاسيما أن المنسوجات البجعدية المسوقة تحظى بإقبال داخل الأسواق الكبرى كمراكش وورزازات...

ومن الصناعات المهمة كذلك، هناك الحدادة التي استطاعت مسايرة التطورات التي عرفها المجتمع المغربي ؛ وكادت هذه الحرفة أن تكون في خبر كان شأن الدباغة، لولا ارتباطها بالعالم القروي حيث تسد كل حاجياته من صفائح للدواب

وأدوات للعلف والحرث... أضف إلى ذلك أنها بقيت تستجيب لبعض متطلبات سكان المدينة. وتعتبر المخلفات الحديدية و«القصديرية» (براميل، هياكل السيارات، أسلاك..) المادة الأساسية لهذه الصناعة حيث تعمل على تكييفها وتحويلها لمنتوجات جديدة، هذه المنتوجات التي توجه أساساً إلى أرياف أبي الجعد وبعض المدن المجاورة كوادي زم وتادلة والفقيه بن صالح، في إطار الدورة التناوبية للأسواق الأسبوعية لمدن المنطقة بدءاً بسوق سبت أولاد النمة وانتهاء بسوق خميس أبي الجعد. وتعاني الحدادة من عدة مشاكل أهمها : منافسة الصناعة الحديثة وهشاشة الموقع الذي أقيمت عليه دكاكين الحدادين الذين يتعرضون من حين لآخر للنكبات بسبب فيضانات واد المزوضي (المالح).

ومن الأنشطة الأساسية كذلك صناعة الجير، التي تقدم على تحويل صخر الكلس إلى مادة الجير. وتشغل هذه الصناعة 5،41% من مجموع الحرفيين، وتتميز بحيويتها نظراً لجودة منتوجها الذي يجعلها مقبولة في المدن المجاورة وحتى في الدار البيضاء. ويوجد بالمدينة 20 كوشة تنتج[2] سنويا من 1500 إلى 1600 طن. وتعتمد هذه الصناعة على الخشب المستورد من مدينة خنيفرة، حيث يدخل الصانع أو المستثمر في قطاع الجير في علاقة وطيدة مع تجار الخشب بخنيفرة ومع النجارين بالمدينة. أما صخر الكلس، فهو متوفر بالمنطقة نظرا لكونها خضعت في تكوينها لـ Turonien، وهي فترة جيولوجية غنية بترسبات الكلس. وتعتبر هذه الصناعة من أكثر الصناعات استهلاكا لمادة الخشب على المستوى الجهوي. ومن المشاكل التي تعترض هذا القطاع : ارتباطه بمادة الخشب التي تؤدي ندرتُها إلى ارتفاع أثمنة الجير وتعطل عدد من المشتغلين في صناعته ؛ افتقاره إلى آليات طحن الجير وتعليبه ؛ ارتباطه بقطاع البناء الذي يؤدي ركوده إلى ركود صناعة الجير.

وإلى جانب هذه الأنشطة، هناك أنشطة أخرى لكنها لا تحظى بأهمية كبرى في تشغيل اليد العاملة كصناعة الفخار التي تميزت بأهميتها في المدينة منذ القديم حيث كانت تمد المدينة وأريافها بعدة مواد، خاصة الآجر وأواني تحصين الماء وأواني الطبخ .. لكن التحولات التي عرفها المغرب جعل صناعة الفخار تتعرض للغزو من طرف الصناعة الحديثة خاصة صناعة البلاستيك والألمنيوم، إلى جانب غزوها من

(2) تصريح السيد محتسب المدينة.

طرف فخار آسفي الملمّع ذي الجودة العالية. وقد أدخلت مؤخرا بعض التحولات على صناعة الفخار بغية الحفاظ على استمرارها وتمكينها من النهوض ومواصلة سد حاجيات العالم القروي. ومن مشاكل هذه الصناعة أيضا :

* ضعف رأس مال الحرفيين، مما يدفعهم إلى صنع منتوجات بطيئة تطرح صعوبة التسويق. مما جعل معظم أصحاب الحرف يعيشون في فقر دائم.
* عدم مواكبة منتوجات هذه الصناعة لمتطلبات السوق.
* غياب الدعم المادي والمعنوي من طرف الدولة بغية تكوين جمعيات أو تعاونيات تكون قادرة على مواجهة المنافسة.

وتوجد بالمدينة عدة صناعات تقليدية كالبرادع و«الوظيفة»، لكنها مهددة بالانهيار أمام التحولات العامة واستمرار الهجرة الريفية صوب المدينة بالنظر إلى أن استمرار عدة صناعات ارتبط بالعالم القروي كما سبقت الإشارة إلى ذلك. والجدول التالي يوضح توزيع العاملين حسب الحرف بمدينة أبي الجعد.

نوع الحرفة	%
النجارة	13,86
النسيج	18,44
الطرز والخياطة	11,93
الخرازة والتسفير	1,5
القلالة	2,69
الحدادة، القصدرة والتلحيم	4,15
حفر الآبار وقلع الأحجار	1,84
الجير	4,31

الصباغة والتجيار	1,54
البناء والتزليج	21,75
الآجور والقنوات والزليج	3,54
السفاجة والحلويات	0,73
المطاعم والمقاهي	2,92
الحلاقة	2,34
التصوير	0,77
الكهرباء والترصيص	1,92
إصلاح الساعات والآلات الكهربائية	0,88
ميكانيك وإنارة هياكل السيارات	1,77
إصلاح الدراجات	0,77
حرف أخرى	2,31
المجموع	100

جدول رقم 2 : توزيع العاملين حسب الحرف بأبي الجعد في مطلع 1994

المصدر : ـ محتسب المدينة
ـ مجمع الصناعة التقليدية
ـ البحث الميداني.

وإذا كان لقطاع الصناعة التقليدية نصيب مهم في تشغيل اليد العاملة، فإن قطاع التجارة والخدمات لا يخلوان من أهمية : فهما يشغلان على التوالي 16,34% و22,8%. ومن خلال النتائج الأولية للبحث الميداني الذي أنجزناه، تتضح سيادة عدة أصناف من التجارة بالمدينة. وتبقى تجارة المواد الغذائية هي الطاغية، حيث تتوفر المدينة على حوالي 900 محل تجاري، حوالي 50% منها للمواد الغذائية. وهاته الأخيرة تتفاوت من حيث بنيتها : فهناك المحلات البسيطة حيث رأسمال صاحبها يبدو ضعيفا من خلال نوع وحجم السلع الموجودة داخل محله. وهذا الصنف من التجار سائد بكثرة خاصة وسط الأحياء. بينما هناك محلات تجارية أخرى تتبدّى أهميتها من أول ملاحظة لنوع السلع المعروضة وحجمها. وتنتشر المحلات التجارية في كل جهات المدينة، لكنها تتجمع في جهات أكثر من غيرها. وأهم التجمعات التجارية هي :

* درب الغزاونة والسقاقي.
* ساحة محمد الخامس.
* درب الكَرعة.
* شارع الشهيد محمد المسكيني والسوق البلدي اليومي.
* شارع الحسن الثاني.
* شارع المجاهدين.

وإذا كانت تجارة المواد الغذائية مهيمنة في المدينة، فإن تجارة الملابس ومواد التجهيز والآلات الفلاحية ضعيفة نظراً لضخامة رأسمالها ولضعف القدرة الشرائية عند السكان، كما أن موقعها يتطلب الإقامة وسط المدينة، في حين نجد أن أثمنة الكراء في وسط المدينة مرتفعة بل تكاد محلات الكراء تكون منعدمة. هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية، فإن هذه الأنواع من التجارة عرفت تراجعاً من جرّاء آثار الهجرة الدولية نظراً لكون جل المهاجرين بالخارج يجلبون معهم الملابس وأدوات وآليات مستوردة للتجهيز المنزلي. وتضخم قطاع تجارة المواد الغذائية ساهمت فيه عدة عوامل أهمها :

* محدودية رأسمالية.
* عدم تطلبه لخبرة دقيقة كما هو شأن الحرف الأخرى.
* غياب فرص الشغل يدفع عدداً من المهاجرين وبعض المسنين أو المتقاعدين إلى ممارسة بيع مواد الغذاء.

ويمكن أن نضيف إلى هذا النوع التجارة المتنقلة التي تدخل ضمن القطاع غير المشكل، وهي الأخرى مهمة لكنها غير قارة نظراً لارتباطها بالغلات والمواسم. وفي هذا الصدد، نشير إلى التجارة المتنقلة والمُرتبطة بالأسواق لأن نسبة كبيرة من السكان يتعاطونها. أما قطاع الخدمات، فهو يشغل 22،8% ؛ وقد ارتبط هذا النشاط أساسا بازدياد حاجيات المدينة إلى عدد من الخَدمات. ويهيمن على هذا القطاع موظفو وزارة التربية الوطنية، حيث يمثلون أزيد من 30% من العاملين في قطاع الإدارة العمومية، رغم توسع المرافق الإدارية الأخرى واستقطاب المدينة لخدمات لم تكن حاضرة من قبل، حيث أصبحت تتوفر على ثلاثة أطباء ومحامٍ، وأصبحت بها أربع صيدليات ومقرّان للبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية. كما تم إحداث مستوصف جديد ومؤسسة مالية. وتزايد هذه الخدمات معناه تزايد الحاجيات السكانية لسكان المدينة الذين هم في تزايد مستمر. أضف إلى ذلك أن المدينة اليوم أصبحت ملزمة بتوفير حاجيات في مستوى متطلبات هؤلاء الوافدين الجدد، إذ غالباً ما كان يتجه عدد كبير من السكان لقضاء حاجياتهم من المدن المجاورة كوادي زم وخريبكَة وبني ملال.

وما نسجله في دراسة الأنشطة الاقتصادية هو خروج المرأة لمزاولة عدة أنشطة خدماتية وتجارية كبيع المواد الغذائية والألبسة، بل ممارسة بعض الأنشطة التي كانت مقتصرة على الرجال كالجزارة. ويجب أن لا ننسى أن الأنشطة الاقتصادية في المدينة لها ارتباط قوي بالأرياف المجاورة وبالتقلبات المناخية[3] بالمنطقة. فكلما كانت السنة الفلاحية جيدة، انعكس ذلك إيجاباً على التجارة والخدمات الحرة ؛ والعكس. وهذا ما جعل المدينة تعرف نزوحاً للسكان الريفيين الذين يتعاطون في مجملهم الزراعة التقليدية (الشعير والقمح بنوعيه الصلب والطري أساسا، إضافة إلى تربية الماشية وخاصة الأغنام)، من جراء الجفاف الذي أصاب المنطقة وكانت له انعكاسات على عدة قطاعات : كارتفاع نسبة البطالة، وتزايد السكن العشوائي، وتضخم تجارة المواد الغذائية، وكذا تعدد أنشطة الفرد الواحد[4] : فقد تجد هذا الفرد مساعد بناء طيلة الأسبوع، ويوم السوق الأسبوعي تجده خضاراً أو صاحب عربة يدوية للنقل (البضائع)، كما تجده تاجراً وفلاحاً أو حمالًا وفلاحاً... وهذا التعدد في الأنشطة يعد

(3) ديل إيكلمان، **الإسلام في المغرب**، ترجمة محمد أعفيف، جزء 1، 1991، صفحة 85.
(4) المرجع أعلاه.

من العوامل الأساسية التي تعوق ضبط حقيقة النشاط الممارس لعدد من الأفراد، وبالتالي صعوبة التصنيف. مما يجعلنا نتعامل بحيطة مع معطيات الإحصاء العام للسكان والسكنى.

ومن النقط الأساسية كذلك عدم قارّية عدد من الأنشطة الاقتصادية في الزمان والمكان. فهناك عدة أنشطة تظهر وتختفي في وقت وجيز. وهذا ما يفسر صعوبة الإدماج(5) داخل الشبكة الحضرية لمدينة أبي الجعد كما هو حال معظم المدن المتوسطة. كما أن عدداً من الأنشطة بدأت تتداخل فيما بينها تاركة النظام القديم الذي كان يحدد المكان الخاص بكل نشاط : فقد كنا نجد مثلا محلات خاصة ببيع الحبوب وأخرى بالزيت والحلاقة والخرازة ...، في حين تبقى تجارة المواد الغذائية موزعة داخل كل الأحياء.

ونشير كذلك إلى أن المدينة تتوفر على عدد من الأضرحة التي يعيش من ريعها عدد كبير من الأسر البجعدية الشرقاوية(6). كما أن ارتباط الزاوية بعدة قبائل يجعل مدينة أبي الجعد قبلة لعدد من الزوار، وخاصة عند انعقاد موسم بوعبيد الشرقي ؛ ويؤثر ذلك على الاقتصاد البجعدي حيث تتضاعف عدة أنشطة تجارية ويتحول عدد من العاطلين إلى نشيطين طيلة فترة الموسم. وفي غياب الفنادق، يشكّل كراء البيوت والمنازل وإقامة بوعبيد الشرقي دَخْلًا مهمّاً لعدد من الأسر، إضافة إلى نشاط قطاع النقل خاصة مع المناطق المجاورة، حيث تتردّد أعداد هامة من الزوار على المدينة خلال اليوم الواحد.

ونظراً لقلّة فرص الشُغل وعدم قدرة المدينة على احتواء عدد من الأنشطة، يضطر العديد من السكان إلى مغادرتها، خاصة الشباب المتمدرس إما لمتابعة الدراسة أو للشغل في جهات أخرى ؛ ويحافظ هؤلاء المهاجرون على ارتباطهم بأسرهم في أبي الجعد ويشكلون عنصراً أساساً يساعد على تحسين دخل الأسر البجعدية. وهذا العامل يسمح لنا بإعطاء فكرة مسبّقة عن البنية العمرية القاطنة في المدينة والتي تهيمن عليها الفئة التي يقل عمرها عن 21 سنة والتي يزيد عمرها عن 50 سنة.

(5) Robert Escalier, **Citadin et espace urbain au Maroc**, E.R.A. 706, Fax n° 9. 1981.

(6) Chafik. C., **Etude urbaine de Boujad, petite ville traditionnelle du Maroc**, 1991, Thèse du 3ème cycle, Nancy. Inédite

وانطلاقاً مما سبق، يمكن أن نستخلص أنَّ الطابع المميز للأنشطة الاقتصادية بمدينة أبي الجعد هو هيمنة الصناعة التقليدية المذكورة، وتضخم تجارة المواد الغذائية البسيطة، وبروز قطاع الوظيفة العمومية كمتنفس للمدينة. وعليه يمكن أن نقول إن مدينة أبي الجعد في الوقت الراهن هي مدينة للتقاعد ولا يمكن أن تستيقظ إلا بتطوير البنيات الاقتصادية وجعلها مواكبة للتحولات العامة والمتطلبات الحديثة. ولتضخم البطالة وضعف الدخل وعدم انتظام العمل، انعكاسٌ مجاليّ واضحٌ يتجلّى في طبيعة توسع المدينة ومستوى التجهيزات السكنية وكذا الضغط البشري على المساكن. وهذا ما سنعالج بعض قضاياه في الجزء الثاني من هذه المداخلة.

2 ـ التوسع الحضري : الفوضى والتباين المجالي

يتميز المشهد الحضري الحالي لمدينة أبي الجعد بالتباين، وذلك من خلال الأحياء المكونة للمدينة، وهي تعبر عن فترات تاريخية وعن مراحل توسع المدينة منذ التأسيس إلى الوقت الراهن. وهذا الاختلاف يمكن ملاحظته على عدة مستويات، منها مرفولوجية المدينة ونسبة التحضر. من هنا نتساءل عن مراحل التوسع العمراني ومميزات مرفولوجية المدينة والعوامل الفاعلة فيها والتي أعطت المشهد الحالي.

إن مرفولوجية مدينة أبي الجعد تبيِّن مراحل التوسع التي عرفتها المدينة وفي آن واحد حركة تمدين متأزم تجسدها تباينات المناظر الحضرية التي تعبر بدورها عن اختلال التوازنات الاقتصادية والاجتماعية. ويتجلى ذلك من خلال الأحياء، حيث نجد أحياء سكنية ذات أزقة ضيقة تنتهي في عدد من الجهات بالانغلاق، كما أنها تجسد المعمار الإسلامي. وهذه الأحياء ممثلة في المدينة القديمة. وإلى جانبها، نجد أحياء ذات تصميم محكم وأزقة متسعة وهي ناتجة عن الفترة الاستعمارية : كالحي الإداري وأبي الجعد الجديد والخطاطر... وفي المقابل، هناك أحياء عشوائية تتميز بتباين تجهيزاتها : إذ يتوفر بعضها على تجهيزات بسيطة كدرب السانية ودرب السلطان ... بينما تنعدم هذه التجهيزات في أحياء الصفيح. ويمكن رصد هذا التباين المجالي من خلال معرفة المراحل التي قطعتها المدينة في التوسع.

1.2 ـ المرحلة الأولى، وتمتد من التأسيس إلى 1883

وهي ـ كما يظهر ـ مرحلة طويلة. ورغم ذلك، يمكن تتبع مراحلها من خلال

خريطة رقم 1 : التوسع الحضري بمدينة أبي الجعد.

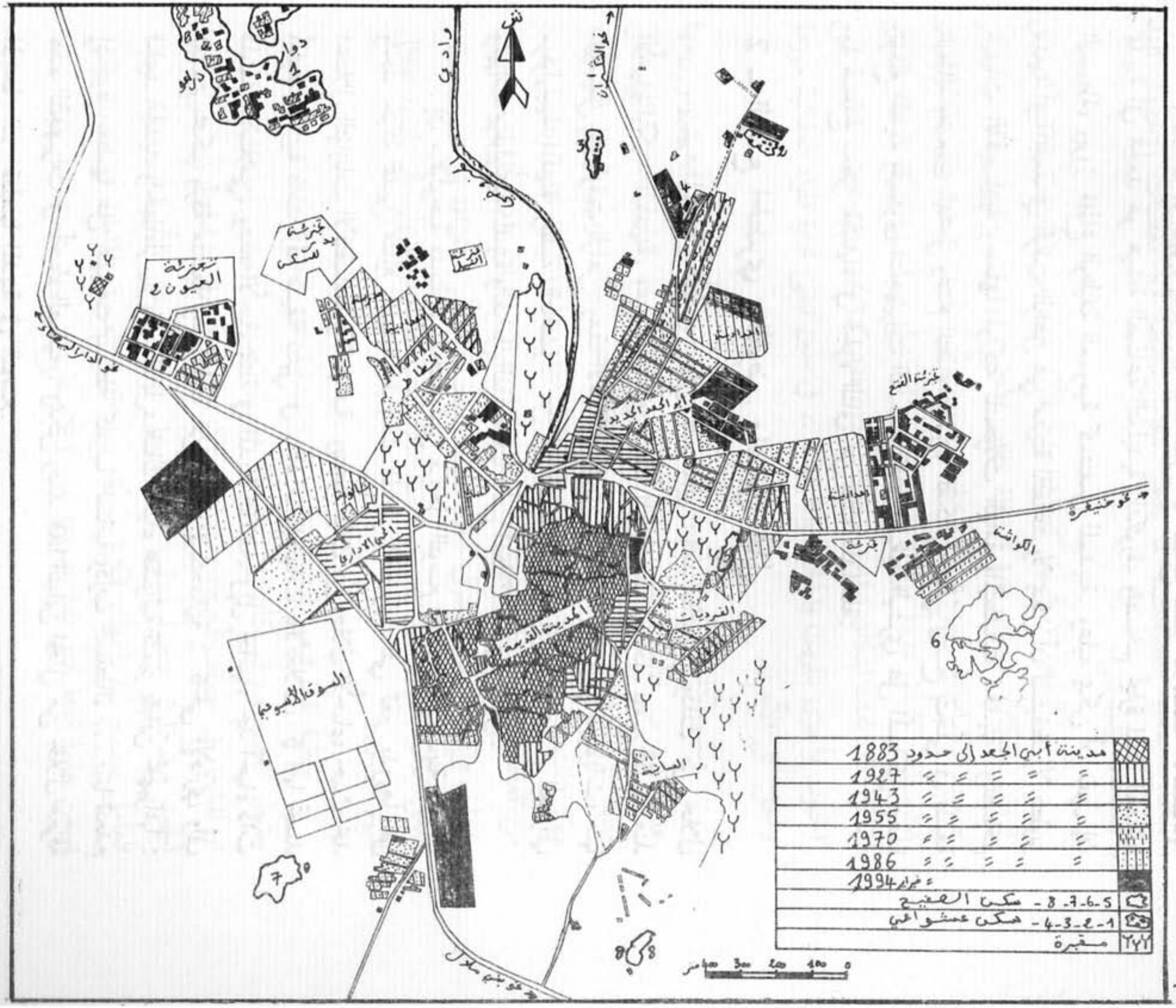

المؤشرات والأحداث التاريخية للمدينة المرتبطة بوجود الزاوية التي قوت نفوذها على جميع المستويات، فلفتت بذلك أنظار الجهاز المخزني والقبائل الميحطة بها. وتميزت هذه الفترة ـ رغم طولها ـ بالتجانس الاجتماعي والعمراني ؛ كما أن مورفولوجيتها شبيهة بمرفولوجية المدن العتيقة الأخرى كفاس والرباط ... لكنها تتميز عنها بغياب الأسوار الخارجية مع وجود أقواس كبرى عند مدخل كل درب. وعند كل قوس يوجد باب كان يغلق بعد العصر ؛ واستمرت عملية الإغلاق إلى العشرينات من هذا القرن.

2.2 ـ المرحلة الثانية أو مرحلة التوسع، وامتدت من 1883 إلى تركيز الاستعمار عام 1927

ارتبطت هذه المرحلة بقوة نفوذ الزاوية الشرقاوية، حيث انتقل عدد سكان مدينة أبي الجعد من 1700 نسمة سنة 1883 إلى 8879 سنة 1926، مع التحفظ نسبياً من مصداقية هذه التعدادات. لكن يبقى دور المدينة السياسي والاجتماعي من الأهمية بمكان. ورافق هذا التزايد السكاني توسع عمراني مهم، حيث ازداد تقريباً ثلث المدينة القديمة حالياً، وشمل عدة جهات ؛ لكنه حافظ على نفس المعمار القديم، وذلك لظروف أمنية باعتبار أن منطقة أبي الجعد من المناطق السائبة آنذاك. وبتركيز النفوذ الاستعماري بالمدينة، عرف التوسع الحضري شكلًا جديداً.

3.2 ـ المرحلة الثالثة أو مرحلة التوسع النسبي، وتمتد بين 1927 و1955

وتعتبر من أهم مراحل التوسع الحضري : إذ شكلت نقطة تحول عميق في إيقاع توسع المدينة وشكله،، حيث بدأت تظهر تصاميم حضرية من وضع المستعمر الفرنسي(7) عملت على تنظيم المجال وتوجيهه. ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين :

1.3.2 ـ من 1927 إلى 1943 :

وتميزت هذه المرحلة بضعف التعمير، وأُضيف إلى المدينة الحيُّ الإداريّ الذي رام المستعمر من خلاله إقامة مركز إداريّ لتسيير شؤون الأهالي ومراقبة قبائل الأطلس

(7) Eickelman D.F, «Forme symbolique et espace social urbain : Le cas de Boujad», **Revue Lamalif**, 1978 p. 44.

الثائرة، كما تم خلق نواة لحي جديد في الجهة الشمالية من المدينة (أبو الجعد الجديد) بعد بيع الأراضي للسكان والسماح لهم بالبناء وفق المخطط الفرنسي. وعرف هذا الحي بأبي الجعد الجديد وغالبية سكانه من المناطق المحادية لأبي الجعد. لكن عدم رغبة الفرنسيين في الاسقرار بأبي الجعد، نظراً لضعف ثرواتها واكتشاف الفوسفاط بالمناطق المجاورة وظهور قطاع سقوي بتادلة غير التوجه(8) الاستعماري صوب تلك المناطق شبه الفارغة والفقيرة الطاردة لسكانها سابقاً. وهذا ما جعل اقتصاد المدينة يتميز بالركود(9) الذي كرسه استمرار الهجرة نحو المراكز الاقتصادية الجديدة المجاورة وضعف النمو السكاني.

2.3.2 ـ مرحلة 1945 ـ 1955 :

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، استمرت فرنسا في تدعيم مخططها الاستعماري وتهجير السكان الريفيين من أراضيهم، هذا المخطط الذي ساعدت على نجاحه عوامل عدة أهمها السطو الذي تعرض له هؤلاء السكان من طرف بعض القواد المتعاونين مع الاستعمار، إضافة إلى عنصر الجفاف وما تلاه من عواقب. ونتج عن كل هذا ظهور تجمعات سكانية يختلف كل منها عن الآخر من حيث الانتماء القبلي. وهكذا نجد في جهة الشمال سيادة سكان جماعة الشكران، وفي الشرق سكان بني يتاو، والجنوب الشرقي سكان بني زرشل، وفي الجهة الغربية سكان جماعة تاشرفت.

2.4 ـ مرحلة الاستقلال : 1956 ـ 1994

في مطلع الاستقلال (1960) كان يقطن بالمدينة 14728 نسمة، مما جعل أبا الجعد تأتي في المرتبة 32 من حواضر المغرب على مستوى عدد السكان. ثم تراجعت لتحتل الرتبة 36 حسب إحصاء 1971، والرتبة 46 حسب إحصاء 1982. وإنَّ تتبُّعنا للتزايد الحضري بأبي الجعد وموقعها بين حواضر المغرب، ليُعطينا فكرة أولية عن حالة التعمير. فضعف التزايد معناه ركود المدينة عمرانياً : فكل ما عرفته المدينة عمرانياً إلى غاية 1970 تمثل أساساً في مَلْءِ الفراغات بين بعض الأحياء خاصة بدرب الشبوكي والقطاطر، إضافة إلى ظهور أنوية لحيين جديدين : الكواشة أو ما يعرف اليوم بالمسيرة والفرديات أي درب الداخلة. كما عرفت الفترة

(8) Eickelman. D.F, Forme symbolique et espace social urbain..., p. 43.

(9) مرجع سابق، إيكلمان، الإسلام في المغرب، ج 1، ص. 90.

بداية ظهور السكن العشوائي، حيث ظهر تجمع للسكن غير اللائق خلف ما يعرف اليوم بدار الشباب، وارتبط هذا الحي بهجرة فقر خاصة من الجماعات الشرقية. وبقيت وتيرة التزايد ضعيفة إلى غاية 1986، حيث تزايدت الهجرة القروية وتزايد معها السكن العشوائي فأصبحت مدينة أبي الجعد محاطة بهالات من السكن غير اللائق (انظر الخريطة)، نظرا لصعوبة إيجاد سكن بمركز المدينة. وأمام هذه العشوائية السكنية، حاول المسؤولون تنظيم المدينة بنقل السوق الأسبوعي من وسط المدينة إلى خارجها، وأقيمت مكانه حديقة محمد الخامس كمجال لتفسح سكان المدينة ؛ كما عرفت المدينة تغييرات وظائفية أخرى تمثلت في نقل عدة أنشطة من مكان لآخر. كما عرفت هذه الفترة خلق عدة مؤسسات للتعليم، وظهور حي للسكنى من النوع الاجتماعي (تجزئة العيون) ؛ لكنه ظل فارغاً لعدة سنوات، نظراً لما كان يحيط به من مشاكل. وعرفت الفترة كذلك ظهور عدة تجزئات سكنية في أبي الجعد الجديد. لكن عدداً منها ظل معلّقاً إلى يومنا هذا لأسباب خاصة؛ وهو دليل على تعمير فاشل.

ومن خلال تتبعنا لرخص البناء من 1980 (الشكل رقم 2)، يظهر أن

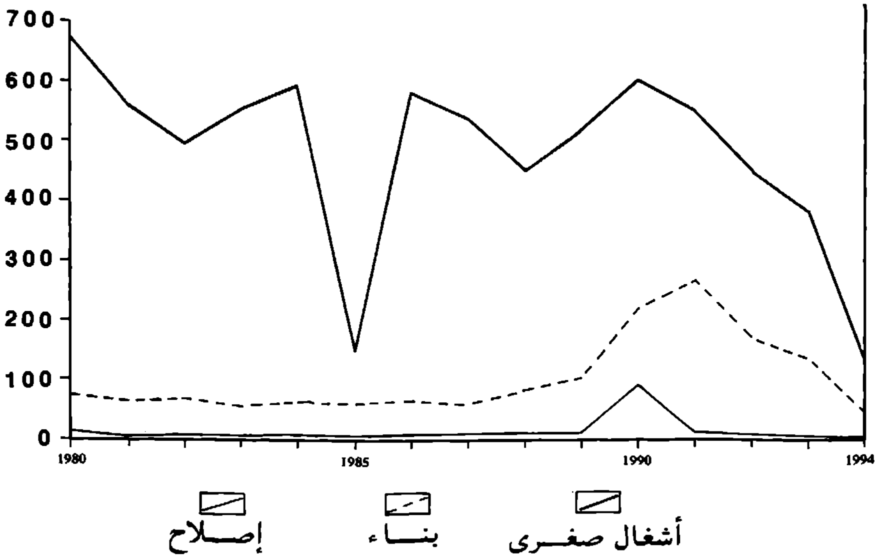

شكل رقم 2 : توزيع رخص الأشغال المرتبطة بالبناء.

عملية البناء كانت ضعيفة، بل عرفت ركودا إلى بداية 1990، حين أخذت في الارتفاع، وارتبط هذا بخلق عدة تجزئات تتفاوت من حيث مساحتها، كتجزئة الرفاعي وبن سيدة والفتح. والملاحظ أن بعضاً من هذه التجزئات أقيم على حساب اجتثاث بعض البساتين كجنان بن رحال، بينما سجلت وتيرة الأشغال الصغرى ذات الأهمية. وتشمل هذه الأشغال جميع أنواع الإصلاحات التي يقوم بها الفرد في مسكنه باستثناء عملية البناء. ومن هذه الإصلاحات فتح أبواب جديدة من المنزل الواحد، الشيء الذي يعني أن عدداً من المنازل تخضع لعملية التقسيم بسبب الإرث أو البيع. كما أن عدداً من الفنادق، وبعد تغيير وظيفتها (إيواء الدواب)، سخرها أصحابها لأنشطة جديدة كالسكنى والتجارة. لذا لم تظهر لنا حركة توسع عمراني بقدرما ظهر التكدس وملء الرحبات الفارغة. نتج عن ذلك فوضى في أرقام المنازل والدكاكين. وهذا دفع بالمسؤولين إلى إعادة ترقيم الأحياء وتسميتها. وعرفت المدينة كذلك بداية التوسع العمودي خاصة في الأحياء الجديدة. وأهم طفرة سكنية عرفتها المدينة كانت مع بداية 1991، حين ظهرت تجزئات كبرى كتجزئة الفتح والحيمر بالواجهة الشرقية وتجزئة العيون بالواجهة الغربية. ورافق تزايد التجزئات السكنية استفحال ظاهرة السكن غير اللائق واستمرار البناء العشوائي، خاصة في الجهة الشمالية للمدينة (الصورتان).

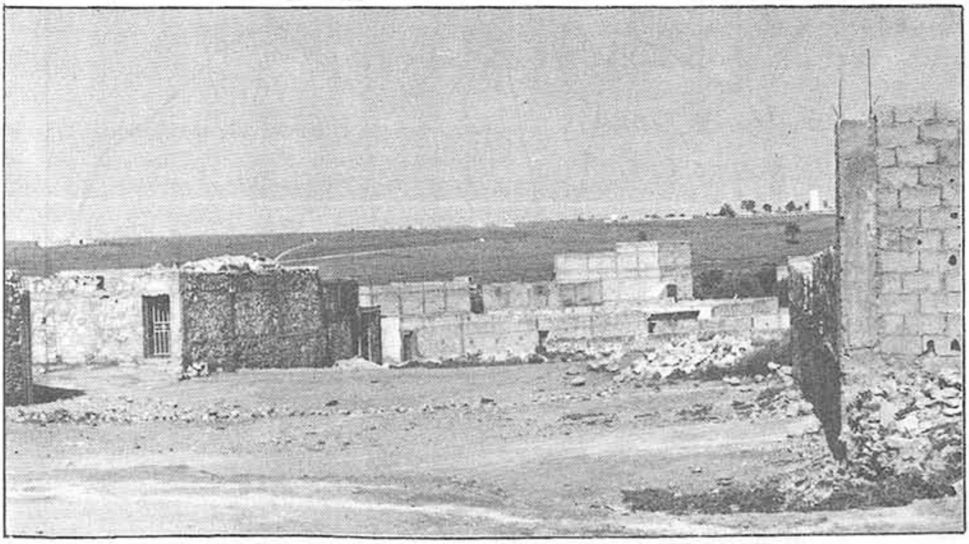

الصورة رقم 1 : نموذج من السكن العشوائي : طريق الشكران.

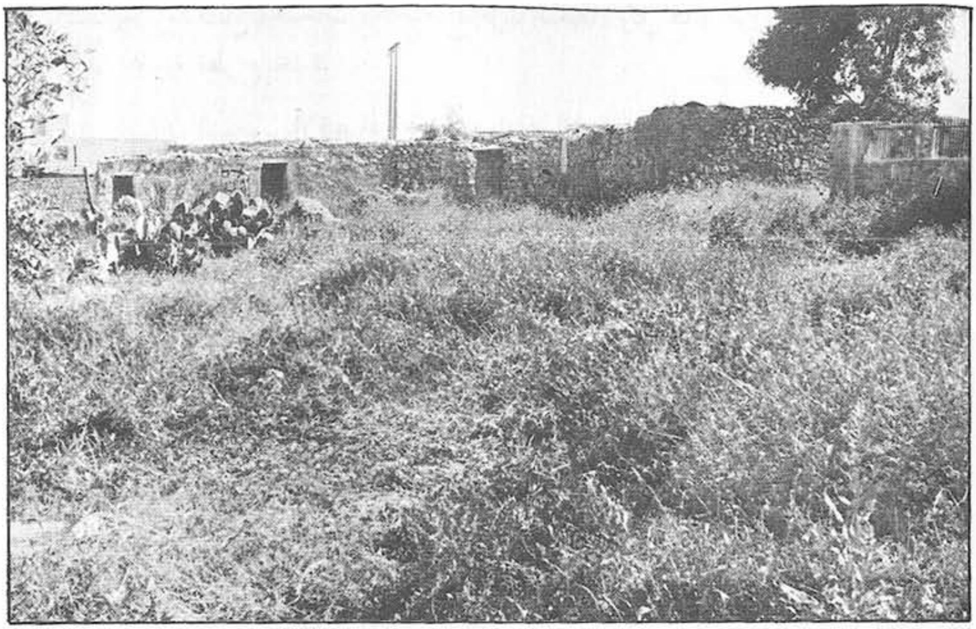

الصورة رقم 2 : نموذج من السكن غير اللائق : طريق بني عيسى.

وأصبحت مسألة السكن اليوم تشكل معضلة المدينة. فظهور أحياء تعاني من غياب أبسط التجهيزات تنتج عنه عواقب وخيمة سواء على السكان أو على المناطق المجاورة لهذه الأحياء كما هو حال منازل طريق الشكران مثلا، التي تصب مياه مجاريها في البستان المجاور. مما يرفع من درجة التلوث الذي تسبب في أمراض وتسممات يبقى المتضرر الأول والأخير منها هو الإنسان.

خلاصة

تعرضت في هذه المداخلة للأنشطة الاقتصادية والتوسع الحضري، ورمت من خلال ذلك إلى الوقوف على بعض الجوانب الاقتصاديّة والعمرانيّة ؛ مما مكّنني من استخلاص الملاحظات الأساسية التالية :

ـ إن الصناعة التقليدية تعاني من التدهور الذي لحقها ؛ أما التجارة، فتعاني من التضخم، وخاصة تجارة المواد الغذائية، وكذلك من نقص أو غياب بعض الفروع

التجارية؛ وأما قطاع الخدمات الخاصة، فمازال ضعيفاً. وكل هذه عوامل تجعل جاذبية المدن المجاورة تطرح بحدة.

ـ إن النهوض بالاقتصاد الحضري وتوفير الشغل لن يتأتّيا إلّا بتطوير البنيات التّحتيّة وتشجيع الاستثمارات الخاصة وتمتين العلاقات بين المدينة وأريافها، وكذلك بدعم الصناعة التقليدية وتكييفها مع متطلّبات الحاضر.

ـ وإذا كان التعمير قد تميز في الفترات القديمة بزحف المدينة من الوسط نحو الجوانب، فإنه في الفترات الأخيرة عرف قفزات نحو مناطق هامشية ؛ مما جعله يتميز بالعشوائية. وقد كلف ويكلف إدماج هذه الأحياء الهامشية أموالًا ومجهودات كبيرة. لذا نرى من اللّازم إعداد تصاميم تهيئة للمجال مع مراعاة خصوصياته بغية تنظيم المدينة ودمجها داخل الشبكة الحضرية العامة.

المراجع

1 ـ المصالح الإدارية :

* المكتب التقني ببلدية أبي الجعد

* مجمع الصناعة التقليدية بأبي الجعد

* محتسب المدينة.

2 ـ كتب ومجلات ورسائل :

* أحمد بوكاري، **الزاوية الشرقاوية، زاوية أبي الجعد، إشعاعها الديني والعلمي**، 1985.

* ديل إيكلمان، **الإسلام في المغرب**، ترجمة محمد أعفيف، 1989.

* عبد اللطيف بنشريفة، **بعض الملاحظات حول التوسع الحضري الحديث لمدينة آسفي** (أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة آسفي) 1988.

Chafik. C., **Etude urbaine de Boujad, petite ville traditionnelle du Maroc**, 1991, thèse du 3e cycle, Nancy. Inédite,

Cimetière, J., «Notice sur Bou Djad», **R.R.M.**, n° 24, 1913.

Direction de la Statistique, **Recensement général de la population**, 1971 et 1982.

— — — **Situation démographique régionale au Maroc, Analyse comparative**, 1988.

Driss Wahbi, **Moulay Idriss, évolution d'une petite ville traditionnelle en crise**, Tours, 1984. Thèse inédite.

Eickelman D.F., «Forme symbolique et espace social urbain : le cas de Boujad», **Revue Lamalif**, n° 97, 1978.

Photos Aériennes, Missions 1927, 1955, 1970, 1982, 1986,, 1991, 1994.

Pierre Milovanovitch, «Habitat périurbain, transformation de la famille et habitat», **Actes du colloque**, cahier n° 120, Institut Français d'Urbanisme 1986.

التطور الديموغرافي والهجرة الداخلية بمدينة أبي الجعد

منير صالح
أستاذ باحث

تُصَنَّف مدينة أبي الجعد ضمن المدن المغربية المتأزمة، وهي بذلك يحتمل أن تكون مدينة مرسِلة أكثر منها مستقطِبة. والسؤال الذي نعتقد بإجرائية طرحه الآن، وتمشياً مع هذا المنظور، هو: هل يعرف النمو الديموغرافي تطوراً سلبيّاً وبذلك لا يطرح أي إشكال ؟ أم أن هذا الوضع الديموغرافي يعرف تطوراً إيجابيّاً، وهنا نجد أنفسنا ملزمين بالتساؤل عن مركبات هذا التطور الديموغرافي هل يعزى أساساً إلى الزيادة الطبيعية ؟ أو هو محصلة بين الزيادة الطبيعية والحركة الميكانيكية، ومن ثم ماهي المجالات الجغرافية التي تغذي هذا النوع الثاني من الزيادة ؟ وكيف يتوزع داخل المجال الحضري البجعدي ؟

فإشكالية تدخلي يمكن اختزالها إذن في نقطتين :

1 ـ إبراز صيرورة الوضع الديموغرافي بمدينة أبي الجعد.

2 ـ علاقة الهجرة بالتطورين الديموغرافي والمجالي.

1 ـ التطور الديموغرافي لمدينة أبي الجعد : دراسة مقارنة

سأحاول رصد التطور الديموغرافي لمدينة أبي الجعد منذ 1888 إلى الفترة الراهنة. وسأختزل هذا التطور في أربعة مراحل :

• **المرحلة الأولى 1883 ـ 1936 :**

مما لاشك فيه أن مقومات الِاقتصاد المغربي، قبل الاستعمار الغربي، كانت ترتكز في مجملها على الانتاج الفلاحي الذاتي والصناعة التقليدية والتجارة، كما أن مدنا أخرى كانت تستفيد من بعض الِامتيازات الإضافية كالبعد الديني نتيجة احتضانها لبعض الزوايا.

فمدينة أبي الجعد تعتبر واحدة من هذه المدن، إذ كان ظهيرها يعرف نشاطاً فلاحياً قوامه الزراعة وتربية الماشية. كما أن المدينة كانت تعرف مجموعة من الأنشطة الاقتصادية المهمة آنذاك، بعضها انقرض بصفة نهائية كالدباغة وبعضها الآخر تراجع كصناعة الخزف والآجر، علاوة على الثقل الديني الذي كانت تتمتع به والذي ساهم إلى حد بعيد في تقوية نفوذها.

انطلاقاً من هذا الوضع، فإن مدينة أبي الجعد كانت تتوفر على كل المؤهلات التي تجعلها تتميز بوضع ديموغرافي متطور آنذاك. وهكذا بلغ عدد سكان مدينة أبي الجعد 1.700 نسمة سنة 1883، ليصبح 10.211 نسمة سنة 1936. وقد بلغ معدل الزيادة السنوي خلال هاته الفترة 161 نسمة. وظلت مدينة أبي الجعد تحتل المرتبة الأولى ديموغرافيا بالنسبة لمجموع مدن المنطقة كخريبكَة ووادي زم وقصبة تادلة وبني ملال.

• **المرحلة الثانية 1936 ـ 1960 :**

ابتداء من سنة 1936 بدأت مدينة أبي الجعد تخضع للمنافسة الديموغرافية من لدُن بعض المدن المجاورة حيث أصبحت تحتل المرتبة الثانية بعد مدينة بني ملال بفارق 260 نسمة (الجدول رقم 1). إلاَّ أنها بقيت الأولى بالنسبة للمدن الصغرى كمدينة الفقيه بن صالح وقصبة تادلة (الشكل رقم 1).

الجدول رقم 1 : التطور الديموغرافي لبعض مدن المنطقة

المركز / السنوات	1936	1952	1960	1971	1982
خريبكة	8011	20365	40838	73667	127181
الفقيه بن صالح	3187	6654	13484	26918	47540
قصبة تادلة	7409	8789	11733	15776	28332
أبي الجعد	10211	11389	14728	18838	28308

عرف التطور الديموغرافي استقراراً خلال هاته الفترة كما يبدو ذلك من خلال الشكل رقم 1. فالمنحنى الذي بين أيدينا عبارة عن خط شبه مستقيم منذ 1936 إلى 1960. إلاّ أنه بالرغم من هذا الإستقرار، فإن مدينة أبي الجعد ظلت متفوقة ديموغرافياً على مدينتي الفقيه بن صالح وقصبة تادلة (الشكل السابق). وقد بلغ معدل الزيادة المطلقة سنوياً 188 نسمة، إلاّ أن هذا المعدل بلغ 256 نسمة بمدينة تادلة و452 نسمة بالفقيه بن صالح.

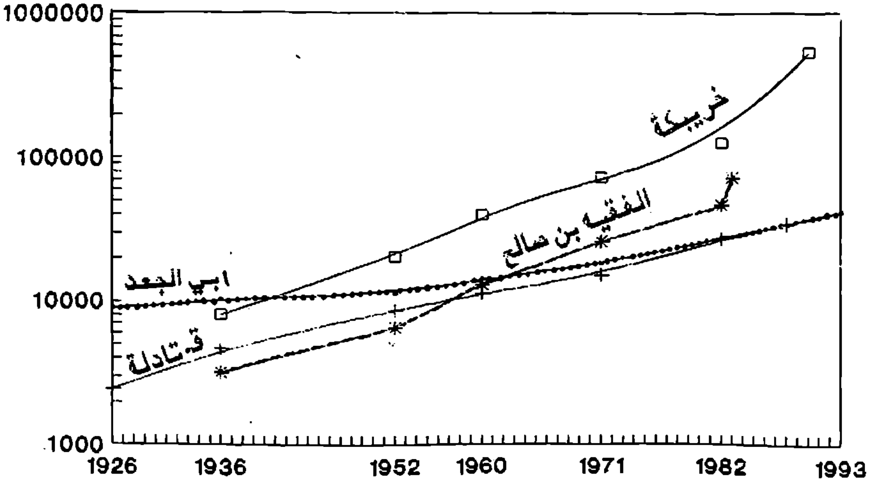

الشكل رقم 1 : مقارنة التطور الديموغرافي لمدينة أبي الجعد وبعض المدن المجاورة

إن ما يمكن استخلاصه من الرسم السابق هو ضعف التطور الديموغرافي لمدينة أبي الجعد خلال هاته الفترة، ويعزى هذا الضعف إلى النكسة الإقتصادية التي عرفتها المدن العتيقة مقارنة بجيل جديد من المدن المغربية التي أفرزتها عصرنة نظام الإنتاج الفلاحي المتجلي في إدخال السقي العصري، ونخص بالذكر مدينة الفقيه بن صالح التي لم تكن ساكنتها تتعدى 3.187 نسمة سنة 1936 مقابل 10.211 بالنسبة لمدينة أبي الجعد (الجدول رقم 1). إلاَّ أن هذا الوضع سيتغير بعد 1960.

• **المرحلة الثالثة 1960 - 1971 :**

ظل التطور الديموغرافي بطيئاً خلال هاته الفترة أيضا. فالزيادة السكانية لم تتعد 4110 نسمة، أي بمعدل سنوي بلغ 373 نسمة فقط، بينما بلغ هذا المعدل بمدينة الفقيه بن صالح 1329 نسمة. بيد أن نسبة النمو السنوي لم تتجاوز خلال هاته الفترة 2،21% مقابل 6% بالنسبة لمدينة الفقيه بن صالح. فمدينة أبي الجعد أصبحت تعرف إذن منافسة ديموغرافية غير متكافئة سواء مع مدن السقي العصري أو مع مدن الفوسفاط.

إن التطور الإقتصادي الذي عرفته المدن المجاورة جعل نفوذ مدينة أبي الجعد يتقلص تدريجيّاً. وعموماً فقد انتقل مجموع سكان مدينة أبي الجعد أثناء هاته الفترة من 14.728 نسمة سنة 1960 إلى 18.838 نسمة سنة 1971. فهاته الفترة عرفت بدورها تطوراً ديموغرافيّاً، لكنه بطيء.

• **الفترة الأخيرة 1971 - 1993 :**

تتميز هاته الفترة بتغير محسوس لمنحنى التطور الديموغرافي (الشكل رقم 1). ويزداد تطور المنحنى تدريجيّاً منذ الثمانينات إلى الفترة الراهنة. بيد أن نسبة النمو السنوي ارتفعت نسبيّاً، حيث انتقلت من 2،21% خلال الفترة السابقة إلى 3،61% حسب إحصاء 1982. وهكذا ارتفع مجموع السكان من 18.838 نسمة سنة 1971 إلى 28.308 نسمة سنة 1982، ليصبح 41.814 نسمة سنة 1993.

وإذا ما قارنّا مدينة أبي الجعد بمدينة الفقيه بن صالح، نلاحظ انقلاباً ديموغرافياً بدأ منذ 1960 (الشكل رقم 1).

تأسيساً على المعطيات السابقة، نلاحظ أن مدينة أبي الجعد عرفت تطوراً ديموغرافياً بطيئاً بدأ منذ الثلاثينات إلى حدود 1960، ثم تغيرت وتيرة هذا التطور منذ 1971 إلى الفترة الراهنة.

فرغم التأزم الإقتصادي الذي تعرفه مدينة أبي الجعد والذي نجمت عنه هجرة طاردة من المدينة بل ومن أريافها أيضا. ورغم النفوذ الإقتصادي الذي تمارسه مجموعة من المدن المجاورة (خريبكة وبني ملال والفقيه بن صالح)، فإن التطور الديموغرافي لم يتراجع وإنما بقي مستقراً أو عرف تطوراً بطيئاً. وهنا أعود إلى السؤال الذي طرحته في بداية هذا العرض والمتعلق بمركبات هذا التطور الديموغرافي. فهل ساهمت الهجرة الداخلية في هذا التطور ؟ وبالتالي هل تعوض التيارات الهجرية المنطلقة من مدينة أبي الجعد بتيارات من المناطق القروية المجاورة ؟

2 ـ علاقة الهجرة الداخلية بالتطورين الديموغرافي والمجالي لمدينة أبي الجعد

يعتبر النزوح القروي من أهم الحركات المجالية الداخلية بالمغرب والتي تساهم في التطور الديموغرافي الحضري بشكل عام. وقد كان هذا النزوح ضعيفا خلال الأربعة عقود الأولى كما يبرز ذلك من خلال الشكل رقم 2. فالمعدل السنوي للنزوح القروي نحو المدن كان لا يتعدى 18.000 نسمة ؛ إلا أنه بلغ في الفترة الأخيرة 271.000 نسمة.

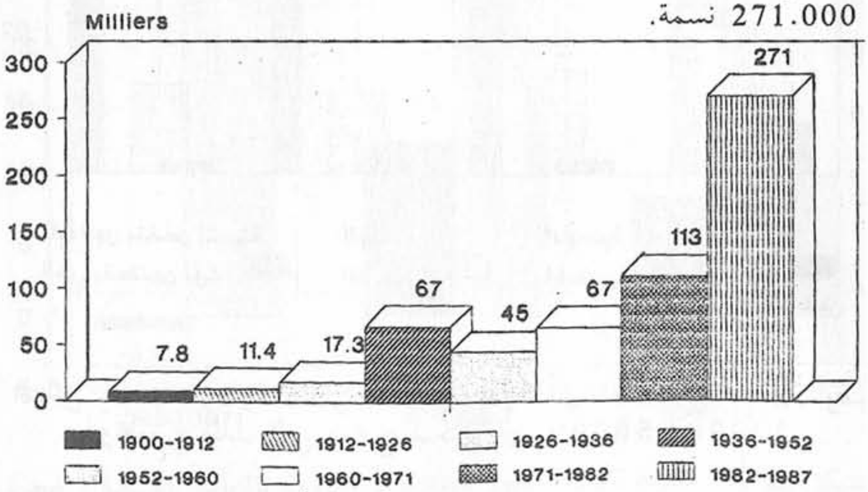

الشكل رقم 2 : تطور الهجرة القروية نحو المدن على المستوى الوطني

فالهجرة الداخلية تساهم بشكل عام في التطور الديموغرافي بالمدن المغربية، وخاصة داخل المدن التي تتوفر على بنى تحتية تستقطب هؤلاء المهاجرين. فهل تعتبر مدينة أبي الجعد من بين المدن التي ساهمت الهجرة الداخلية في تطورها الديموغرافي رغم بطئه. ذلك ما سنسعى إليه من خلال إبراز التركيبة الديموغرافية واستخراج نسبة السكان الذين ينحدرون من أصول جغرافية مختلفة ابتداء من 1960.

• **الفترة 1960 – 1971 :**

رأينا من خلال الشكل رقم 1 أن التطور الديموغرافي بمدينة أبي الجعد بدأ يرتفع مع بداية الستينات. وقد أكدت الدراسة التي قام بها إيكلمان أن نسبة أرباب أسر المهاجرين المزدادين بمدينة أبي الجعد بلغت 54% بينما بلغت نسبة أرباب الأسر الوافدين من أصول جغرافية مختلفة 46%.

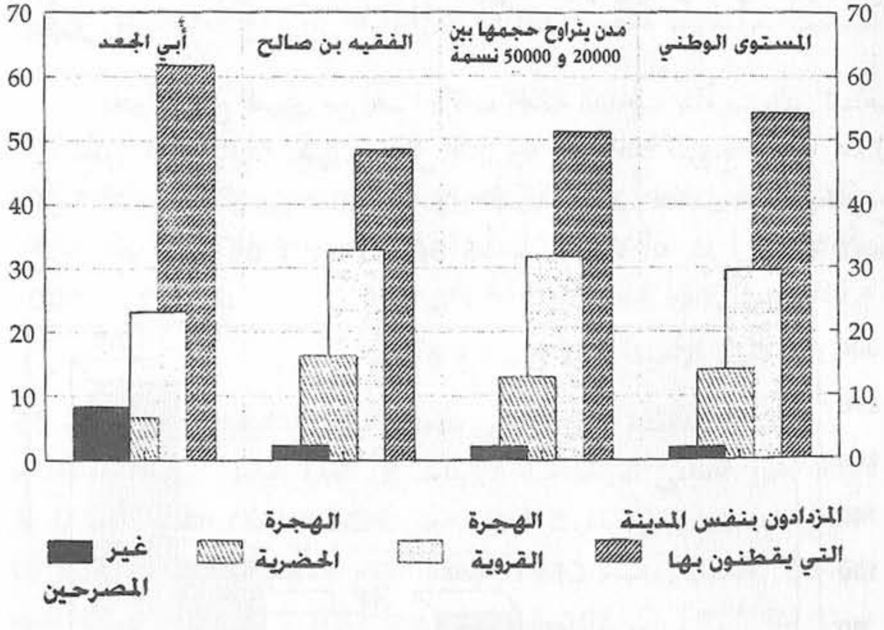

الشكل رقم 3 : مقارنة الهجرة الداخلية لمدينة أبي الجعد مع المعدل الوطني ومجموع المدن التي يتراوح سكانها بين 50000 و20000

إن هاته الدراسة توضح أهمية الهجرة الوافدة على مستوى أرباب الأسر، إلا أنه في نهاية الستينات وانطلاقاً من إحصاء 1971 تبيَّن أن الهجرة الوافدة على مدينة أبي الجعد لم يكن لها أي فضل في التطور الديموغرافي، وإنما تم هذا التطور بفعل الزيادة الطبيعية فقط. فالحصيلة الهجرية لهاته الفترة كانت سلبية حيث بلغ صافي الهجرة 170 نسمة، وبالتالي فإن نسبة النمو المرتبط بالهجرة الداخلية بلغ 0،9% بينما بلغت هاته النسبة 37% بمدينة الفقيه بن صالح.

فمدينة أبي الجعد فقدت خلال هاته الفترة جزءاً من ساكنتها نحو جهات مغربية أخرى لم تستطع تعويضه من تيارات الهجرة الوافدة عليها. إن هذا الوضع يعتبر مؤشراً من مؤشرات تأزم المدينة اقتصادياً ما دامت لم تستطع تثبيت سكانها.

• **الفترة 1971 – 1982 :**

تزايدت وتيرة التطور الديموغرافي بشكل بيِّن منذ 1971 (الشكل رقم 1). فقد بلغ النمو الديموغرافي الحقيقي للمدينة خلال هاته المرحلة 9.470 نسمة، كما بلغ معدل التزايد السنوي لهاته الفترة 680 نسمة.

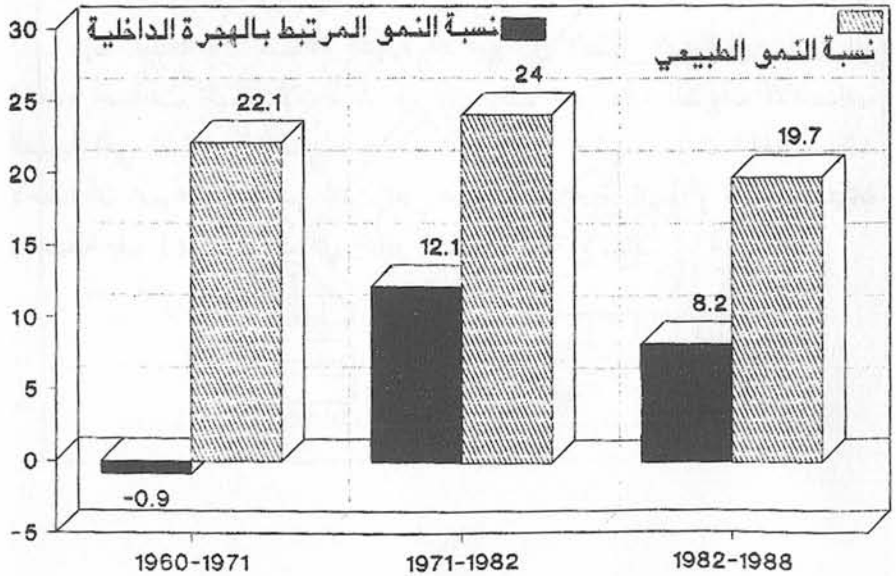

الشكل رقم 4 : مقارنة نسب التطور الديموغرافي المرتبط بالزيادة الطبيعية والهجرة

أصبح صافي الهجرة إيجابياً خلال هاته الفترة، فكانت الزيادة المرتبطة بالهجرة الوافدة 3.175 نسمة. ومن ثم فإن نسبة النمو الديموغرافي المرتبط بالهجرة الداخلية بلغ هو الآخر 12،1% بعد أن كان 0،9% (الشكل رقم 4). فالهجرة الداخلية ساهمت إذن ب 38% حسب إصدار جديد لمديريَّة الإحصاء 19.931.

• **الفترة 1982 ـ 1993 :**

عرفت هاته الفترة استمراراً للتطور الديموغرافي السابق كما يتضح ذلك من الشكل رقم 1. فمجموع السكان انتقل من 28.308 نسمة حسب إحصاء 1982 إلى 41.814 نسمة سنة 1993 حسب تقديراتنا بالإعتماد على نسبة الزيادة السنوية للفترة السابقة. وقد كانت الزيادة المطلقة لهاته المرحلة 13.506 نسمة، بمعدل زيادة سنوي بلغ 1.222 نسمة. إن هذا الإرتفاع يُعزى أساسا إلى الهجرة الداخلية الوافدة على مدينة أبي الجعد. فقد بيَّنت إحدى الدراسات التي أقيمت على مدينة أبي الجعد أن الحصيلة الهجرية كانت إيجابية أيضا خلال الفترة (1982-1988)، حيث بلغت نسبة الزيادة المرتبطة بالهجرة الداخلية 8،2% (شفيق 1990).

إننا نعتقد بأن مساهمة الهجرة الداخلية في التطور الديموغرافي بمدينة أبي الجعد، أصبحت مهمة الآن أكثر من أي وقت آخر نظرا للظروف الاقتصادية الصعبة التي تعرفها الأرياف المغربية غير المسقية مع تعاقب سنوات الجفاف. فقد لاحظنا أن مجموعة من الأسر تخلت عن حيازاتها الفلاحية بالبيع أو بتركها مستريحة (الخريطة رقم 1) في غياب أي إنتاج يضمن كرامة الإنسان.

إلا أن توافد الهجرة القروية على مدينة أبي الجعد لا يعني أن هاته الأخيرة المرتبطة بالهجرة الداخلية 8،2% (شفيق 1990).

الخريطة رقم 1

ظاهرة التخلي عن الحيازات الفلاحية أثناء الهجرة إلى المدينة

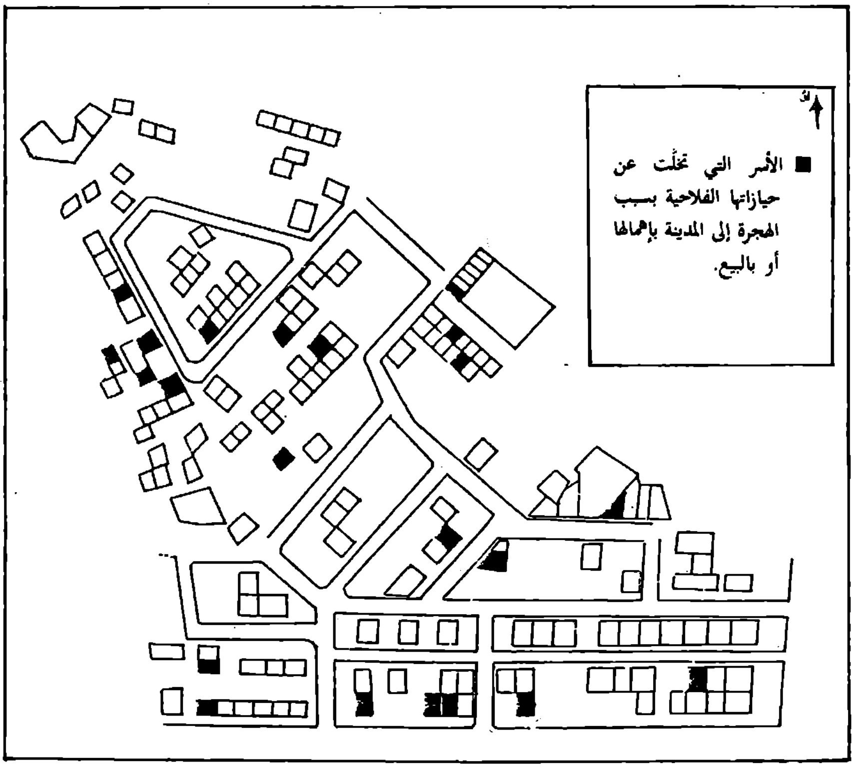

بعد إبراز الوضع الديموغرافي الذي عرفته وتعرفه مدينة أبي الجعد، وعلاقته بالهجرة الداخلية، فإنني أتساءل عن مصدر هاته الهجرة وكيف تتفاعل مع المجال.

3 ـ الأصل الجغرافي للمهاجرين الوافدين وتوزيعهم داخل مدينة أبي الجعد

أسلفت في بداية هذا العرض أن مدينة أبي الجعد تعتبر من المدن المتأزمة والتي تفتقر إلى بنيات تحتية اقتصادية. ومن ثم فإن دائرة نفوذها يحتمل أن لا يتعدى قطرها ثلاثون كيلومتراً في أحسن الأحوال نحو المناطق الريفية. وتأسيساً على هذا المنطق، فإن الهجرة الوافدة إلى مدينة أبي الجعد يفترض أن تكون هجرة قروية وتحديداً من الجماعات القروية المجاورة. فقد أكدت إحدى الدراسات أن نسبة أرباب أسر المهاجرين الذين ينتمون إلى أصول جغرافية بعيدة بمدينة أبي الجعد لم تتعد 11% سنة 1963 (Eicklman, D 1980)، و6% سنة 1971 (Escalier, R. 1981). و6،58% سنة 1982.

يبدو من خلال هاته الأقام أن الهجرة الداخلية إلى مدينة أبي الجعد هي هجرة جهوية بالأساس. إلا أنني أتساءل ثانية عن تركيبة هاته التيارات الهجرية هل من أصول جغرافية قروية مجاورة أو من أصول جغرافية حضرية ؟ لقد تبين من خلال دراسة الأصول الجغرافية لأرباب أسر المهاجرين بمدينة أبي الجعد أن 92،5% منهم قدموا من مناطق قروية، وأن 79،5% منهم قدموا من المناطق القروية المجاورة (شفيق م. 1990). وقد بلغت هاته النسبة 80% سنة 1994 داخل تجزئة الفتح كما نلاحظ في الخريطة رقم 2.

وتبرز الخريطة السابقة مجموعة من الملاحظات :

* أهمية الأسر الوافدة من جماعة بني بتاو حيث شكلت 45% من مجموع الأسر المستقرة بهاته التجزئة، مقابل 20% بالنسبة لجماعة بني زرنتل و15% بالنسبة لجماعة الشكران.

* التركزات الميكروجغرافية للأسر المنحدرة من نفس الدوار أو الجماعة، كما نلاحظ ضعف الأسر التي تنتمي إلى جماعة تاشرافت : إذ لا تتعدى نسبتها 1% من مجموع سكان هاته التجزئة. إلا أن دراسة أخرى، وداخل جهات متفرقة بالمدينة

أبانت أن نسبة الأسر التي تنتمي إلى هاته الجماعة الأخيرة بلغت 39% مقابل 22،6% بالنسبة لجماعة بني بتاو.

الخريطة رقم 2

الأصول الجغرافية لأرباب أسر المهاجرين بمدينة أبي الجعد : نموذج تجزئة الفتح ماي 1994

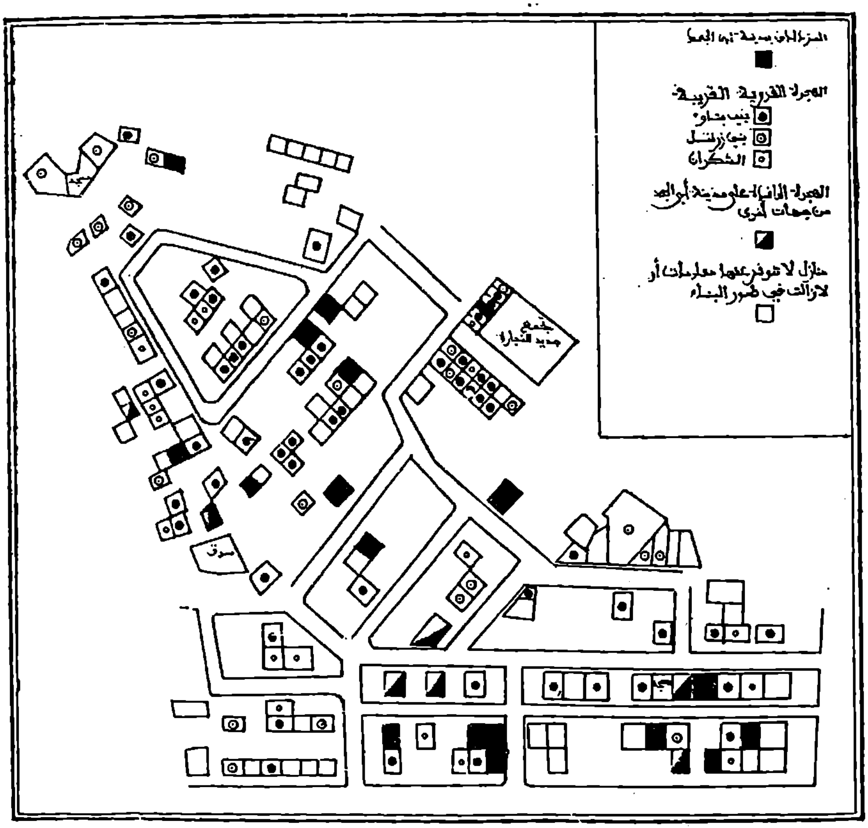

فالمجال الحضري لمدينة أبي الجعد ومن خلال مكوناته السوسيومجالية يمكن تنميطه إلى صنفين غير متجانسين من حيث الأصل الجغرافي لساكنته. ففي المدينة القديمة نجد الأصل الجغرافي البجعدي أو الشرقاوي : فقد تبين أن أكثر من 72% من الأسر ذات الأصل البجعدي تعيش داخل المدينة القديمة : أما الصنف الثاني، فيتكون من أبي الجعد الجديد والذي معظم سكانه من التيارات الهجرية الوافدة.

خلاصة

يبدو من خلال معطيات هذا العرض أن مدينة أبي الجعد عرفت تطورا ديموغرافيا في الآونة الأخيرة، وافداً بشكل خاص من المناطق المجاورة. وهنا لابد من طرح السؤال التالي : هل تطور الهجرة الداخلية نحو مدينة أبي الجعد يمكن اعتباره مؤشراً عن صحوة اقتصادية تعرفها هاته الأخيرة. أو بمثابة مؤشر عن نكسة اقتصادية تنضاف إلى نكسات المجال الريفي المتمثلة في توالي السنوات العجاف. ففيما يخص مسألة أن تكون هناك صحوة إقتصادية تعرفها مدينة أبي الجعد، فهذا ما لا أعتقده. فالبنيات الاقتصادية للمدينة لم تتكيف مع التطور الزمني وإنما ظلت تعيش على إرثها القديم. فاقتصاد مدينة أبي الجعد مدين لثلاثة عناصر استطاعت الإستمرار إلى الآن. يتعلق الأمر بصناعة المائدة التي تُصَدَّر إلى مجموعة من المدن المغربية والنسيج الذي يُصَدَّر هو الآخر، وأخيراً صناعة الجير. إن هاته العناصر الثلاثة تشغل مجموعة مهمة من اليد العاملة. وهي، رغم أهميتها، لا تتعدى ضمان إعادة الإنتاج البشري ؛ كما أن مجموعة أخرى من الأسر تعيش من ريع أبنائها العاملين في مدن أخرى أو خارج المغرب.

إن الهجرة الداخلية التي عرفتها وتعرفها مدينة أبي الجعد لا تعكس كون المدينة عرفت نمّواً اقتصادياً وإنما تعكس التأثير السلبي الذي خلفه الجفاف خصوصاً إذا علمنا أن 75،5% من الأفراد النشيطين بالأرياف المجاورة يعيشون من الفلاحة. فقد لاحظنا، من خلال البحث الميداني الذي أنجزناه، أن جانباً من الأسر باعت حيازاتها الفلاحية (الخريطة رقم 1) وتوجهت نحو مدينة أبي الجعد باعتبارها أقرب نقطة إليها. فالأسر الوافدة لم تختر مدينة أبي الجعد لنموها الاقتصادي وإنما تم هذا الاختيار نظرا لضعف الموارد المالية التي تسمح بالهجرة إلى مدن أبعد من مدينة أبي الجعد وأقواها اقتصاديّا.

إن تطور الهجرة الداخلية نحو مدينة أبي الجعد يعتبر نتيجة لأعراض التأزم الإقتصادي بالمجال الريفي البجعدي. فهاته الهجرة لم تقتصر على مدينة أبي الجعد وحدها، بل طالت مجموع مدن المنطقة وخاصة مدينة الفقيه بن صالح كما يتضح ذلك من الخريطة رقم 3.

الخريطة رقم 3

السكان الوافدون إلى الفقيه بن صالح حسب محلات ازديادهم

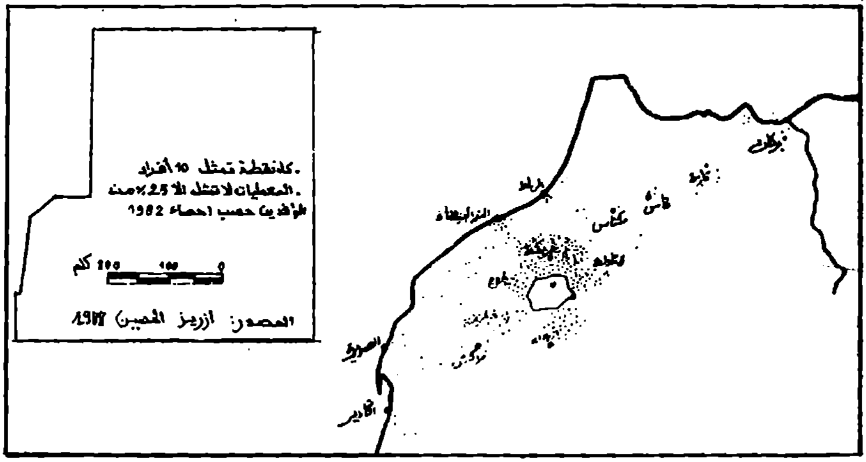

إن مدينة أبي الجعد لم تستقبل إلا الأسر الأقل قدرة على تحمل تكاليف الهجرة. فهناك تعرية اجتماعية للمجال الريفي البجعدي وتأزم للمجال الحضري. فإذا كانت التعرية الطبيعيَّة تقتضي خلق غطاء نباتي للحدِّ منها، فإن التعرية الإجتماعية تقتضي وضع غطاء اقتصادي للحد من هاته التعرية. لذا يتعيَّن على الجهات المختصة أن تقوم بردود فعل سريعة للحدِّ من هاته الهجرة خصوصاً داخل مدينة تبقى بنياتها السوسيواقتصادية محدودة.

وقبل أن أختم تدخُّلي هذا لابد من الإشارة إلى ملاحظة يمكن اعتبارها مدخلاً إلى بحث آخر، وهي دراسة الهجرة المعاكسة المتجهة من مدينة أبي الجعد نحو مدن مغربية أخرى أو نحو الخارج، خصوصاً إذا علمنا أن الهجرة الدولية تشكل في بعض

الأحياء 12،7% سواء داخل التجزئة السابقة (الخريطة رقم 4) أو داخل حي فرنسا. فلماذا هاته الهجرة المعاكسة، ولماذا لا يستثمر المهاجرون العاملون بالخارج عائداتهم بشكل أفضل داخل مدينتهم الأصلية بدل استثمارها في مدن أخرى كمدينة خريبكة وغيرها.

الخريطة رقم 4

الهجرة من مدينة أبي الجعد في اتجاه مدن مغربية أخرى أو نحو الخارج

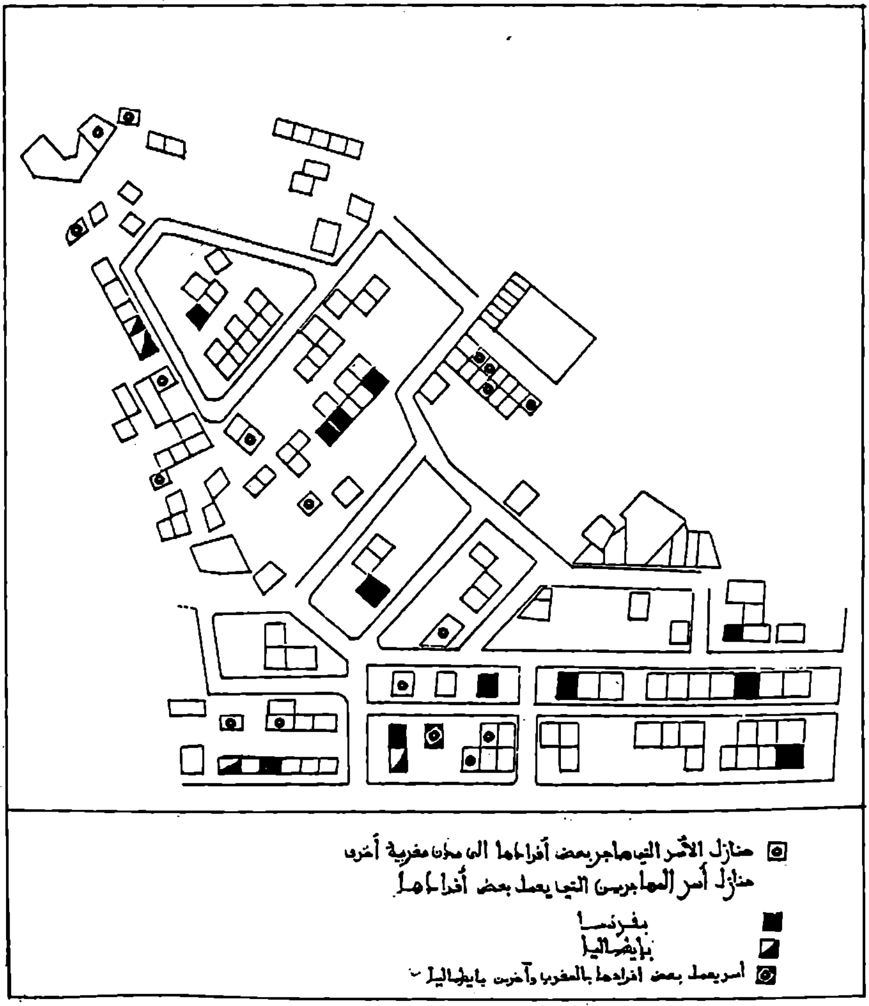

المصادر والمراجع

بالفرنسية

Chafik C. 1991, **Etude urbaine de Boujad, petite ville traditionnelle du Maroc**, thèse du 3ème cycle, Nancy.

CERED 1986, **Analyses et tendances démographiques au Maroc.**

CERED 1988, **Situation démographique régionale au Maroc. Analyses comparatives.**

CERED 1993, **Migration et urbanisation au Maroc.**

Eicklman D. F. 1978, «Formes symboliques et espace social urbain : Le cas de Boujad», **revue Lamalif**, N° 97.

Escalier, R. 1981, **Citadin et espace urbain au Maroc.**

بالعربية

الحسين أزريز (1992): «العلاقات الريفية الحضرية بسهل تادلة»، **أعمال الملتقى العلمي لمنطقة تادلا**، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 1، منشورات كلية الآداب، بني ملال.

منير صالح، ضياء حسن (1989): **دور الهجرة الداخلية في التطور الديموغرافي بمدينة سيدي سليمان من خلال إحصاءَيْ 1971 ـ 1981**، بحث لنيل الإجازة، كلية الآداب بالرباط.

بعض عناصر البحث والتفكير
في استراتيجية تنمية دائرة أبي الجعد

سعيد اشباعتو
كلية الحقوق ــ فاس

إن تدخُّلي هذا لا يهدف إلى إعطاء إستراتيجية نهائية ومقررة لتنمية منطقة أبي الجعد، ولكن إلى مشاركة متواضعة في الحوار الذي أنتم بصدده والذي هو مهم جدا نظرا لعناصر التفكير التي يتضمنها فيما يخص تنمية هاته الجهة.

وبصفة عامة، فإن الاستراتيجية لا تشكل سوى إطارا توجيهيّاً يعطي مراجع للمسؤولين الذين سيسهرون على وضع برامج عملية لتطبيقها.

وقبل وضع أية استراتيجية، من الضروري التساؤل حول نوعية وإشكالية التنمية المطلوبة ؛ هل تنمية الدائرة ستعتمد فقط على مؤهلاتها الذاتية والمبادرات المحلية، أم ستحل في إطار التنمية الوطنية، مستعملة آنذاك الإمكانيات الوطنية عن طريق تحويلات الميزانية التي تبرمجها خصِّيصا لهذه المنطقة.

وأمّا من جهة أخرى، فأظن أن استراتيجية التنمية ينبغي أن تنطلق من متطلبات الإنسان وأن تستهدف تحسين أحواله المعاشية، وبالتالي استعمال الوسائل التقنية والاقتصادية لمصلحة تحسين أحواله، تلك الأحوال التي يجب أخذها في مجالها الواسع (بما فيها الأحوال الثقافية والاقتصادية والاجتماعية).

ومهما يكن، فلا يمكن لهاته العناصر أن تصبح عمليَّة إلا بالعمل المشترك بين جميع مسؤولي القطاعات والمنتخبين والأُطر التي تشغلُها وتَهُمُّها أمور جهتكم وسُكانها.

وإن العناصر التي سأتكلم عنها ليست سوى عناصر تقنية فردية جمعتها لإعطائكم مجرد وجهة نظر ويمكن أن تناقشوا هذه العناصر فيما بينكم مرات ومرات، حتى تتمكنوا من إغنائها بالحوار والتنسيق بين جميع المهتمين، والتمكن بالتالي، من الوصول إن شاء الله، إلى الهدف المتوخّى الذي يتمناه الجميع.

وهكذا، وانطلاقا من طاقات الدائرة، يتضح جليّاً أن المكونات الأساسية للجهاز المنتج هي الزراعة وخصوصا الحبوب وتربية الماشية. وتشتمل الدائرة على حوالي 57.300 هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة أي ما يعادل 42% من الأراضي الإجمالية والصالحة للزراعة لمجموع الإقليم، كما تحتوي الدائرة على 14.150 هكتار من الأراضي الرعوية و51.000 هكتار من الغابات التي تمثل حوالي 37% من المساحة الإجمالية للدائرة و56% من الرصيد الغابوي للإقليم.

ورغم ذلك، فإن كثرة أراضي البور المتحجرة تجعل المردودية الفلاحية جد ضعيفة (في المعدل 11 قنطارا في الهكتار الواحد بالنسبة للقمح الصلب، و13 ق/هـ بالنسبة للقمح الطري و15 ق/هـ بالنسبة للشعير).

وإن تربية الماشية تهم بالخصوص الأغنام والماعز (160.000 رأس من الأغنام، و36.000 من الماعز و11.500 رأس من البقر) وإن الجنس المحلي المسمى بالجنس الأصفر ذو شهرة كبيرة ويعطي منتوجاً إيجابيا.

وفيما يخص حجم الضيعات، فإن الأراضي الصالحة للزراعة تعرف تجزيئا كبيرا يعرقل بصفة حادة تنمية وتطور القطاع الفلاحي (حوالي 9.820 ضيعة أي ما معدله 5،6 هـ/ضيعة) إن عدد الضيعات ذات المساحة الأقل من 5 هكتار يمثل حوالي 59% من مجموع ضيعات الدائرة.

وعلى مستوى الصناعة التقليدية، تستفيد دائرة أبي الجعد من معرفة مهنية ذات تاريخ قديم في مجال غزل الصوف والحرير وأشغال الطين. وتحتوي على أيادي عاملة صناعية ماهرة بإمكانها إعادة ديناميكية هذا المركز. ويوجد بها 4 مراكز للتكوين في مجال الصناعة التقليدية (من مجموع 8 توجد بالإقليم كله) كما تحتوي الدائرة على 5 تعاونيات للصناع التقليديين تمارس نشاطها منذ سنة 1988.

وبالنظر إلى هاته الطاقات، فإن المكونات غير المتغيرة والقارة لكل استراتيجية تنمية يمكن جردها فيما يلي :

1 ـ تحسين جهاز الإنتاج الفلاحي

1.1 ـ على مستوى الزراعات، وذلك بتهييئ الأراضي عن طريق عمليات إزالة الأحجار وأشغال تجهيزات السقي الصغير والمتوسط، وعن طريق عمليات مندمجة تمكّن من مضاعفة الانتاج والمردودية بالبور. ويمكن مضاعفة الانتاج أربع مرات إذا ما أضفنا عامل السقي الصغير. وفي هذا الإتجاه، تم إنجاز عدة مشاريع منذ سنة 1993، وسيتم إنجاز عدد آخر هاته السنة.

2.1 ـ تحسين المراعي : إن تربية الماشية بدائرة أبي الجعد تعتمد على المرعى، وتحتوي على 20% من البقر و35،5% من الغنم لمجموع رؤوس الماشية التي يشتمل عليها الإقليم.

وتكوّن عاملاً حاسماً في استقرار الفلاحين ؛ ولكن الإستغلال المفرط للمراعي والغابة والضغط الديمغرافي على الموارد الطبيعية وارتفاع تكلفة كراء الأرض، عوامل تقلّص سنوياً من مردوديّة الكلإ، والدور الإقتصادي والإجتّماعي المعتاد لتربية الماشية. ويقدر النقص في وحدات الكلإ بنسبة 40%. ويمكن القيام بإجراءات في هذا المجال (تحسين المراعي) في جماعات بوخريس وبني زرانطل وبني بتاو وشكران، وكذلك عن طريق تنفيذ مشروع هضاب بني زمور الذي استكملت دراسته منذ سنين.

3.1 ـ تحسين نسل الماشية، وذلك عن طريق عمليات التلقيح الإصطناعي : نظرا للدور الإقتصادي الذي تلعبه تربية المواشي (20% من البقر، 30،5% من الغنم وما يزيد على 27% من حيوانات الجر)، يجب تشجيع عمليات تحسين النسل. وإن الهياكل الإقليمية لمساندة هاته العملية موجودة ؛ ولقد تم تحسين نسل أكثر من 14.000 رأس من الغنم مما ترتب عنه تقليص نسبة الوفيات من 10% إلى أقل من 2%. وأدى هذا التحسين إلى الرفع من الوزن المتوسط للأغنام الذكور البالغة من 90 إلى 114 كيلوغرام والإناث من 45 إلى 60 كيلوغرام. وهاته الطريقة في تحسين النسل، رغم ضعف وتيرة إدخالها، تشمل كذلك البقر الذي لازال يحتوي على عدد كبير من البقر المحلي الضعيف الإنتاج فيما يخص الحليب واللحوم.

2 ـ تكثيف الإنتاج الفلاحي

إن مردودية المجال الفلاحي يمكن الرفع من مستواها بقدر هام عن طريق استعمال وسائل عصرية للإنتاج : كاستعمال المزروعات المقتناة وإدخال الوسائل

الميكانيكية كالجرَّار سواء في الضيعات الفردية أو على مستوى جمعيَّات أو تعاونيَّات ملائمة للناحية. وفي هذا الإتجاه، يمكن خلق وحدات لإنتاج المزروعات المقتناة والتي ستبيعها للفلاح بأقل تكلفة وتساهم في تشغيل الشباب المتخرج من مراكز التكوين الفلاحي في هذا المجال.

3 ـ تنويع الأنشطة الإقتصادية

وفي هذا المجال، يجب اتخاذ التدابير التالية :

ـ تدعيم تنويع الأنشطة الإقتصادية الفلاحية وغير الفلاحية التي لها علاقة بالفلاحة في مجال تزويد الفلاحة وتحويل المواد الفلاحية.

ـ تشجيع الصناعات التقليدية التي تتوفر على مهارات محلية في شتى الميادين.

ـ إدخال وحدات صناعية جديدة ووحدات سياحية مع العمل على إعطائها امتيازات كالأرض والتجهيزات الأساسية قصد التخفيف من الزيادة في تكلفة النقل من ميدان الإنتاج إلى ميدان الإستهلاك أو التصدير.

ـ التعريف في نواحي المملكة بالمواد المنتجة في أبي جعد

ـ إعطاء تكوين مهني ملائم لحاجيات الإقتصاد المحلي عن طريق التشاور مع المكوِّنين على الصعيد الوطني والجهوي.

4 ـ رفع العراقيل

من ضمن العراقيل التي تحد من تنمية الدائرة، يمكن التَطَرُّق إلى نقطتين هامَّتين، وهما : المواد المائية والعزلة :

أولا : ففيما يخص الماء، فإن الموارد المائية التي يُمكن تعبئَتُها في مجال الدائرة نادرة، ويمكن القيام بعمليات لفائدة الفلاحين تهم ما يناهز ألف هكتار في جماعات تشرافت، شكران، بني زرنطل، بني باتاو، الرواشد، بوخريس، أولاد كواوش. ولكن من الممكن تحويل مياه أخرى من عدة نقط خارج الدائرة. ويقترح في هذا الشأن ثلاثة حلول بديلية :

1) من واد زمرين ببنكركور

2) مزكندا على واد كرون

3) دشر الواد أو ايمزديفن على واد ملوية

وسيمكّن هذا التحويل للمياه من ري حوالي 4.000 هكتار.

ولكن هاته التحويلات يجب إنجازها دون أخذ مردوديتها المالية (الضيقة) بعين الاعتبار، ولكن لدورها الِاجتماعي في إطار التضامن الوطني الذي يمكن أن يكون أداة ذات جدوى اقتصادية.

ثانيا : إن فك العزلة على إقليمي خنيفرة وبني ملال سيمكن من تنويع الأنشطة الِاقتصادية وكذا من تثمين وتسويق أفضل لمنتوجات هاته الجهة وطاقاتها.

وفي الأخير، وإذا ما طرح تساؤل حول أسباب الِازدهار الذي عرفته المدينة في الماضي، يتضح أن الأساس لم يكن عطاء الطبيعة أو الثروة الاقتصادية وإنما كان ناتجا عن عمل رجال يمتلكون إرادة قوية، رجال متحضرين ومحبين لأهالي عدوتهم، جَدّوا واجتهدوا حتى أصبح لجهتهم ذلك الصِّيت المعروف على المستوى الوطني، ومكّنوا أهاليهم من العيش المتوازن السعيد. ولهذا قبل اقتراح أية استراتيجية أو البدء في التفكير فيها، يجب تجنيدُ أبناء المنطقة الذين أنعم الله عليهم وتحسيسُهم بالدور الذي يمكنهم القيام به فيما يخص دائرتهم.

من أجل النـهوض بأبي الجعد*

الحبيب المالكي
المجلس الوطني للشباب والمستقبل

إذا سمحتم، وقبل أن أعطي الكلمة للأستاذ كمال عبد اللطيف المقرر العام لأعمال هذه الأيام، لابد من الإشارة إلى ملاحظة عامة تتعلق بكلمة ومشتقاتها، تم استعمالها منذ انطلاق أشغال هذه الأيام. يتعلق الأمر بكلمة **أزمة**، حيث ورد في كثير من التدخلات أن أبا الجعد يعيش في أزمة، وأن مدينة أبي الجعد تتراجع، وأنها مهمشة، إلى غير ذلك... وقد اجتهدنا جميعا لتشخيص الأسباب والعوامل البعيدة والقريبة التي أدت إلى هذا الوضع. ولكن هناك عاملاً أساسياً لم نتطرق إليه، وهذا العامل يهمنا نحن كَبْجَعْدِيِّين، أي العامل الذاتي.

لا يمكن أن نعتبر أن الوضع الذي تعيشه مدينة أبي الجعد هو وضع خطط له، نحن لا نعتقد بذلك. إن الوضع الذي تعيشه مدينة أبي الجعد هو نتيجة عوامل متعددة. إن أهم هذه العوامل، إن لم يكن العامل الرئيسي، يتعلق بنا نحن : نحن المسؤولون عن الوضع العام الذي تعيشه مدينة أبي الجعد ؛ مجموعة من الفعاليات في الميدان الفكري والثقافي، في الميدان الإقتصادي، في الميدان المالي، في الميدان الإجتماعي والميدان الفلاحي، منحها الله من فضله، ونأمل أن تعطاها إمكانيات أخرى وأن تتوافر لها شروط أكثر لتوسيع رأسمالها، وعليها أن تلتفت إلى واقع مدينتها.

إننا نريد، انطلاقا من هذه الأيام الدراسية الأولى، أن نوجه نداء إلى كل أولئك الذين يشعرون بانتمائهم إلى هذه المنطقة. نوجه لهم نداء أخويا، نداء جماعيا من أجل الاهتمام بمدينتهم لتتمكن من الإقلاع والنهوض في مطلع القرن القادم.

* أصل هذا التدخل الكلمة التي ألقاها الأستاذ الحبيب المالكي في الجلسة الختامية.

فإذا كانت مدينة أبي الجعد قد لعبت أدوارا مهمة في القرن التاسع عشر ـ والإخوة الزملاء في مداخلاتهم ذات المستوى العالي أعطوا مجموعة من الأمثلة ـ، فإننا ننتظر أن تقوم بأدوار جديدة في القرن الواحد والعشرين. لذلك أقول وأكرر : نحن المسؤولون بالدرجة الأولى عمّا آلت إليه أوضاع المدينة.

بناء على ما سبق، كيف يمكن إعادة بناء هذه المدينة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ؟ هناك مجموعة من الاقتراحات سنشير إليها بكيفية مركبة، في إطار التقرير العام الذي سيقدمه الأخ كمال عبد اللطيف، لكنني أريد أن أعاكس، إلى حد ما، الإتجاهات الحالية في الميدان التجاري والميدان الإقتصادي الذي تعرفه مدينة أبي الجعد ودائرة أبي الجعد. وأقول ـ بناء على فرضية شخصية ـ إن المستقبل الإقتصادي لمدينة أبي الجعد ولدائرة أبي الجعد يوجد خارج إقليم خريبكَة، تسألون أين ولماذا ؟ لسبب بسيط، هو أن المورد الأساسي للإقليم هو الفوسفاط، والفوسفاط له مجموعة من الخاصيات، وقد قلت مرارا وأكرر اليوم إن مصدر فقر الإقليم الذي ننتمي إليه هو ثروة الإقليم، أي الفوسفاط. مصدر فقرنا هو ثروتنا في الواقع، ولا أطيل في تحليل هذه الظاهرة. إذن مستقبلنا الإقتصادي خارج الإقليم. أين ؟ خنيفرة. فخنيفرة متنفس أساسي، ونعمل الآن على أن يكون هناك خط مباشر رابط بين الدار البيضاء وخنيفرة مرورا بمدينة أبي الجعد.

وستنطلق إن شاء الله في الأسابيع المقبلة أشغال الشطر الأول من هذا الطريق الحيوي لمدينة أبي الجعد ودائرتها. أين يوجد المستقبل الإقتصادي لمدينة أبي الجعد ودائرتها ؟ الفقيه بن صالح وبني ملال متنفسان أساسيان نظرا لتنوع الأنشطة الإقتصادية، ونظرا كذلك لمجموعة من العوامل الأخرى، المرتبطة بالتاريخ والثقافة ولن أطيل في هذا الباب. لذلك أقول طالبنا بتقوية الطريق التي تربط أبي الجعد بالفقيه بن صالح، وهذا العمل سيباشر في الأشهر المقبلة أيضا إن شاء الله. لذلك، على المجلس البلدي والجماعات القروية أن تضع خطة تعاقدية جديدة مع المجالس البلدية لهذه المناطق، وكذلك خطة تعاقدية بين الجماعات القروية لإقليم خنيفرة وإقليم بني ملال لأنه ـ وبكل صراحة ـ بعد دراسة متأنية جدا، اعتمدَت على مجموعة من المعطيات، وصلنا إلى هذه الحقيقة المتمثلة في أن المستقبل الإقتصادي لهذه المنطقة يوجد خارج إقليم خريبكَة.

فعلينا أن نتجه ونعمل لنقوي العلاقات بين هذه المناطق، وإذا خلقنا حركية جديدة سنعمل على تجاوز مجموعة من المشاكل، مشاكل الحدود على سبيل المثال التي تلوث الجو في هذه المنطقة بين الجيران ؛ كما أن إحياء مجموعة من الحرف التقليدية لا يمكن أن يتم إلّا بناء على المعطيات السابقة الذكر.

هذه خلاصة لا أريد أن تصبح قاعدة أساسية للعمل، ولكنها خلاصة أتقدم بها إلى الإخوة والأخوات الحاضرين معنا والمشاركين في هذا الملتقى. وبدون شك فإننا في الأشهر والسنوات المقبلة سنحقق بعض النتائج. إننا نعي جيدا أن البناء الإقتصادي طريق صعب، وصعب جداً، ويتطلب نفساً طويلًا وواقعية وحكمة ؛ وكل هذا ممكن وفي متناولنا جميعا، شريطة أن يشعر الجميع ـ والجميع هنا نقصد به مكونات المجتمع البجعدي ـ أن النهوض بهذه المنطقة ليس حكرا على فئة من الفئات، بل هو عملية جماعية تستدعي تظافر الجهود وتتطلبه. فلنتجاوز خلافات الماضي حتى لا نبقى ماضويين لنضع أسس بناء مدينة القرن الواحد والعشرين، المدينة المتجذرة والمدينة الأصيلة ـ ومداخلات بعض الإخوة الشباب وحماسهم وصرختهم دوت في آذاننا جميعا حتى نعمل في اتجاه سليم وفي إطار الوضوح والتضامن لمصلحة المدينة والدائرة.

وأعطي الكلمة للأستاذ الزميل كمال عبد اللطيف ليقدم التقرير الختامي لهذه الأيام الثقافية، وذلك تحت رئاسة الأخ رئيس المجلس البلدي السيد عبد العزيز الشرقاوي وبحضور الإخوة المشاركين في هذه الأعمال.

الجلسة الختامية

خلاصات وآفاق

كمال عبد اللطيف
كلية الآداب ـ الرباط

يصعب على أي متتبع لأعمال الأيام الثقافية الأولى حول مدينة أبي الجعد، الإحاطة الشاملة بمختلف القضايا والخلاصات والأسئلة التي طرحت في هذه الأيام. ومع ذلك أستسمح السادة الأساتذة المشاركين في هذه الأيام، وكل المساهمين في مناقشاتها، أستسمحهم في القيام بمحاولة اختزالية تتوخى أولا وقبل كل شيء تقديم أبرز القضايا والتوصيات والآفاق التي رسمتها هذه الأيام.

وقبل تقديم هذه الخلاصات، أريد الوقوف على أمرين اِثنين يقفان وراء هذه الأيام، ويلعبان دور حجر الزاوية في مختلف ما قدم فيها من أعمال، وما تم التوصل إليه من خلاصات ورسمه من آفاق.

الأمر الأول : كانت هذه الأيام الدراسية، منذ انطلاق مشروع التفكير فيها إلى حين تنفيذها، موجهة بالهاجس العلمي. وقد برز هذا الهاجس في أغلب العروض التي ألقيت.

أما الأمر الثاني، فيتمثل في الإيمان العميق بأنه معرفة الواقع شرط أول من شروط المساهمة في تطويره ؛ فلا يمكن التفكير في معالجة مشاكل المدينة ودائرتها دون تشخيص جيد لمعطياتها، ومعرفة بإمكانياتها، وما يحيط بهذه الإمكانيات من شروط ومحددات.

ولم تتجاوز هذه الأيام ما تصورته اللجنة التنظيمية المشتركة بين كلية الآداب التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط والمجلس البلدي للمدينة. فقد تقرر منذ بداية الشروع في الإعداد لهذه الأيام أن تشكل حلقة أولى ضمن مشروع طويل المدى

وطويل النَّفس، مشروع يتيح إمكانية تحويل المدينة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، إلى فضاء قابل للمعرفة، أي قابل للفهم بالوسائل التي تتيحها مناهج وأدوات العلوم الإنسانية، من أجل البحث في الصيغ والمخططات القادرة على تطويرها وتنميتها.

وفي هذا السياق تم التفكير في أن يكون خدث تدشين هذا الفعل الثقافي، بمثابة مدخل أولي، يسمح بالإحاطة أولا بأبرز الإشكالات النظرية والمشاكل الواقعية، التي تؤطر الوجود التاريخي والاقتصادي والاجتماعي للمدينة، لنتمكن لاحقا من صياغة محاور أكثر دقة وأكثر تخصصا، وهو ما سيمكننا من الانتقال من عتبة البحث الأولي، والمسح الشامل والعام، إلى مرحلة التقصي المتخصص الذي يسمح بإدراك طبيعة البنيات المشكلة لنسيج المدينة، سواء في مجال تاريخ، أو في فضاء المجتمع، أو في المجالين الاقتصادي والثقافي. ومن المؤكد أن هذه العتبة ستتطلب منا المقاربة الميدانية حتى يتسنى تشخيص الوقائع، وفحص القضايا، ثم محاولة التغلب على المشاكل والعوائق بعد ذلك.

تقاطعت في هذه الأيام الثقافية مجموعة من المحاور : التاريخ، الاقتصاد، المجتمع، الثقافة، وقدمت في هذه المحاور أبحاث متعددة وقفت على جوانب من تاريخ المدينة، تاريخها الاجتماعي والسياسي، وتاريخ أقليتها اليهودية، وكذلك تاريخها الفكري المتمثل في بعض نصوصها الدينية، وبالذات النصوص التي اعتنت بموضوع السيرة النبوية.

أما في المجال الاقتصادي والاجتماعي، فقد اهتمت المداخلات بموضوعات الهجرة والتوسع العمراني، وأوضاع الحرف التقليدية، مع محاولات لحصر أهم المشاكل الواقعية التي تترتب عن الهجرة سواء من الأرياف المحيطة بالمدينة، أو الهجرة منها إلى الداخل والخارج.

وقد عالجت المقاربات الاقتصادية والاجتماعية موضوعاتها من منظور يتوخى تقديم اقتراحات إيجابية للنهوض بالمدينة، والرفع من مستواها.

ولابد هنا من توضيح أن معالجة المحاور المذكورة لم يتم بصورة مجردة ومعزولة، بل إن هذه المحاور تقاطعت فعلا خلال جلسات عمل الأيام الثقافية، حيث بدا من الصعب الفصل بصورة قطعية في مستويات التناول والمقاربة، رغم ما تفرضه المقتضيات المنهجية من أساليب ومناهج، وما تتطلبه الدقة من ترتيب ونظام. ويعود

سبب هذا التقاطع في نظرنا إلى أن موضوعات هذه الأيام الثقافية الأولى، كما قلنا ونؤكد عبارة عن مداخل أولية، تتجه لتحويل المدينة من أرض وبشر وعلاقات، إلى معطيات قابلة للتعقّل والفهم، من أجل الأرض والبشر والعلاقات.

راكمت الأيام الدراسية خلاصات هامة، وقدمت فيها توصيات، توخّت العمل على إنجاز كل ما يمكن أن يساعدها في المستوى المعرفي، على تخطي وتيرة الجمود التي ما فتئت تجترها، منذ عقود بعيدة في الزمان.

أما أبرز خلاصات الأوراق التي قدمت في هذه الأيام، فيمكن استعراضها بالتتابع الآتي :

ـ لا يمكن الادعاء بأن تاريخ المدينة والزاوية قد كتب. صحيح أنه أنجزت مونوغرافيات وأطروحات هامة في هذا الباب، إلا أن هذه الأبحاث لم تتجاوز ـ رغم قيمتها العلمية ـ عتبة انطلاق البحث في مجال مجهول.

وفي هذا السياق أكدت الأبحاث والمناقشات أهمية الوثائق المحلية في كتابة هذا التاريخ. فلا يمكن التقدم في هذه الكتابة إلا بمزيد من الاطلاع على الوثائق والمعطيات المحلية.

ـ دور الزاوية في تاريخ المغرب، ودور الزاوية الشرقاوية في بيئتها المحلية وفي محيطها الجهوي وفي المغرب ككل، وعلاقة هذه الزاوية بالزوايا المغربية الأخرى موضوعات في حاجة أيضا إلى مزيد من البحث والتقصي ؛ فلا تنفع في معالجتها الأحكام الجاهزة، ولا الخلاصات السريعة، بل ينبغي مواصلة إعداد الأبحاث لكشف نتائج هذه العلاقات وأبعادها في صيرورة التاريخ الوطني في مختلف مستوياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والرمزية.

ـ شكل الإطار الجغرافي والديمغرافي حيزا هاما في أبحاث ومناقشات هذه الأيام، وسجلت أغلب التدخلات في هذا الباب المفارقة العجيبة التي ما فتئت تعيشها المدينة، مفارقة تحولها من مدينة إشعاع ثقافي إلى هامش مسدود الآفاق.

فقد كان سؤال المدخل العام لهذه الأيام والذي بلور في إطاره الأستاذ الحبيب المالكي المفارقة المذكورة بين ماضي المدينة وحاضرها، مناسبة للتفكير المتواصل طيلة هذه الأيام، في كيفية تكسير وتيرة تحولها الرتيبة، من أجل انطلاق مسلسل تنميتها والنهوض بها.

وفي هذا الإطار قدمت في مجال الأبحاث الاقتصادية محاولة في البحث في الإجراءات والوسائل التي تسعف بإمكانية تطور المدينة، وقد تمت الإشارة في هذه المحاولة إلى مجموعة من الإجراءات، أهمها :

ـ إجراءات لتزويد الدائرة بالماء.

ـ إجراءات لتكثيف الفلاحة وتربية المواشي.

ـ إجراءات لفك عزلتها عن الأقاليم المجاورة وباقي أنحاء المملكة.

ـ إجراءات تنويع الأنشطة غير الفلاحية للصناعات الصغيرة والصناعة التقليدية، وذلك باستغلال المؤهلات المحلية، والتراث الثقافي للمنطقة، والذي كان خلال قرون عديدة محركا أساسيا للمدينة.

وقد تم التأكيد هنا على أهمية التشاور والتنسيق بين مسؤولي المصالح التقنية، وممثلي السكان، والجمعيات من أجل تجاوز العوائق التي تحول بين المدينة وبين سبل تنميتها.

قدمت هذه الخلاصات بروح اعتمدت كثيرا من الاحتراس في صياغة الفرضيات واستخلاص النتائج، وقدمت بهدف إيجابي منسجم مع مبدإ انطلاق هذه الأيام، أي خدمة المدينة : التعرف على ماضيها بصورة علمية، التغلب على مشاكل حاضرها، والإعداد لمستقبلها. فلم يكن التعامل مع ماضيها لا تمجيديا ولا سلبيا قدر ما جاء في أغلب الأوراق موضوعيا، لأن الغاية من بحثه كانت تتوخى المساهمة في التغلب على علل الحاضر. لقد كان الاهتمام بالماضي، بالتاريخ في هذه الأيام من أجل الحاضر والمستقبل.

أما أهم التوصيات التي قدمت في هذه الأيام الثقافية فقد جاءت مطابقة لاهتمامات الأوراق المقدمة فيها، منسجمة كذلك مع المرامي التي عقدت من أجلها هذه الأيام، أي أن تشكل فرصة لانطلاق العمل الإيجابي والمنتج، فرصة للاستماع لمختلف الآراء التي تتوخى النهوض بالمدينة.

التوصية الأولى : العمل على إعداد ونشر أعمال هذه الأيام الثقافية الأولى، لتشكل خطوة علمية في مجال البحث في جوانب متعددة من ماضي المدينة وحاضرها.

التوصية الثانية : مواصلة العمل مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، من أجل ترسيخ هذا التقليد السنوي وتطويره في أفق تعميق البحث في مختلف الأبعاد التي يطرحها ماضي وحاضر المدينة في أبعاده التاريخية والثقافية والاجتماعية.

التوصية الثالثة : إنشاء لجنتين علميتين تشرف عليهما كلية الآداب بالرباط، الأولى تقوم بمراجعة وثائق المدينة وتعمل على الاستفادة منها في كتابة التاريخ المحلي للمدينة، والثانية تقوم بإعداد هذه المخطوطات والوثائق للنشر بعد تحقيقها.

التوصية الرابعة : إنشاء متحف إيتنوغرافي يرعى مآثر المدينة ويحفظ علامات تاريخها، حتى لا تندثر وتنسى.

وفي هذا السياق تم التأكيد على أهمية هذا المتحف، خاصة بالنسبة لمدينة مَسْنُودَةٍ بتاريخ متميز من الحضور الثقافي والديني.

التوصية الخامسة : دعم القيام بأبحاث ميدانية تتعلق بقطاعات مختلفة في المدينة، كما تتعلق بشبابها، وذلك من أجل مزيد من معرفة حاجيات المدينة للاستفادة من كل هذا في إنجاز المخططات ومشاريع العمل الرامية إلى النهوض بها. وهنا تم إبراز أهمية تشكيل لجنة اقتصادية من الخبراء تقوم بالتشاور والتّنسيق مع المصالح المعنية في المدينة لإعداد أبحاث تساعد على صياغة مخططات التنمية في الدائرة.

وفي نهاية هذا التقرير، أريد أن أسجل بكثير من الاعتزاز المناخ العام الذي دَارَتْ فيه أعمال هذه الأيام. فقد كانت المناقشات لا تعكس فقط نَهَمَ الشباب للمعرفة بمواظبتهم على حضور هذه الأيام ومتابعتها، بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى مجال المشاركة الفعالة والمجتهدة. وهو أمر يدل على حيوية شباب المدينة ونخبتها المثقفة.

ولن أختم هذا التقرير دون الإشادة بكثير من القُوة في العبارة والقول بجهود المجلس البلدي للمدينة الذي أحاط الأساتذة المشاركين في الندوة بكثير من الرعاية والعناية، فوفّر لهم كل شروط الحوار العلمي من أجل إنجاح هذه الأيام.

ملـحـق

يتضمّن هذا الملحق الكلمات التي أُفْتُتِحَت بها الأيام الدراسية حول مدينة أبـي الـجعد.

جانب من المعارض التي نظمت على هامش الأيام الدراسية

كلمة الأستاذ محمد علال سيناصر
وزير الشؤون الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله المصطفى الكريم

سعادة رئيس مجلس النواب السيد محمد جلال السعيد

سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكَة السيد أحمد شوقي

السيدات والسادة والحضور الكريم

يسرني في مستهل هذه الكلمة أن أعبر عن تهنئتي الحارة للسادة المشرفين من منتخبين ورجال سلطة على تنظيم الأيام الدراسية الأولى لأبي الجعد على هذه المبادرة الطيبة التي تتحقق اليوم على أرض الواقع في هذه المنطقة العزيزة من وطننا الحافلة بالأمجاد، الغنية بالعلماء والصالحين.

وأريد أيضا أن أحيِّي الأساتذة الأجلاء القادمين من مختلف جامعاتنا وكلياتنا من أجل الإسهام بدراساتهم وأبحاثهم القيمة التي ستُلقي ـ لا محالة ـ مزيدا من الأضواء على تاريخ المنطقة، وخاصة مدينة أبي الجعد ومآثر رجالاتها من العلماء الذين كانت لهم اليد الطولى في نشر الثقافة والعلوم، وعلى مكانة الزاوية الشرقاوية وأدوارها الدينية والعلمية والاجتماعية.

وكم يسرنا أن نلاحظ أن منظمي هذه الأيام الدراسية لم يقتصروا على معالجة جوانب إنسانية وعمرانية من التراث الحضاري القديم للمدينة، بل تطلعت همتهم في الوقت نفسه إلى الوقوف على حاضر المدينة ومستقبلها من خلال آفاق تنمية مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية وتوسع عمرانها حتى تكون حاضرة تكتمل فيها أسباب الحياة الكريمة لأهلها المتطلعين إلى الغد الأفضل، وللإسهام في معركة التنمية الاقتصادية

والاجتماعية والثقافية التي يخوض غمارها الشعب المغربي بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

إن تنظيم الأيام الدراسية الأولى لأبي الجعد جدير بالتنويه والتقدير لما تكتسيه هذه التظاهرة من أبعاد علمية وثقافية، وهو مؤشر صادق على وجود وعي عميق لدى أبناء المنطقة من رجال العلم والثقافة والفكر بضرورة المشاركة العملية في رفع الستائر التي ظلت زمنا طويلا تحجب عنها الرؤيا العميقة نحو تاريخنا وتاريخ رجالاتها وما أسهموا به من جهد فكريّ وعلميّ في تشييد صرح الحضارة المغربية عبر الحِقب والأجيال.

وتأتي هذه التظاهرة الثقافية ومثيلاتها المنظمة في مختلف جهات المملكة لتؤكد الصحوة الثقافية التي يعيشها المغرب حاليّاً بفضل ما وفر لها جلالة الملك الحسن الثاني أيّده الله من أسباب الِانبعاث والازدهار والتطور، وما هيَّأ لها جلالته من دروب معبَّدة تساعد على بلوغ المرامي والأهداف، وتساعد على ضمان الاستمراريَّة لسنن العطاءات الفكرية والإبداعية.

وفي هذا الإطار كانت القضايا الثقافية في مدينة أبي الجعد محل اهتمام وزارة الشؤون الثقافية، وخاصة بعد الزيارة القصيرة التي قمت بها لهذه المدينة خلال الشهر الماضي في نطاق جولة شملت الأقاليم المجاورة.

وهكذا أوفدت الوزارة في أوائل هذا الشهر إلى إقليم خريبكَة لجنة من كبار المسؤولين في مديرياتها، لبحث الاقتراحات الخاصة بالبنيات التحتية الثقافية في ضوء تصميم التهيئة الحضرية لمدينة أبي الجعد. وبعد الاجتماع الذي انعقد في مقر عمالة خريبكَة، توجه وفد الوزارة إلى أبي الجعد لمعاينة الحاجيات والمشاريع الثقافية من المباني التي قد تشكل فضاءات صالحة للعمل الثقافي الذي تستعد الوزارة لتوظيفه في هذه المدينة.

وجاءت زيارة لجنة وزارة الشؤون الثقافية لأبي الجعد في أعقاب الاجتماعات التي انعقدت يوم 29 مارس الماضي بمقر الوزارة بحضور لجنة من المجلس البلدي لأبي الجعد، وتمت خلالها مناقشة الحاجيات الثقافية للمدينة سواء أكان الأمر يتعلق بالتجهيزات السوسيوثقافية أم بالجمعيات الثقافية والفنية.

ولا يسعني إلاّ أن أعبر عن ارتياحي للجو الإيجابي الذي طبع هذه اللقاءات التي تميَّزت بطرح المشاكل الثقافية وخاصة منها المرتبطة بإيجاد الأماكن المؤهَّلة لاحتضان الأنشطة الثقافية، كما أبرزت أن اهتمامات السلطات المحلية والإقليمية والمنتخبين، سواء على الصعيد المحلي أو الوطني، اهتمامات واحدة تسعى كلُّها لخلق الظروف الملائمة لتأسيس عمل ثقافي جيد وتوفير أسباب نجاحه.

وقد تم التوصل خلال هذه الاجتماعات إلى مجموعة من الاقتراحات بشأن إحداث دار للثقافة متوفرة على عدة أقسام تهتم بتعليم الموسيقى وبإقامة المعارض وقاعات للتنشيط الثقافي وتوظيف المقر السابق لمتحف أحمد الشرقاوي لإيواء خزانة وقاعة للمحاضرات ورواق للمعارض مع نقل محتويات الخزانة البلدية الحالية إليه، وإعادة فتح المتحف الإثنوغرافي. وستقوم الوزارة أيضا بجرد بعض المعالم التاريخية وترتيبها والعمل على صيانتها وتوظيفها وإعادة هيكلة بعض الأحياء والساحات لإحياء بعض الأنشطة الأصيلة بالمدينة وتوظيف بعض الدور الخاصة لأغراض ثقافية وسياحية.

ولا يسعني بهذه المناسبة إلاّ أن أعبِّر عن الشكر الجزيل للسيد عامل الإقليم ولرئيس وأعضاء المجلس البلدي لمدينة أبي الجعد ولنائب المدينة في مجلس النواب الأستاذ الحبيب المالكي على المؤازرة التي تحظى بها لديهم المشاريع الثقافية لإخراجها إلى حيِّز الوجود في أقرب الآجال.

كما أن اللجنة المشتركة التي تم الاتفاق على إحداثها، من شأنها أن تسهل إنجاز هذه المشاريع لتحقيق الانطلاقة الثقافية التي تنتظر مدينة أبي الجعد ويترقبها سكانها بفارغ الصبر.

وختاما، أجدد التعبير عن الشكر الجزيل لمنظِّمي هذه الأيام الدراسية على دعوتهم الكريمة، متمنِّيا لكم النجاح والتوفيق فيما أنتم بصدده.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ محمد جلال السعيد

رئيس المجلس الإقليمي لخريبكَة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

حضرات السيدات والسادة،

أود في مستهل هذه الكلمة أن أجزل الشكر والترحيب باسم المجلس الإقليمي لمدينة خريبكَة لمعالي وزير الثقافة الأستاذ علال سيناصر الذي يقوم ـ في غضون بضعة أسابيع ـ بزيارته الثانية لمدينة خريبكَة ومدينة أبي الجعد. فقد مكنته هذه الزيارة المتكررة ـ بدون شك ـ من الوقوف عن كَثَبٍ على مشاكل الثقافة وقضاياها بهذه المدينة العتيقة، وأخذ صورة حية عن واقعها الحالي وتطلعات سكانها من أجل استشراف آفاق مستقبل مشرق ينهض بمقومات هذه المدينة من حيث تراثها لتتبوّأ مكانتها اللاّئقة بها في الحقل الثقافي والعلمي بين مدن المملكة.

فإسهام وزير الثقافة بحضوره الشخصي يمثل في حد ذاته دعما مادّيا ومعنويّاً لإنجاح هذه التظاهرة. فباسم المجلس الإقليمي وباسمكم جميعا أجدِّد له الشكر والامتنان على ما لمسناه فيه من حرص كبير على استقصاء كل ما له علاقة بوزارته. كما أودُّ أيضا أن أنوّه بالدور الكبير الذي قام به المجلس البلديّ لمدينة أبي الجعد رئيسا وأعضاء بدعم ومساندة من أخينا وصديقنا الأستاذ الحبيب المالكي، نائب دائرة أبي الجعد الذي يؤول إليه الفضل في تنظيم وإنجاح هذه التظاهرة الكبرى التي تمت بتنسيق مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

إن تنظيم هذه التظاهرة بهذا الإحكام وبهذا الحجم يعطي الدليل القاطع على أن الجماعات المحلية في استطاعتها أن تؤكد ذاتها بما تبين عنه من مقدرات ومؤهلات، وبما تستطيع أن توفره من ظروف مواتية للنهوض بشؤونها وقضاياها وفق ما ترسمه من برامج وما تضعه من خطط.

ولا مراء في أن التكافؤ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لا يمكن أن يتحقق بكيفية متوازنة ومقبولة إلا في إطار قيام كل جماعة من الجماعات بالدور المنوط بها في الحقل التنموي، لأنها أعرف من غيرها بمشاكلها الذاتية وأقدر على إيجاد أنماط مقبولة كحلول لهذه المشاكل.

وأعتقد أن حضور الإخوة الأساتذة الجامعيين التابعين لهيئة التدريس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط يقوي في حد ذاته آصرة التعاون بين الجامعة كقاعدة للثقافة والعلم وبين الجماعة كأداة فاعلة في تحقيق التنمية المحلية.

فبالأمس القريب شاركت الجامعة في التظاهرة التي أقيمت بمدينة وادي زم حول تاريخ المقاومة بها ؛ وها نحن اليوم نلمس نفس الروح التي دأبت الجامعة على بثها وإشاعتها من خلال حضور ثُلَّة من أساتذتها في هذه التظاهرة التي تقيمها اليوم مدينة أبي الجعد.

وأجدني هنا مطوَّقا بأمانة الاعتراف بجدوى هذا التعاون مُشيداً بما ينطوي عليه من دلالات وما يرمز إليه من نبل المعاني وما يهدف إليه من جميل المقاصد، راجيا أن يتقوى في المستقبل ويتسع نطاقه ليشمل جماعات أخرى تحتاج في مسار مستقبلها إلى هذه الروح الإيجابية الخلاَّقة.

لقد أتاحت لنا هذه التظاهرة الميمونة أن نتجاذب أطراف الحديث مع السيد وزير الثقافة، وخرجنا بتصور هام يهدف إلى تحقيق تعاون مثمر بين مختلف الجماعات المحلية في البلاد ووزارة الثقافة، علماً بأن هذا التعاون يصبح ضرورة ملحَّة إذا أردنا أن نخطو خطوات عملية في مجال التعريف بالخصوصيات الثقافية والفنية لكل منطقة من المناطق مع إبراز مكامن هذه المقومات لتظل الصلةُ موصلة بين الأجيال ويبقى العطاء الإبداعي ساري المفعول.

إننا نتحمل أمانة صيانة تُراثنا والتعريف به لدى أبنائنا، هادفين من وراء ذلك إلى حوافز الاعتزاز بالانتماء والتعلق بتراثهم الأصيل. وهذا لن يتم إلا إذا تواصلت جهود المخلصين من أبناء هذا البلد الذين أتيحت لهم الفرص ليتبوَّأوا مكانة علمية مرموقة.

فعلى هذا الجيل المثقف واجب رد الجميل إلى المدينة التي ينتمي إليها، وذلك بالبحث في كل ما يبرز دورها الثقافي سواء في أغوار الماضي أو الحاضر أو في

المستقبل. بل إن نطاق المسؤولية يمتد إلى أكثر من ذلك ليشمل سائر القضايا، سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية.

ولا شك في أننا نعلم جميعاً وبدون استثناء أن وزارة الثقافة لا تستطيع بإمكانياتها المحدودة أن تغطي هذا المجال الواسع النطاق في سائر المدن والأقاليم، وأعتقد جازما أن نجاح أي مسعى حميد في الحقل الثقافي رهين بخلق تعاون وثيق بين الوزارة المختصة وسائر المدن والجماعات حتى تظل مدننا محافظة على أصالتها ورونقها وجمالها وتعطي للزائر صورة متكاملة تشهد بعبقرية أسلافنا وإبداعات أجيالنا الحاضرة.

لقد لاحظنا وعشنا سويّاً بعض الأنشطة الثقافية التي تمت بمناسبة موسم سيدي امحمد الشرقي والأسبوع الثقافي الذي نظم بمدينة وادي زم والمهرجان السينمائي الإفريقي بخريبكَة، ونود في المستقبل أن نحقق خطوات يتسم فيها العمل بالتنسيق مع الوزارة المختصة وفق برامج مدققة ومركزة.

وإننا لنسجل هنا ما لمسناه شخصيّاً من قناعة وزير الثقافة بجدوى التنسيق حيث سيوجه في الأسابيع المقبلة لجنة من وزارته لدراسة جميع قضايا الثقافة بهذا الإقليم.

وأود في الختام أن نهنيء أنفسنا على نجاح هذه التظاهرة آملين أن يشهد المستقبل تظاهرات مماثلة.

والسلام.

كلمة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

بسم الله الرحمن الرحيم **والصلاة والسلام على أشرف المرسلين**

معالي وزير الشؤون الثقافية،

سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكَة،

السيد رئيس المجلس الإقليمي،

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للشباب والمستقبل،

السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة أبي الجعد،

الزملاء الأعزاء،

أيها السيدات والسادة !

تواصل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بمشاركتها في تنظيم هذه الأيام الدراسية، تواصل جهودها المتمثلة في الانفتاح على محيطها الإقليمي والوطني وسعيها كي يشمل هذا الانفتاح مختلف المدن والمناطق المغربية، خصوصا تلك التي لا تحظى بمؤسسات جامعية، وذلك تمشيا مع التوجيهات الحكيمة التي ما فتئ صاحب الجلالة نصره الله يفيد بها الجامعة والجامعيين حيث حث جلالته الجامعة في مناسبات عدة على الاهتمام بمحيطها الاجتماعي القريب والبعيد.

فبعد اللقاءات الفكرية التي نظمتها كليتنا مع المجلس البلدي لمدينة آسفي وبعد الأيام الدراسية التي عقدتها في مدينة طنجة، تنظم اليوم، بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أبي الجعد، أياما علمية تتوخى المساهمة في كتابة تاريخ هذه المدينة ومعرفة مكانتها الرمزية والثقافية، مع محاولات في تشخيص واقعها الراهن، وكل ذلك من أجل المساهمة في التعرف على آليات التطور التي عرفتها المدينة وَوَسمت تاريخها

الخاص بسمات متميزة. تتناول هذه الأيام الدراسية ثلاثة محاور كبرى، يتقاطع فيها التاريخ بالثقافة والاقتصاد والمجتمع، وتقدم فيها عروض تروم المساهمة في إنعاش ذاكرة مدينة أبي الجعد وتسليط الأضواء على حاضرها بالصورة التي تساهم فعلا في الإعداد لتنميتها، وهو الهدف البعيد من وراء تنظيم هذا اللقاء العلمي ؛ فهذه بذرة زرعناها جميعا ويجب أن نرعاها جميعا. فإن وفقنا لذلك، فلعل الله عز وجل يخرج منها نباتا حسنا وثماراً طيبة.

أيها السيدات والسادة !

إن تنظيم هذه الأيام الدراسية الأولى حول مدينة أبي الجعد ما كان ليتم لولا تظافر جهود والتقاء إرادات، هنا في أبي الجعد وهناك في الرباط. ولهذا لن أختم هذه الكلمة دون الإشادة بهذه الجهود وهذه الإرادات.

فأبدأ بتوجيه الشكر الجزيل إلى السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكَة لما أبداه من تحمس ودعم لفكرة الأيام الدراسية حول مدينة أبي الجعد.

وأوجه شكري كذلك للأستاذ الحبيب المالكي نائب الدائرة في البرلمان وإلى جميع منتخبي هذه المدينة وعلى رأسهم السيد رئيس المجلس البلدي، ثم إلى كل من ساهم في التنظيم المادي لهذا الملتقى العلمي.

أما الزملاء الأساتذة، الذي ضحوا بأوقاتهم وراحتهم وقبلوا إثراء هذا اللقاء بعلمهم، فلهم من لجنة التنظيم عظيم الامتنان وبارك الله فيهم.

ولا يفوتني في الأخير أن أشكر جمهور المثقفين والمهتمين بمدينة أبي الجعد على حضورهم. ولا شك في أنهم سيغنون هذه التظاهرة العلمية بتدخلاتهم الصائبة وملاحظاتهم المفيدة.

نسأل الله عز وجل التوفيق والنجاح لأعمالنا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة السيد أبعيز الشرقاوي
رئيس المجلس البلدي لأبي الجعد

بسم الله الرحمٰن الرحيم

معالي وزير الثقافة،

سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم خريبكَة،

السيد المحترم رئيس مجلس النواب ورئيس المجلس الإقليمي

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للشباب والمستقبل

السيد الكاتب العام لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

حضرات السيدات والسادة

يسعدني شخصيّاً ونيابة عن باقي زملائي أعضاء المجلس البلدي أن أرحب بكم جميعا. وأتمنى لكم مقاما طيّبا بين ظهرانينا بمدينة أبي الجعد، التي تعتز أيما اعتزاز بعقدكم لهذا الملتقى الثقافي على أرضها والذي نأمل مخلصين أن يكون انطلاقة لملتقيات أخرى تبرز أصالة هذه المدينة التاريخية العريقة التي لا نألوا جهداً ولا نبخل بشيء حتى نرد لها الاعتبار معتمدين في ذلك على ذوي النيات الحسنة من رجالات وطننا العزيز.

ولقد سرّنا كثيرا أن تلبُّوا دعوتنا لعقد هذه الندوة العلمية المباركة، وما ذلك بعزيز على همة نخبة من رجال العلم والمعرفة.

السيد وزير الثقافة،

السيد العامل،

حضرات السادة الأفاضل،

أجل، إن مدينة أبي الجعد مدينة تاريخية قديمة تأسست في القرن العاشر الهجري على يد الشيخ سيدي امحمد الشرقي، وبالتحديد في الفترة العصيبة من ذلك

القرن، حيث عرفت البلاد هجوما صليبيّاً على معالمها الإسلامية والحضارية، فجاء تأسيسها كزاوية تعمل إلى جانب العديد من الزوايا كحصون وقلاع للحفاظ على شعلة الإسلام والجهاد في ربوع البلاد، وقد عاصرت في تأسيسها ميلاد الدولة السعدية ونشأتها وسقوطها، وكذلك قيام الدولة العلوية في مختلف أطوارها. ولقد قامت زاوية أبي الجعد إلى جانب دورها في الجهاد والكفاح بنشاطات علمية وتعليمية على يد شيوخها أمثال : أبو عبد الله محمد المعطي، أبو عبد الله محمد الصالح، أبو عبد الله محمد المعطي بن الصالح. إلا أن هذه النشاطات للأسف الشديد ظلت دفينة الوثائق والمخطوطات ولم يكتب أن يلتفت إليها من طرف الباحثين المعاصرين إلا النادر القليل كالأستاذ الأمريكي ذيل إيكلمان والأستاذ أحمد البوكاري.

كما أنه لم يكتب لهذه المخطوطات أن تصنف وتجمع في دار على غرار دار للثقافة أو متحف خاص بذلك.

حضرات السادة الأفاضل،

لذلك قر عزمنا كمتحملين لشؤون تسيير هذه المدينة وبصفتنا من أبنائنا أن نرد لها الاعتبار ونعرِّف بها وبالأمجاد التي عاشتها في مختلف المجالات العلمية والدينية والاقتصادية منسِّقين في ذلك مع السلطات الإقليمية والمحلِّيَّة التي لم تدَّخر جهداً في إنجاح هذه التظاهرة العلمية. وقد اخترنا كأول خطوة نقوم بها وبترتيب مع النائب البرلماني المحترم الأستاذ الحبيب المالكي ومع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ومع كل من له عطف على مدينة أبي الجعد، تنظيم هذا اللقاء الثقافي واخترنا له نخبة من أساتذتنا الأجلاء الذين ضحوا بوقتهم مشكورين من أجل المساهمة العلمية، ملبين بذلك رغبة طالما راودتنا، وسوف لن ندخر جهدا في سبيل تحقيقها، خاصة وأن المغرب ــ والحمد لله ــ يعرف قفزة نوعية في سبيل البناء والديمقراطية في عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

مرَّة أخرى مرحباً بكم ومع صادق متمنياتي بأن يكلل عملكم هذا بالتوفيق والنجاح. والسلام عليكم ورحمة الله.

المحتويات

- تقديم 7
- مدخل عام
  الحبيب المالكي 9
- أبو الجعد المدينة الزاوية : مسألة الهوية وإشكالية التطور
  أحمد البوكاري 15
- جوانب من التاريخ السياسي والديني والإجتماعي لأبي الجعد
  المالكي المالكي 25
- تاريخ يهود البوادي والمدن المغربية الصغرى، ملاحظات عامة
  محمد كنبيب 41
- إسهام المغاربة في كتابة السيرة النبوية : نموذج كتاب **الذخيرة** للشيخ محمد المُعطى بن الصالح الشرقاوي
  محمد حجي 57
- مصير زاويتين
  محمد مفتاح 67
- نحو تهيئ متحف تراثي بأبي الجعد
  أحمد التوفيق 81
- صفحات من النشاط العلمي بمدينة أبي الجعد
  محمد المنوني 91
- الحرف التقليدية بأبي الجعد بين الأمس واليوم
  عمر مديحي 103
- الأنشطة الإقتصادية والتوسع الحضري بأبي الجعد
  حسن ضياء 111
- التطور الديمغرافي والهجرة الداخلية بمدينة أبي الجعد
  منير صالح 133

• بعض عناصر البحث والتفكير في استراتيجية تنمية دائرة أبي الجعد
سعيد شباعتو 149
• من أجل النهوض بأبي الجعد
الحبيب المالكي 155
• خلاصات وآفـاق
كمال عبد اللطيف 159
• ملحق.
ـ كلمة السيد وزير الشؤون الثقافية 167
ـ كلمة السيد رئيس المجلس الإقليمي لخريبكَة 171
ـ كلمة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 175
ـ كلمة السيد رئيس المجلس البلدي لأبي الجعد 177

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب

تواصل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط جهودها المتمثلة في الانفتاح على محيطها الإقليمي والوطني، وتسعى ليشمل هذا الانفتاح مختلف المدن والمناطق المغربية.

فبعد اللقاءات الفكرية التي نظمتها في كل من مدينة أسفي والأيام الدراسية التي عقدتها في مدينة طنجة تقوم في نفس السياق بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أبي الجعد بتنظيم أيام علمية للمساهمة في كتابة تاريخ هذه المدينة ومعرفة مكانتها الرمزية والثقافية مع محاولات في تشخيص واقعها الراهن، وهو ما تناولته مساهمات الباحثين التي يتضمنها هذا الكتاب.